Winner
The Golden Man Booker Prize
50

مكتبة

459

المريض الإنجليزي

مايكل أونداتجي

جائزة مان بوكر الذهبيّة

مكتبة | 459

مايكل أونداتجي

المريض الإنجليزي

ترجمة أسامة إسبر

(طبعة جديدة محرّرة)

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

مكتبة ١٢ ٦ ٢٠١٩

المريض الإنجليزي

تأليف: مايكل أونداتجي
ترجمة: أسامة إسبر
تحرير أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-763-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2019

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2019
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-5311204
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

THE ENGLISH PATIENT
Copyright © 1992 by Michael Ondaatje

KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

مكتبة | 459

مكتبة
جديد الكتب والروايات
تابعنا هنا اضغط اللينك
t.me/ktabpdf
t.me/ktabrwaya
facebook.com/newpdf

المريض الإنجليزي

"أنا متأكّد أنّ معظمكم يتذكّر الظروف المأساويّة لموت جيوفري كليفتون في الجلف الكبير[1]، الذي تبعه فيما بعد اختفاء زوجته كاثرين كليفتون أثناء بعثة عام 1939 الصحراوية التي انطلقت للبحث عن الزّرزورة[2].

لا أستطيع أن أبدأ هذا اللقاء الليلة دون أن أشير ببالغ الأسى إلى تلك الحوادث المأساوية.

المحاضرة هذا المساء...»

من محْضَر اجتماع الجمعيّة الجغرافية[3] في نوفمبر *194-*، لندن

تحيّةً لذِكرى سكيب وماري ديكنسون

إلى كوينتن وغريفن

وإلى لويس دينس، مع الامتنان.

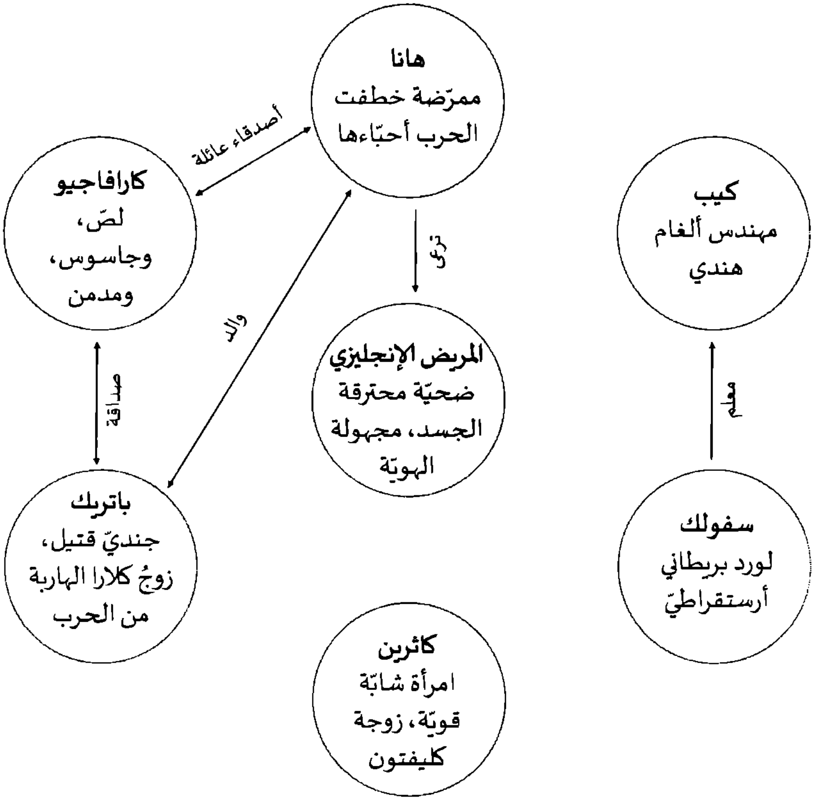
هانا
ممرّضة خطفت
الحرب أحبّاءها
أصدقاء عائلة
كارافاجيو
لصّ،
وجاسوس،
ومدمن
ترعى
والد
صداقة
المريض الإنجليزي
ضحيّة محترقة
الجسد، مجهولة
الهويّة
باتريك
جنديّ قتيل،
زوجُ كلارا الهاربة
من الحرب
كيب
مهندس ألغام
هندي
معلم
سفولك
لورد بريطاني
أرستقراطيّ
كاثرين
امرأة شابّة
قويّة، زوجة
كليفتون

الفهرس

I. الفيلا
II. في الأنقاض القريبة
III. نارٌ أحيانًا
IV. جنوب القاهرة (1930-1938)
V. كاثرين
VI. طائرة مدفونة
VII. في الموقع
VIII. الغابة المقدّسة
IX. كهف السبّاحين
X. آب

١

الفيلد

تقفُ في الحديقة حيث كانت تعمل، وتنظر بعيدا. تشعر أن الطّقس يتبدّل. تهب الرّياح مرّة أخرى، يعلو الضّجيج في الجوّ، وأشجار السّرو الباسقة تتمايل. تستدير وتسير صاعدة نحو المنزل، متخطّية جدارًا مهدّما، شاعرة بقطرات المطر الأولى فوق ذراعيها العاريتين. تجتاز الدكّة وتدخل المنزل مُسرعة.

لا تتوقف في المطبخ، بل تعبره وتصعد درجًا مُظلمًا، ثم تتابع سيرها عبر صالة طويلة يلوح في نهايتها شعاع ضوء كالسّهم، قادم من باب مفتوح.

تنعطف إلى الغرفة التي هي حديقة أخرى من أشجار وعرائش مرسومة على جدرانها وسقفها. يستلقي الرجل فوق السّرير، جسده معرّض للنسيم، وحين تدخل يُدير رأسه نحوها ببطء.

مكتبة

تغسل جسده الأسود كلّ أربعة أيام، مبتدئة بقدميه المهشّمتين. تبلّل قطعة قماش وتضعها فوق كعبَيه، وتعصر ماءها وتنظر للأعلى حين يغمغم، فتلمح ابتسامته. الحروق فوق عظْمَي السّاقين أشدّ سوءًا، لونها فاقَ الأرجوانيّ. عظْم. اعتنت به طوال أشهر، وتعرّفت على الجسد جيّدًا، على القضيب النائم مثل حصان بحريّ، والوركين النحيلين المشدودين اللذين ظنّت أنهما شبيهان بوَرْكَي المسيح. إنّه ملاكها اليائس، يستلقي مسطّحًا على ظهره دون وسادة، محدّقًا إلى الوُريقات المرسومة على السقف وعرائش الأغصان، وإلى ما فوقها، السماء الزرقاء.

تسكب مُضادّ الكالامين في خُطوط عبر صدره القليل الحروق، المكان الذي تستطيع أن تتلمّسه. تحبّ التجويف تحت الضلع السفلي، جُرُفه الجلديّ. وحين تصل إلى كتفيه، تنفخ هواء باردًا على عنقه، فيغمغم.
تخرج من تركيزها وتسأله: ماذا؟
يُدير وجهه الأسود ذا العينين الرّماديتين إليها. تدسّ يدها في جيبها. تقشّر خوخةً بأسنانها مُزيلةً النواة، وتمرّر لُبّ الثّمرة إلى داخل فمه.
يهمس ثانية، حاملًا قلبَ الممرّضة الشابّة جواره، المُصغي إليه دومًا، إلى حيث يرحل ذهنه، إلى بئر الذّاكرة التي واصلَ الانغماس فيها طوال تلك الأشهر التي سبقت موته.

يروي الرّجل في هدوء قصصًا في الغرفة، تنزلق من فضاءٍ إلى آخر كأنّها صقر. يستيقظ في التّعريشة المرسومة حوله، التي تحيطه بأزهارها المتناثرة، وأذرع أشجارها الضّخمة. يتذكّر النّزهات، امرأةً قبّلتْ جسده في أجزاء باتت محروقة الآن، لها لون الباذنجان.
يقول: أمضيتُ أسابيع في الصحراء، ناسيًا أن أنظر إلى القمر، كما يمكن أن يمضي رجل متزوّج الأيّام ولا ينظر أبدًا إلى وجه زوجته. لم تكن تلك ذنوبًا ناجمة عن اللامبالاة، بل أمارات انشغال.
تلاحق عيناه وجه المرأة الشابة، تنتقل مع حرّكة رأسها حتى الجدار. تنحني إلى الأمام. كيفَ حُرِقْت؟
النّهار على وشك الأفول، تلعب يداه بطرف الملاءة، يداعبها بظَهْر أصابعه.
هوَيْتُ محترقًا في الصّحراء.
عثروا على جسدي وصنعوا لي قاربًا من عِصِيّ، وجرّوني عبر الصحراء. كنّا في **بحر الرّمال الأعظم**[4]، نعبر بين فينة وأخرى مجاري أنهار جافّة. إنهم البدو الرّحّل. حين سقطتُ، اشتعل حتى الرمل. شاهدوني أقف عاريًا خارج الحريق. الخوذة الجلدية كانت تشتعل فوق رأسي. حزموني في مَهْدٍ، في هيْكل على شكل زورق،

وتحركت الأقدام بصوت مكتوم راكضة بي. لقد حطّمتُ صَمْت الصّحراء.
يعرف البدو عن النار والطائرات التي تسقط من السماء منذ عام 1939[5].
يصنعون بعض أدواتهم وآنيتهم من معدن الطائرات السّاقطة والدبّابات المحطّمة. حينئذ كان زمن حروب السماء. وحتى بات في وسعهم التعرّف على أزيز طائرة مصابة، وشقّ طريقهم عبر الشظايا. يتحوّل مسمارٌ من مقطورة القيادة إلى قطعة مجوهرات. ربما أنا أوّل شخص خرج حيًّا من آلة مشتعلة، كان رأسي يحترق. لم يعرفوا اسمي. ولم أعرف قبيلتهم.
من أنت؟
لا أعرف. تُلحّون في السؤال.
قُلْتَ إنك إنجليزي.

لا يتعب أبدًا في الليل بما يُحْوِجه إلى النّوم. تقرأ له من أيّ كتاب تعثر عليه في مكتبة الطابق الأرضيّ من المنزل. يضطرب ضوء الشمعة فوق الصّفحة وعلى وجه الممرّضة المتحدّث. بالكاد يرى، في هذه الساعة، أشجار الجدران والمشهد الذي يزيّنها. يُصغي إليها فيما تبلع كلماتها كالماء.
إذا صار الجوّ باردًا، تسير بحرص إلى السرير وتستلقي جواره. لا تستطيع وضع أيّ وزن عليه دون أن تؤلمه، حتى رسغها النحيل.
أحيانا، في الثانية صباحًا، تجده مستيقظًا، مُشرعًا عينيه في الظّلمة.

استطاع أن يشمّ رائحة الواحة قبل أن يدخل إليها. رطوبة في الجو. خشخشة الأشياء. النخيل واللُّجُم. دويّ علب الصفيح التي كشفت نبرتُها العميقة أنها مليئة بالماء.
سكبوا الزيت على قَطَع كبيرة من القماش الناعم ووضعوها عليه. لقد دُهِنَ.
يشعر بالرجل الصّامت الذي يبقى دائما قربه، يشمّ رائحة نَفَسه حين ينحني كي يُزيل عنه القماش كلّ يوم آنَ يخيّم الليل، كي يفحص جلده في الظلام.

حين عُرّي، أصبح مرة ثانية الرجل العاري قرب الطائرة الملتهبة. وضعوا عليه طبقات من اللبّاد الرماديّ. تساءل أيُّ أُمّةٍ عظيمة عثرت عليه، أيّ بلاد صنعت تمْرًا ليّنًا ليمضغه الرجل الذي إلى جانبه ثم ينقله من ذلك الفم إلى فمه. لم يستطع أن يتذكّر، خلال ذلك الوقت الذي أمضاه مع أولئك البشر، من أين هو. كلّ ما كان يظنّه هو أنّه العدوّ، الذي كان يقاتلهم من الجوّ.

فيما بعد، في مشْفى بيزا[9]، اعتقدَ أنّه شاهد إلى جانبه الوجه الذي كان يأتي إليه كلّ يوم، يمضغ له التمر حتى يَلِينَ، ثم يمرّره إلى فمه.

لم يكن لتلك الليالي لون، ولم يُسمَع خلالها كلام أو أغنية. يصمت البدو حين يستيقظ. راقدًا على مذْبَح له شكل أرجوحة، يتخيّل في حالته المُزرية تلك مئات البدو يُحيطون به، لكن اثنان منهم فقط من عثر عليه، انتزعا عن رأسه قُبّعة النار ذات القرنين. يميّز هذين الاثنين، واحدهما عن الآخر، من خلال تذوّق اللعاب الذي يدخُل إليه مع التّمر الممضوغ، ومِن وقْع الأقدام.

تجلس وتقرأ الكتاب تحت ضوء مرتعش. تُرسل نظرها، من حين إلى آخر، إلى صالة الڤيلا التي كانت مشفى حربيّ، حيث عاشَت مع ممرّضات أُخريات قبل أن يُنْقَلن تدريجيًا، فالحرب تتّجه شمالًا، الحرب على وشك الانتهاء.

في ذلك الوقت من حياتها، صارت الكتب منفذها الوحيد للخروج من زنزانتها. أصبحت نصف عالمها. تجلس إلى الطاولة الليليّة مُنحنية، وتقرأ عن الفتى الشاب في الهند الذي تعلّم أن يحفظ غيبًا أسماء مجوهرات وأشياء مختلفة موضوعة على صينيّة، تُقذَف من مُدَرّس إلى آخر – أولئك الذين علّموه اللهجة، وعلّموه الذّاكرة، وعلّموه أن ينجو من التنويم مغنطيسي.

تضع الكتاب في حضنها. تدرك أنها كانت تحدّق في مسام الورقة أكثر من خمس دقائق، إلى طيّة زاوية الصفحة السابعة عشرة، التي طواها أحدهم كعلامة. مرّرت يدها على وجه الصفحة. أحسّت بشيء يركض في ذهنها مثل فأرة في سقف، أو فراشة على نافذة الليل. نظرت عبر الصالة، رغم أنّه لا أحد يعيش الآن هنا،

في فيلا سان جيرولامو، غيرها والمريض الإنجليزي. عندها خُضار ممّا تزرعه في البستان المقصوف يكفيهما للبقاء على قيد الحياة. وكان رجل يأتي بين حين وآخر تتبادل معه الصّابون وبقايا لوازم المشفى الحربيّ، مقابل أشياء أخرى ضرورية كالفاصولياء واللحم. ترك الرجل لها زجاجتَيْ نبيذ، وكل ليلة بعد أن تستلقي مع الرجل الإنجليزي كي ينام، تصبّ لنفسها كأسًا بشكل احتفاليّ، وتحمله إلى الطاولة المُعتمة خارج الباب الموارب، فتشرب وتنغمس في أيّ كتاب كانت تقرأه.

الكتب بالنسبة إلى الرجل الإنجليزي، سواءً أصاخ السّمع أم لا، تحتوي على ثغرات في الحبكة مثل أجزاء من طريقٍ مسحتها عاصفة، وتفتقد حوادثَ كأنّ الجراد التهم قسمًا من نسيج مطرّز، أو كأن جصًّا أضعفه القصف سقط عن لوحة جداريّة ليلًا.

الڤيلا التي سكنتها مع الرجل الإنجليزي تشبه ذلك كثيرا. لا يمكن الدخول إلى بعض غرفها بسبب الحطام، وسمحَت ثغرة أحدثتها قنبلة لضوء القمر وللمطر أن يدخلا إلى المكتبة في الأسفل، حيث يوجد في إحدى الزوايا كرسيّ مذرّع مبلّل دومًا. إن اهتمامها بالمريض الإنجليزي يوازي اهتمامها بالفجوات في الحبكة. لم تلخّص الفصول المفقودة. كانت تُحضر الكتاب ببساطة وتقول: «الصفحة 96» أو «الصفحة 111» وهذا هو المؤشر الوحيد. رفعت يديه إلى وجهها وشمّتْهما، ما تزالان تعبقان برائحة المرض.

قال: «يداك تخشوشنان»

«الأعشاب والأشواك والرّكش»

«انتبهي. لقد حذّرتكِ من الأخطار»

«أعرف»

ثم تبدأ القراءة.

علّمها والدها عن الأيادي، وعن حوافِر الكلب. حين يغدو وحيدًا في المنزل مع كلبه، فإنّه ينحني ويتشمّم الجِلدَ حول قاعدة حافِره. يقول، كأنّه استنشق توًّا حافة كأس ويسكي: هذه هي الرائحة الأعظم في الكون! باقة أزهار! أساطير الترحال! فيما

هي تتظاهر بالقرف. لكن رائحة حافِر الكلب حقًّا أعجوبة، لا توحي بالقذارة أبدًا. قال والدها: إنها كاتدرائية! حديقة هذا وحديقة ذاك، مَزْج أعشاب ونُزهة عبر نباتات بخور مريم – إنها رائحة مكثّفة من روائح الدّروب كلّها التي سلكها الحيوان خلال يومه.

حركة سريعة في السقف كحركة فأر. ترفع بصرها عن الكتاب مرّة أخرى.

أزاحوا قناع الأعشاب الطبيّة عن وجهه. إنه يوم الكسوف الذي انتظروه. أين كان؟ أيّ حضارة هذه التي تعرف كيف تتنبّأ بالطقس والضوء؟ بَني الأحمر، أو بَني الأبيض، إذ لابد أنها من قبائل الصحراء الشمالية الغربية. أولئك الذين استطاعوا أن يصطادوا رجلا من السماء، الذين غطوا وجهه بقناع محبوك من قصب الواحة. يحمل الآن مظْهرًا عشبيًّا. كانت حديقته المفضلة في العالم هي حديقة كيو النباتية[7]، حيث الألوان جميلة ومتنوعة كطبقات رماد بركانيّ في تلّة. نظر إلى الطبيعة أثناء الكسوف، علّموه أن يرفع ذراعيه ويجذب من الكون قوّةً لجسمه، كما تجذب الصحراء الطائرات. حُمل في محفّة من اللبّاد والأغصان. رأى في السماء عُرُوقًا من أسراب الفلامينغو الورديّ تعبر بصره في نصف ظُلمة الشمس المحجوبة.

دائما ما كان هناك، على جسده، إمّا مرهَم، أو ظُلمة. سمع ليلةً ما رياحًا تهبّ عالية في الجوّ، وبعد لحظة توقّفت. فنامَ في تَوق إليه، ذاك الضجيج الأشبه بصوت يخرج بطيئًا متمدّدًا من حُنجرة طائر، ربما فلامينغو، أو ثعلب صحراويّ وضعه أحد الرجال في جيب بُرْنُسه الموارب.

في اليوم التالي، سمع أصواتًا زجاجيّة خاطفة، فيما هو مُستلقٍ ومغطّى بالقماش. ضجيج من الظلمة. أزيل اللباد عند حلول الشفق، وشاهد رأسَ رجل فوق طاولة يتحرّك نحوه، ثم أدرك أن الرّجل يحمل حوْل عنقه وكتفيه خشبة نَيْرٍ عظيمة، تتدلى منها مئات القوارير الصغيرة ذات الأطوال المختلفة المعقودة إلى خيوط وأسلاك. تحرّك كأنه جزء من ستارة زجاجية، كأن جسده مُحاط بفَلَك من قوارير.

اشتبهت عليه قامَة الرّجل بقامات رؤساء الملائكة[8] التي حاول نسّخها في المدرسة، دون أن يفهم أبدا كيف يمكن أن يتّسع جسدٌ لعضلات أجنحةٍ كتلك التي يحملونها. سار الرجل نحوه طويلًا وبطيئًا وفي هدوء حتى أنه بالكاد سمع أصوات القوارير. لقد كانَ مَوْجة من زُجاج، كان كبيرَ ملائكة، وسخّنت الشمس مراهم القوارير حتى أنّه حين يُدَلّك الجلد بها تبدو كأنّها سُخّنَت قصْدًا لمعالجة جُرحٍ معيّن. يتبعه ضوء متنقل فيما هو يتحرّك، ألوان زرقاء وأخرى ترتعش في الضباب وعلى الرّمال. صوت القوارير الخافت، وألوانها المتنوعة، والمشية الملكيّة، ووجهه الأشبه ببُندقية سوداء مائلة. بدت القوارير خشنة ومسفوعة بالرمل عن قُرب، كأنها فقدَت صلتها بالحضارة. لكلّ قارورة سُدادة صغيرة ينزعها الرّجل بأسنانه، ويبقيها بين شفتيه، فيما يمزج محتويات قارورة بأخرى، فتُصبح السُّدادة اثنتين بين أسنانه. وقفَ بجناحَيه فوق ذلك الجسد المحترق الممدّد على ظهره، نصب عصوَين عميقًا في الرّمل، ثم حرّر نفسه من خشبة النّير التي قد يبلغ طولها ستة أقدام، وأقامها فوق الدعامتين. خرج من أسفل حانوته. ركع على ركبتيه واقترب من الطيّار المحترق، ووضع كفّيه الباردتين على عنقه، وأبقاهما هناك.

معروفٌ للجميع على طول طريق الجِمال من شمال السودان إلى الجيزة، طريق الأربعين يومًا. يقابل القوافل، ويتاجر بالتوابل والسوائل، ويتنقّل بين الواحات ومرابض المياه. يشقّ العواصف الرملية مرتديًا معطف القوارير ذاك، سادًّا أذنيه بسدادتين صغيرتين حتى يبدو هو نفسه قارورةً كبيرة. هذا الطبيب التاجر، ملك الزيوت والعطور والأدوية، هذا المعمدان. كان يدخل الخيام وينصب ستارة من القوارير أمام أيّ مريض.

جثا قرب الرّجل المحروق، ضمّ كعبَي قدميه إلى بعضهما صانعًا من أخمَصَيْه وعاءً جلديًا، وتمدّد إلى الخلف ليفتح، دون أن ينظر، قوارير بعينها. فاحت العطور مع فتح كل قارورة. روائح البحار. روائح الصّدأ. نبات النّيل. حِبر. طين الأنهار وخشب الجخْليق وغاز الفورمالدهايد وشمع برافين والأثير. ومدّ الهواء الفوضوي. رغاء الجِمَال تصاعد حين شمّت الروائح. راح يدهن الأضلاع

بمعجونٍ أخضر مسودّ. كان عظمَ طاووس مطحونًا، اشتراه من مدينة تقع غربًا أو شرقًا. إنه أقوى شافٍ للجلد.

بين المطبخ والكنيسة الصغيرة المدمرة ثمّة باب يؤدّي إلى مكتبة بيضَويّة الشكل. بدا المكان آمنا في الداخل، لكن هناك ثغرة كبيرة بحجم لوحة، في الجدار الأبعد، سبّبَها هجوم قذائف هاوَن على الڤيلا منذ شهرين. تكيّفت بقيّة الغرفة مع تلك الإصابة وتقبّلت عادات الطّقس، ونجوم المساء، وأصوات الطيور. هناك أريكة، وبيانو مغطى بملاءة رماديّة، ورأس دبّ محشوّ، وجدران مرتفعة من الكتب. أحْنى المطرُ، الذي ضاعف وزن الكتب، الرفوفَ الأقرب إلى الجدار المصاب. يدخل البرقُ الغرفةَ أيضًا مرارًا عابرًا البيانو المغطّى والسجّادة.

في النهاية البعيدة تنتصب نوافذ فرنسيّة بحجم الجدار، سُدّت بألواح. لو كانت مفتوحة، لأمكنها السّير من المكتبة إلى الدكّة ثمّ النزول ستًّا وثلاثين درجة حجريّة عبر الكنيسة في اتجاه ما كان مَرْجًا قديمًا جرّحته القنابل الفوسفورية والانفجارات. لغّمَ الجيش الألماني كثيرا من المنازل التي انسحب منها، ولهذا خُتِمتْ مُعظم الغرَف بشمع أحمر، وسُدّت النوافذ بألواح.

كانت واعية لوجود تلك الأخطار حين دخلت الغرفة وسارت في ظُلمتها النهاريّة. توقّفت فجأة، شاعرة بثقل وزنها على الأرضية الخشبية، وتفكّر أنّ وزنها كافٍ للكبس على أي لُغم هناك. قدماها على الغبار. الضوء الوحيد هو الذي ينسكب من الفجوة المطلّة على السماء، ما خلّفَته قذيفة الهاون.

ومع صدور طقطقة انفصال، كأنّها تخلع شيئًا من شيء يضمّه، جذبَت كتاب آخر سلالة الموهيكيّين[9]. رغم نصف الضوء ذاك، أبهجتها السماء الزبرجديّة والبحيرة

في لوحة الغلاف، والهنديّ في صدْر الصّورة. ثمّ، كأنّ شخصا موجودا في الغرفة يجب ألّا يُزْعَج، تقهْقرَت على آثار قدميها السّابقة احتياطًا، فيما تلعب أيضًا لعبة خاصّة، بحيث سيبدو من الخطوات أنها دخلت الغرفة ثمّ اختفى جسدها المادّي. أغلقت الباب وأعادت ختم التحذير.

جلست في تجويف النافذة في غرفة المريض الإنجليزي، إلى يمينها الجدران المشجّرة بالرسومات، وإلى يسارها الوادي. فتحت الكتاب. الصفحات مُلتصقة بعضها إلى بعض في شكل مَوْجة متصلّبة. شعرَتْ أنها مثل كروزو[10]، عندما عثر على كتاب كان غارقًا في البحر، لكنّه استلقى على الشاطئ وجفّف نفسه. حكاية من العام *1757*، الرّسومات للفنان ن.س.ويث. وكما في الكتب العظيمة كلّها، هناك صفحات تحمل رسومات لأهمّ المشاهد في الكتاب مع سطر مقتبس من كلّ منها.

دخلت إلى القصّة عارفة أنّها ستخرج منها منغمسة في حيوات الآخرين، في حبكات تعود إلى عشرين عاما خلت، وجسدها مليء بالعبارات واللحظات كأنه مستيقظ من النوم بثقلٍ سبّبته أحلامٌ لا يمكن تذكّرها.

حوصرت تلّةُ بلدتهم الإيطالية، حارسة الطريق الشمالي الغربي، أكثر من شهر، وتركّز القصف المدفعي على الفيلّتين والأبرشية المُحاطة ببساتين تفّاح وخَوْخ. هناك فيلا مديتشي التي عاش فيها الجنرالات، وبعدها صعودًا تقع فيلا سان جيرولامو، التي كانت دَيْر راهبات، والتي جعلَتْها أسوارها ذات الفُرجات أشبه بقلعة، فكانت آخر موقع قوّة للجيش الألماني. آوَت مئة جندي. وحين بدأت البلدة التليّة تتفكّك مثل سفينة حربية في البحر تحت القذائف، انتقل الجنود من الخيام في البستان إلى غرفة نوم الدير التي أضحكت حينئذ في فوضى عارمة. فقد هوَت أجزاء من طابق الفيلا العلوي تحت الانفجارات. وحين احتلّ الحلفاء أخيرًا البناء، وحوّلوه الى مشفى، خُتم الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الثالث رغم أن جزءًا من المدخنة والسقف لم يتساقط.

أصرّت هي والرجل الإنجليزي على البقاء حين انتقلت الممرّضات الأخريات والمرضى

إلى مكان أكثر أمانًا في الجنوب. كانا في ذلك الوقت يشعران ببرد شديد، ولا كهرباء. بعض الغرف التي تواجه الوادي لا يصدّها عنه جدار، فتجد حين تفتحُ بابًا سريرًا مبلّلًا يجثم في رُكن وتغطيه الوُريقات. تنفتح الأبواب على امتدادات طبيعيّة. أصبحت الغُرَف أقفاصًا مَطِيرة.

فَقَدَ الدّرج عتباته السّفلى بسبب النار التي أُضرمتْ قبل مغادرة الجنود. ذهبت إلى المكتبة وجلبَت عشرين كتابا ثبّتتْها مكان العتبات بمسامير، بعضها فوق بعض، وهكذا أعادت بناء العتبتين السّفليّتَين. استخدمت معظم المقاعد لإشعال النار، تاركةً الكرسيّ المذرّع في المكتبة لأن عواصف المساء التي تنفذ خلال ثقب قذيفة الهاون تتركه دومًا بَلِيلًا. نجا من الاحتراق كل ما كان مبلّلًا في شهر نيسان ذاك من عام 1945.

بقيت أسِرّة قليلة. فضّلت أن تعيش مثل الرحّالة البدو في المنزل، تستلقي على منصّتها الخشبيّة المفروشة، أو أرجوحتها الشبكيّة، تنام حينًا في غرفة المريض الإنجليزي، وحينًا في الصالة، حسب درجة الحرارة أو هبوب الرّياح أو شدّة الضّوء. تطوي في الصباح فراشها فيصير أشبه بعَجَلَة، وتربطه بخيط على ذلك الحال. أصبح الطقس أدفأ، وصار في إمكانها أن تفتح مزيدًا من الغرف كي تُهَوّي الأركان المظلمة، تاركةً أشعّة الشمس تجفّف الرطوبة كلّها. تُشرع الأبواب في بعض الليالي، وتنام في غرفة تفتقد بعض جدرانها. تستلقي على الفَرْشة عند حافّة الغرفة، مواجهةً منظر النجوم المتراكمة والغيوم المتنقلة، تُوقظها دمدمة الرّعد، وومض البرق. إنّها في العشرين من عمرها، ومتهوّرة ولا تهمّها سلامتها أثناء استلقاءها عند الحافّة، ولم تخَف من احتمال أن تكون المكتبة ملغومة، أو من الرّعد الذي يُجْفِلها في الليل. انتابها القلق فقط بعد الأشهر الباردة، حين انحصرت حركتها في أماكن مُظلمة مَحْميّة. دخلت غُرفًا وسَّخها الجنود، وغرفًا أُحرق أثاثها فيها. أخرجت الأوراق والخراء والبول والطاولات المتفحّمة. تعيش مثل متشرّدة، بينما في مكانٍ آخرٍ يستلقي المريض الإنجليزي في فراشه مثل ملك.

بدا المكان من الخارج مدمّرًا. اختفى دَرَجٌ خارجيّ بينما سياجه ما زال يتدلّى جانبًا.

حياتهما تتصف بالبحث عن أي طعام، والأمان الهشّ. يستخدمان شمعة في الليل عند الضرورة فقط، خوفًا من قُطّاع الطرق الذين كانوا يبيدون أي شيء يعثرون عليه. حمتْهُما الحقيقة البسيطة أنّ الفيلا مدمّرة. لكنها شعرت حقًّا بالأمان هنا، أنها نصف شابّة ونصف طفلة. بعد أن خرجت من حالتها النفسيّة إثر الأحداث التي تعرّضت لها أثناء الحرب، وضعت قواعدَ خاصّة لنفسها. لن تُؤمَر ثانية بتنفيذ الواجبات للصالح العام. ستعتني بالمريض الإنجليزي فقط. ستقرأ له، وتغسله، وتقدم له جرعات المورفين – تواصلها الوحيد مع البشر، كان معه.

اشتغلتْ في الحديقة، والبستان. حملت الصليب الذي يبلغ طوله ستة أقدام من الكنيسة المقصوفة، لتستخدمه فزّاعةٌ فوق مرقد البذار. علّقت عليه علب سردين فارغة تُصلصل وتصخب كلما هبّتْ الرّياح. تخطو داخل الڤيلا عبر الحطام، إلى تجويف مضاءٍ بالشمع، حيث توجد حقيبتها المرتّبة بعناية، التي تحتوي بالإضافة الى بعض الرسائل على ملابس مطويّة وصندوق معدنيّ من مواد طبيّة. نظّفت أجزاء صغيرة من الڤيلا فقط، وتستطيع أن تُحرق كلّ هذا إذا أرادت.

تُشعل عودَ ثقاب في الصّالة المُظلمة، وتحرّكه فوق فتيل الشّمعة. يرفعُ الضوءُ نفسَه على كتفيها. إنها مستندة إلى ركبتيها. تضع يديها على فخذيها وتتنشّق رائحة الكبريت. تتخيّل أنها تتنشّقُ الضوء أيضا.

تتراجع بضعة أقدام، وترسم بقطعة طبشور مستطيلا على خشب الأرضية. ثمّ، فيما تُتابع تقهقرها، ترسم مزيدًا من المستطيلات إلى أن تستند إلى كعبيها وتجلس منحنية.

تضع قطعة الطبشور في جيبها. تقف وتشدّ تنورتها المرتخية وتربطها حول خصرها. تُخرج من جيبٍ آخر قطعةً معدنية وتقذفها أمامها، فتسقط تماما بعد المربع الأبعد.

تقفز إلى الأمام. ساقاها تضغطان بقوة، ظلّها يدور في عمق الصالة خلفها. إنها سريعة جدا، حذاؤها الرياضي ينزلق على الأعداد التي رسمتها داخل كل مستطيل.

تهبط على قدم، ثم قدمين، ثم قدم واحدة مرة أخرى، وهكذا إلى أن تصل إلى المربع الأخير.

تنحني وتلتقط قطعة المعدن. تقف في ذلك الموضع دون حراك وما تزال تنورتها مشدودة على فخذيها ويداها تتدليان بارتخاء وهي تتنفس بصعوبة. تبلع كميّة من الهواء، ثم تُطفئ بها الشّمعة.

إنها في الظلمة الآن، لا شيء إلا رائحة الدخان.

تقفز وتستدير، فتهبط مواجهة الطريق الآخر، ثم تقفز إلى الأمام بقوة أكبر عبر الصالة السوداء، وتهبط على المربعات التي تعرف أنها هناك. حذاؤها الرياضي يصخب ويقرع الأرضية المُعتمة، فيتردّد الصّدى في الأركان الأبعد في الڤيلا الإيطالية المهجورة، وخارجًا نحو القمر، والوادي الأشبه ندبة تُحيط وجه المنزل على شكل نصف دائرة.

أحيانًا تتناهى إلى سمع الرجل المحروق، ليلًا، رجفة خفيفة في المنزل. يُدير جهازًا في أذنه يقوّي سمعَه، فيلتقط ضجيجًا صاخبًا لا يستطيع تفسيره أو تحديد مصدره.

تلتقط الدفتر من المنضدة الصغيرة قُرب فراشه، الذي أحضره معه عبر النار. نسخة من كتاب التواريخ لهيرودوت[11]، ألصق فيه صفحات انتزعها من كتب أخرى، وكتب فيه ملاحظاته، بحيث اجتمعت كلّها داخل نص هيرودوت.

تبدأ بقراءة خَطّه الصّغير شديد الميَلان.

ثمّة نوعٌ من العواصف جنوبَ المغرب العربيّ تُدعى العجاج (*aajej*)، يُدافع الفلاحون عن أنفسهم منها بالسكاكين. هناك أيضًا رياح آفريكو (*africo*) التي تصل أحيانًا الى روما. الألم (*alm*) رياحٌ خريفيّة تهبّ من يوغسلافيا. من هناك أيضًا تعصف الأريفي (*arifi*)، التي تُسمّى أيضًا آرف (*aref*) أو ريفي (*rifi*) فتضرب بألسنةٍ عديدة. هذه رياحٌ مستمرّة، تعيش دومًا في الزمن الحاضر.

هناك رياح أخرى، أقل استمرارية، تغيّر وجهتها، وتستطيع أن تقلب الفرَس وراكبها، وتُعيد تجميع نفسها بعكس اتجاه عقرب الساعة. تهبّ رياح بست روز (*bist roz*) في أفغانستان مئةً وسبعين يومًا دافنةً قُرىً بأكملها. رياح غيبلي (*ghibli*) الحارّة الجافّة تهب من تونس، تدور وتتدحرج وتضع ما حولها في وضع عصيب. رياح الهبوب (*haboob*)، عاصفة غبارية سودانية ترتدي جدران صفراء متوهجة، ارتفاعها ألف متر، ويعقبها مطرٌ. ورياح هارماتان (*harmattan*) تهبّ مُغرقةً نفسها في النهاية في المحيط الأطلسي. ثمّ رياح إمبات (*imbat*)، نسيم بحري في شمال أفريقيا. هناك رياح تهب نحو السماء فقط، وثمّة عواصف غبارية ليليّة تجيء مع البرد. الخماسين (*khamsin*)، رياح غبارية في مصر تستمر بين شهْرَي مارِس ومايو، سُمّيَتْ على الاسم العربي للرقم «خمسين»، فهي تستمرّ خمسين يوما، وتُدعى الطاعون السادس في مصر. وهناك داتو (*datoo*)، التي تهبّ من جبل طارق حاملةً معها الشّذى.

هناك أيضًا رياح الـ——، رياح سريّة في الصّحراء، محا اسمها ملكٌ ما بعد موت ابنه فيها. ورياح النّفحات (*nafhat*)، التي تهبّ من شبه الجزيرة العربية. ومزارُ أفْلَس (*mezzari ifoullousen*)، وهي ريح جنوبية غربيّة عنيفة باردة يسمّيها البربر: الرّياح نتّافة الطيور. وأيضًا البشبار (*beshabar*)، وهي ريح شمالية غربية سوداء وجافّه تهب من القوقاز، الرّياح السّوداء. أيضًا السّامييل (*samiel*) التركيّة، الرّياح السّامّة، تُستغلّ في الحروب أحيانًا. بالإضافة إلى رياح سامّة أخرى، هي السّموم (*simoom*)، التي تهب من شمال أفريقيا، والسولانو (*solano*) التي يقتلع غبارها نباتات نادرة، ويسبّب الدوار.

وأُخَر، رياح خاصّة.

تتنقّل على الأرض كطوفان، ماحيةً الأصباغ، مسقطة أعمدة الهاتف، ناقلة الأحجار ورؤوس التماثيل. تهبّ الهارماتان عبر الصحراء الكبرى[12] مليئة بالغبار الأحمر، غبار كالنار، كالطحين، يدخل ويتجمع في مغاليق البنادق. سَمّى البحارة تلك الريح الحمراء بحرَ الظّلمات. يخرج رملٌ أحمر من الصحراء ويكسو المسافة

التي تفصل قرنواليّة عن ديفون[13]، مُنتجةً سَيْلًا طينيًّا كان يُعتقَد خطأً أنه من دماء. (أُعلن كثيرًا عن تساقط أمطار من دماء في البرتغال وأسبانيا في 1901).
ثمّة دومًا ملايين الأطنان من الغبار في الجوّ، كما أن هناك ملايين المكعبات الهوائيّة محصورة تحت الأرض، وتحتها أيضًا لُحُوم حيّة (ديدان، وخنافس، وكائنات تحت أرضية) أكثر من تلك التي ترعى فوقها وتعيش عليها. تحدّث هيرودوتس عن نهاية جيوش مختلفةٍ دفنتها رياح السموم ولم تُلْمَح بعدها أبدًا. أغضَبتْ تلك الرياح الشريرة مرّةً إحدى الأمم، فأعلنت الحرب عليها وتقدّمت بعتاد معركة كامل، لكي تُدفَن بشكل سريع وكامل فقط.
للعواصف الغبارية ثلاثة أشكال: الدوامة، والعمود، والغطاء. في الأولى يضيع الأفق. وفي الثانية يحيط بكَ جنّ راقص. وفي الثالثة، الغطاء، ترى أنّك مسقوف بصفيحة نحاسيّة. كأنّ الطبيعة تحترق.

ترفع عينيها عن الكتاب وتشاهد عينيه تنظران إليها. يشرع في الحديث عَبْرَ الظّلمة.
أبقاني البدو على قيد الحياة لسبب ما. كنتُ مُفيدًا. افترَض أحدهم أنني أمتلك مهارةً ما حين تحطّمتْ طائرتي في الصحراء. أنا رجلٌ يستطيع التعرّف على بلدة غير مُسَمّاة من شكل هيكلها العظمي على خريطة. امتلكتُ دومًا معلومات كالبحر في داخلي. أنا شخصٌ إذا تُرِكَ وحيدًا في منزل أحدهم يتّجه إلى المكتبة، يُخرج مُجلّدًا ويستنشقه. هكذا يدخُل إلينا التاريخ. كنت أعرف خرائط قاع البحر، تلك التي ترصد نقاط الضعف في درع الأرض. والخرائط المرسومة على قِطَع جِلديّة لدروب الصّليبيّين العديدة.
وهكذا كنت أعرف مكانهم قبل أن تتحطم طائرتي بينهم. أعرف متى عبَرَه الإسكندر في عصرٍ سابق، من أجل هذا السبب أو تلك العقيدة. أعرف عادات البدو الذين تُسكرهم قِطَع الحرير ومياه الآبار. صبغتْ إحدى القبائل قاعَ وادٍ بأكمله لتزيد حِمْلَها الحراريّ، فيزيد بهذه الطريقة احتمال سقوط المطر، وبنَت أبنية عالية

لتبْقُر بطن سحابة. هناك قبائل يرفع أفرادها راحات أكفّهم إلى الأعلى حين تهب الرّياح، مؤمنين أن ذلك لو حدثَ في اللحظة المواتية فإنّه قد يحْرِف العاصفة نحو قبيلة مُجاورة عدوّة. حالات الغرق تحدث باستمرار، تتحوّل إثرها بعض القبائل فجأة إلى آثار مدفونة تحت الرمال.

من السهل فقدان حسّ الاتجاه في الصحراء. حين سقطتُ من الجو وتحطّمت طائرتي في الصحراء، في تلك الأحواض الصفراء، كان كل ما فكّرت فيه هو أن أصنع معدّية.

... يجب أن أصنع معدّية.

ورغم أنني كنت في الرمال الجافة، فإنني عرفت أنني بين قَوْم مائيّين.

شاهدت في طاسيلي[14] نقوشا على الصخر تعود إلى الوقت الذي كان فيه سكان الصحراء الكُبرى يصطادون الأفراس النهرية وهم في قواربهم الخيزرانية. شاهدت في وادي صورة كهوفا جدرانها مغطاة بصوَر سبّاحين. كانت هنا بحيرة. لاستطعتُ رسمَ شكلها على الجدار لهم، لقُدتُهم إلى حافتها. كانت هنا منذ ستة آلاف عام[15]. سَلِي بحّارًا عن أقدم شِراع معروف، وسيصف لك شراعًا شِبه منحرف يتدلى على صارية قارب خيزراني، تُمكن مشاهدته في الرسوم الصخرية في النّوبة[16]. إنه يعود إلى فترة تسبق السلالات البشرية المعروفة. ما زال في الإمكان العثور على الحرابين[17] في الصحراء. كانوا قوْمًا مائيّين. حتى اليوم تبدو القوافل مثل نهر. وما زال الماء حتى اليوم هو الغريب هنا. الماء هو المنفى. يُحْمَل في الأوعية والقوارير. إنه الشّبح الذي بين يديك وفي فمك.

حين تُهْتُ بينهم غير عارف أين أنا، كان كل ما أحتاج إليه هو اسم أيّ مرتفَع صغير، أو عادَة محليّة، أو خليّة من هذا الحيوان التاريخي، وستعود خريطة العالم إلى مكانها في ذهني.

ما الذي كان معظمنا يعرفه عن أجزاء كهذه في أفريقيا؟ كانت جيوش النّيل الغربيّة تتقدّم وتتقهقر في أفريقيا، ساحة معركة على مسافة ثمانمئة ميل في عُمق الصحراء. دبّابات من نوع ويبت، قاذفات متوسطة المدى من نوع بلنهايم،

ومقاتلات غلادييتور جويّة ذات سطحين. ثمانية آلاف رجل. لكن من هو العدوّ؟ مَن هم حلفاء هذا المكان وقتئذ، الأراضي الخصبة لبرقة[18]، المستنقعات الملحيّة للعقيلة[19]؟ كانت أوروبا كلها تخوض حروبها في شمال أفريقيا، في سيدي رزق[20] وفي باغو.

سافرَ على مُدَوْلبة خلف البدو خمسة أيام في الظّلمة والغطاء على جسمه. استلقى داخل تلك الأقمشة المبلّلة بالزيت. فجأة انخفضت درجة الحرارة. وصلوا إلى الوادي الذي يقع داخل الجدران الحمراء المرتفعة لينضموا إلى بقية القبيلة الصحراوية المائية التي كانت تنتشر وتنزلق فوق الرمل والحجارة بينما تتحرّك العباءات الزرقاء مثل رذاذ الحليب أو مثل جناح. أزاحوا عنه القماش الناعم، عن امتصاص جسمه. كان داخل الرحم الأضخم للوادي، فيما الصقور المرتفعة فوقهم تنحدر ألف عامٍ نحو ذلك الشقّ الحجري حيث يخيّمون.
نقلوه في الصباح أبعد نقطة من السّيق[21]. راحوا يتحدّثون حوله في صخب، فاتّضحت له اللهجة فجأة. إنه هنا بسبب البنادق المدفونة.
حُمِلَ نحو شيء ما، وكان وجهه المعصوب يحدّق إلى الأمام مباشرة، وحُلَّت يده لكي تمتد مسافة ذراع أو أقل. أيّام من السفر، لكي يمدّ يده تلك الذّراع الواحدة. أحنوه الى الأمام ليلمس شيئا لسبب ما، فيما يده لا تزال ممسوكة. راحة كفّه نحو الأسفل ومفتوحة. يلمس ماسورة ستن (Sten) ثُم تُحرَّر يده. تتوقّف الأصوات. إنه هنا كي يُترجم البنادق.
«بندقية آلية. 12 مليمتر. نوعها بريدا (Breda). من إيطاليا».
رفع المغلاق وأدخل إصبعه فلم يجد أيّ رصاصة. أرجعه ثم ضغط على الزناد. بوب «إنها بندقية مشهورة». همسَ. نُقل إلى الأمام ثانية.
«بندقية فرنسية 7.5 مليمتر. شاتلغو (Châtellerault). بندقية آلية خفيفة موديل 1924».
«بندقية ألمانية إم.جي 15، للخدمة الجوية».

قرّبوه من البنادق كلّها. بدا أن الأسلحة تعود إلى أزمان مختلفة وبلدان عدّة. بدت متحفا في الصحراء. ينفض غبار عقب البندقية والمخزن، ويضع إصبعه في المنظار. يتفوّه باسم البندقية ثم ينتقل إلى بندقية أخرى. سُلّمَت إليه ثماني بنادق بشكل رسمي. فاهَ أسماءها بصوت مرتفع، متحدّثًا الفرنسيّة، ثم لغة القبيلة الخاصّة. لكن ما الذي كان يهمّهم في ذلك؟ ربما لم يكونوا في حاجة إلى الاسم، بل كي يتأكّدوا أنه يعرف ما هي البندقية.

قُبض على رسغه ثانية فغاصَت يده في صندوق الذخيرة. يوجد بعض الرصاص في صندوق آخر يقع على اليمين من عيار 7 مليمتر بالإضافة إلى أنواع أخرى.

حين كان طفلا تربّى عند عمّةٍ له، ولطالما بعثرَت بطاقات لعبٍ مقلوبة على عشب مرْجها، كي تعلّمه لعبة التذكّر[22]. كان يُسمح لكل لاعب أن يفتح ورقتين في آن واحد ثمّ يعيدهما مقلوبتين، وعليه في النهاية أن يجد شبيهَتَيهما معتمدًا على الذاكرة. حدث ذلك في مكان آخر، حيث جداول أسماك السلمون، وصياح الطّيور الذي يستطيع من خلاله معرفة الطّير نفسه. عالمٌ مُسَمّى كُلّه. الآن، بوجهه المعصوب بقناع من ألياف العشب، يلتقط رصاصة ويتحرّك مع حامليه. يقودهم نحو بندقية، يضع الرصاصة، يلقمها ويرفعها في الجو، ويطلق النار. تصرّ الضجّة بجنون أسفل جدران الوادي. ذلك أن الصدى هو روح الصّوت، يثيرُ نفسه في الأمكنة المجوّفة. رجلٌ اعتقدَ أنه كئيب ومجنون كتبَ هذه الجملة في مشفى إنجليزي، وهو الموجود في الصحراء الآن. كان عاقلا، واضح التفكير، يلتقط أوراق اللعب، يجمعها مع بعضها في سهولة، يبتسم لعمّته. يُطلق كلّ مَزيج ناجح من رصاصة وبندقيّة في الجوّ، وكان الرجال اللامرئيّين حوله يستجيبون لكلّ إطلاق نارٍ تدريجيّا بابتهاج. يستدير ليواجه جهة واحدة، ثم يعود إلى بندقية البريدا هذه المرّة على محفّته البشرية الغريبة، يتبعه رجل يحمل سكّينا يحفر بها علامة على كلّ صندوق ذخيرة تربطه بمخزن بندقيّة معيّنة. أفرحته الحركة والابتهاج بعد العزلة. هذه مكافأة منَحَها بمهارته للرّجال الذين أنقذوه من أجل هدفٍ كهذا.

سافر معهم إلى قُرى لا نساء فيها. انتقلت معرفته مثل عُمْلة نادرة من قبيلة إلى أخرى. قبائل تألّفت من ثمانية آلاف فرد. اطّلع على العادات التي تخصّ كلّ واحدة منها، وموسيقاها التي تميّزها. بعينين معصوبتين تقريبًا سمع أغاني الاستسقاء لقبيلة، مُزيّنة بتهليلاتها ورقصاتها ونایاتها التي تُستخدم لحمل الرسائل في أوقات الطوارئ. الناي المزدوج (الماكرونا)، وهو ناي يعزف باستمرار لحنا رتيبا. ثم ذهب إلى إقليم القيثارات ذات الأوتار الخمسة. قرية أخرى أو واحة سمع فيها عزفًا موسيقيّا وفواصل مسرحية. وكان هناك تصفيق ورقص تجاوبي.

يُتاح له أن يرى، بعد الغسق فقط، حيث يستطيع رؤية آسريه ومنقذيه. يعرف الآن أين هو. يرسم للبعض خرائط تمتد إلى ما وراء حدودهم، ويعلّم قبائل أخرى آلية عمل البنادق. يجلس الموسيقيون في الجهة المقابلة حول النار. ألحان قيثارة (السمسميّة) تعلو بعيدا مع هبوب النسيم، أو تنتقل الألحان إليه من فوق ألسنة اللهب. يرقُص غُلام كان مرغوبًا أكثر من أي شيء شاهده في هذا الضوء. كتفاه النحيلتان بلون أبيض كأوراق البردي، يعكس ضوءُ النار التعرّق على معدته. ويبدو العُري من خلال فتحات في الكتان الأزرق الذي يرتديه من أجل الإغواء من العنق إلى الكعب، كاشفًا نفسه كخيطٍ من البرق الأسمر.

يحيطهم ليل الصحراء الذي يقتحمه نظامٌ حُرٌّ من عواصف وقوافل. هناك دائما أسرار ومخاطر حوله، كما حرّك يده حين كان فاقدا البصر وجرحَ نفسه بموسى ذي حدّين على الرمال. أحيانا لا يعرف إن كانت تلك مجرّد أحلام. الجرح نظيف، لا يؤلم وعليه أن يمسح الدم على جمجمته (ما زال وجهه غير قابل للّمس) كي يشير لآسريه إلى وجود هذا الجرح. هل تخيّل تلك القرية التي بلا نساء، التي جُلِب إليها في صمت، أو ذاك الشّهر الذي لم يشاهد فيه قمرًا ألبتّة؟ هل حلُمَ بهذا وهو مغطّى بالزيت واللباد والظلمة؟

عبروا آبارًا مياهها ملعونة، شقّوا أماكنَ مفتوحة ذات بلدات مخبأة، وانتظرهم حين حفروا في الرمال كي يصلون إلى غرَف مدفونة أو أعشاش ماء. والجمَال النّقيّ لغُلامٍ بريء، مثل صوت صبيّ في جوقة، يتذكّره كأنقى الأصوات، مياه النهر الأكثر

مكتبة

عذوبة، العمق الأكثر شفافية للبحر. هنا في الصحراء التي كانت بحرا قديما، حيث لا شيء ثابت ولا مستمرّ، ينجرف كل شيء – مثل تموّج الكتّان على جسد الصبيّ، كأنّه يعانق مُحيطًا أو يحّرر نفسه منه، أو من مشيمته الزرقاء بعد الولادة. غلامٌ يُثير نفسه، عُضْوُه مكشوف إزاء لون النار.
ثم تُدفن النار تحت الرمال، يذوي دخانها حولهم. تخفت الآلات الموسيقية كالنّبض أو المطر. يلوح الغلام بيديه، عبر النار الضائعة، ليُصْمِت آلات النفخ. لا يوجد غلام، ولا خُطىً له تُسمَع أو تُرى لمغادرته. أسمال مستعارة فقط. يزحف أحد الرجال إلى الأمام ويجمع المنيَّ الذي تساقط على الرمال. يُحضره إلى مترجم البنادق الأبيض، يُمرّره إلى كفّيه. في الصحراء لا تحتفل بشيء سوى الماء.

تقف فوق المغسلة، تمسكها، ناظرة إلى الجدار الجصّي.
أزالت جميع المرايا وجمعتها في غرفة فارغة. تمسك المغسلة وتحرّك رأسها من جانب إلى آخر مُحرّرة حركة الظلّ. تُبلّل يديها وترجّل شعرها بالماء إلى أن يتبلّل كلّه. يُبردها هذا، وتحبّ حين تخرج أن يهبّ عليها النسيم ويُنسيها مشاكلها.

١١

في الأنقاض القريبة

أمضى الرّجل ذو اليدين المضمّدتين أكثر من أربعة أشهر في المشفى العسكريّ في روما، حتى سمع مصادفة عن المريض المحروق والممرضة. سمِع اسمها، استدارَ عند المدخل وسار عائدا إلى من تبقّى من الأطباء الذين تجاوزهم توًّا سائلًا عن مكانها. أمضى هناك وقتًا طويلًا يتعافى، وعرفوه مُراوغًا. لكنّه يتحدّث إليهم الآن ويسألهم عن اسمها، فأجفلهم. لم يتحدّث قط طوال ذلك الوقت. تواصَل بالإشارات والإيماءات، وبين فينة وأخرى يبتسم. لم يكشف شيئا، حتى اسمه. كتبَ رقمه التسلسلي الذي أظهر أنه مع الحلفاء فقط.

دُرست حالته مرّتين وأكدتها رسائل من لندن. يوجد عنقود من النّدَب المعروفة عليه. وهكذا عاد الأطباء إليه وانحنوا فوق ضمّاده. إنه في النهاية شخص مشهور اختار الصّمت. بطل حرب.

بهذه الطريقة شعر أنه أكثر أمانا، دون أن يكشف أي شيء. سواءً جاؤوا إليه باللطف أو بالحيلة، أو حتى بالسكاكين. لم يتفوّه بكلمة طوال أربعة أشهر. كان حيوانا ضخما في حضرتهم، في الأنقاض القريبة، حيث أُحضِر وقُدَمت له جرعات منتظمة من المورفين لتخفيف ألم يديه. يجلس على كرسيّ دون ذراعين في الظّلام ويراقب مدّ الحركة بين المرضى والممرضات أثناء الدخول والخروج من الأجنحة وغرف التخزين.

أثناء اجتيازه مجموعة الأطباء في الصّالة، سمعَ اسم المرأة فأبطأ خطواته واستدار عائدًا إليهم، وسأل بشكل محدّد في أيّ مشفى تعمل. أخبروه أنه دَير

قديم للرّاهبات استولى عليه الألمان، ثم حولوه إلى مشفى بعد أن حاصره الحلفاء. يقع على التلال في شمال مدينة فلورنسا. دُمّر معظمه بسبب القصف وهو غير آمن، وكان مشفى ميدانيا مؤقتا. لكن الممرضة والمريض رفضا المغادرة.

لماذا لم تجبراهما على الخروج؟

ادّعت أنه مريض جدا ولا يستطيع أن ينتقل. كان في وسعنا أن نحضره آمنًا طبعًا، لكن لا وقت للجدل هذه الأيام. وبدَت الممرضة في حالة سيئة أيضا.

هل هي متأذية؟

لا. صدمة جزئية من قذيفة على الأرجح. كان يجب أن تُرسَل إلى وطنها. المشكلة أن الحرب انتهت هنا. لا تستطيع أن تُجبرَ أحدًا على أيّ شيء بعد الآن. المَرْضى يخرجون من المستشفيات. الجنود يهربون قبل إرسالهم إلى أوطانهم.

سأل: أيّ ڤيلا؟

يقولون إنها واحدة في حديقتها شبح. سان جيرولامو. حسنًا، لها شبحها الخاص، المريض المحروق. له وجه لكن لا يمكن التعرّف عليه. أعصابه كلّها تلاشت. في وسعك أن تمرر عود ثقاب فوق وجهه ولن تجد تعبيرا. الوجه نائم.

سأل: من هو؟

لا نعرف اسمه.

لن يتحدث.

ضحكت مجموعة الأطباء. كلّا، إنه يتحدث، يتحدث طوال الوقت، لا يعرف من هو فقط.

من أين جاء؟

أحضره البدو إلى واحة سيوة[23]، وأمضى فترة قصيرة في بيزا، ثم... ربما يرتدي أحد العرب رُقعةَ اسمهِ. سيبيعها على الأرجح وسنحصل عليها يوما ما. وربما لن يبيعها أبدا. هذه رُقى عظيمة. جميع الطيارين الذين يسقطون في الصحراء لا يعود منهم أحد بشيء يدُل على هُويّته. إنه يسكن الآن في ڤيلا توسكانية، والفتاة لن تتركه. إنها ببساطة ترفض ذلك. آوى الحلفاء مئة مريض هناك. قبل ذلك سيطر عليها

الألمان بجيش صغير وكانت حصنهم الأخير. تحتوي بعض الغرف على رسوم مُشجّرات، ولكلّ غرفة منها فصْلٌ مختلف. يوجد ممرٌّ ضيق خارج الفيلا. إنها تبعد عشرين ميلا عن فلورنسا، في التلال. ستحتاج إلى جواز مرور طبعا. نستطيع على الأرجح أن نجد شخصا يأخذك بالسيارة. لا يزال الوضع هناك مرعبا. قطيعٌ ميت. أحصنة قُتلَتْ بالرصاص، نصف مأكولة. بشرٌ يتدلون معلقين بالمقلوب من الجسور. الشرور الأخيرة للحرب. المنطقة غير آمنة. لم يذهب خبراء الألغام إلى هناك بعد ليمشّطوا المنطقة. انسحب الألمان وهم يدفنون وينصبون الألغام في طريقهم. مكان مُريع لمشفى. رائحة الموتى هي الأسوأ. نحتاج إلى تساقط ثلوج كثيرة لتنظيف تلك البلدة. نحتاج إلى غربان.

شكرًا لكم.

خرج من المشفى إلى ضوء الشمس، إلى الهواء لأوّل مرّة خلال شهور، من الغرف ذات الضوء الأخضر التي تستلقي في ذهنه كالزجاج. توقف هناك متنفسا كل شيء بما فيه استعجالَ الجميع. فكّر أوّلا بأنه يحتاج إلى حذاء مطاطي. أحتاج إلى بوظة.

عانى من صعوبة في النوم في القطار، مهتزّا من جانب إلى آخر. الآخرون يدخّنون في المقصورة. صدغه يضرب إطار النافذة. الجميع يرتدون ثيابا داكنة، وبدت العربة كأنها في النار من منظر السجائر المشتعلة لكثرتها. لاحظ أن المسافرين يرسمون إشارة الصليب كلما مرّ القطار جوار مقبرة. «كانت تبدو في حالة سيئة، هي أيضا». بوظة لِلَوْزَتَين. هذا ما تذكّره. رافق فتاةً ووالدها تستأصل لوزتيها. نظرتْ نظرة واحدة إلى الجناح الممتلئ، وببساطة رفضَت. هذه، الأكثر تكيّفا ولُطفا بين الأولاد، تحوّلت فجأة إلى حجر صلب من الرفض. لا أحد سيزيل أي شيء من حنجرتها رغم أنّ حِكمةَ اليوم تنصح بذلك. ستعيش معهما. كيفما كانتا. ما زال يجهل ما هي اللوزة.

لم يلمسوا رأسَه أبدًا، وفكّر بأن هذا غريب. كانت الأوقات الأسوأ حين بدأ يتخيّل ما الذي سيفعلونه، ما الذي سيقطعونه بالتالي. يفكر دائما في رأسه تلك الأيام.

حركة في السقف مثل عَدْو فَأْر.

وقف بحقيبة سفره في النهاية البعيدة للصالة. وضع الحقيبة على الأرض ولوّح عبر الظلمة والبِرَك المتقطّعة لضوء الشّمعة. لم يصدُر صوت وقْع خطوات حين سار نحوها، لا صوت على الأرض، ممّا أدهشها. كان شيئا مألوفا ومُريحا لها أنه استطاع أن يقترب من عزلتها وعزلة المريض الإنجليزي دون صخب.

حين عبر المصابيح في الصالة الطويلة رمَتْ ظلّه أمامه. رَفعَت الفتيل في المصباح الزيتي، وهكذا وسّعَت قُطْرَ الضوء حولها. جلست هادئة جدا، الكتاب في حضنها، حين جاءَ إليها وانحنى قربها مثل عَمٍّ لها.

«أخبريني ما هي اللوزة؟».

عيناها تحدقان فيه.

«ما أزال أذكر كيف هربْتِ من المشفى يتبعك رجلان كبيران».

هزّت رأسها.

«هل مريضك هناك؟ هل في وسعي الدخول؟»

هزّت رأسها وتابعت هزّه إلى أن تحدّث ثانية.

«إذًا سأراه غدا، فقط أخبريني أين أذهب. لا أحتاج إلى أغطية. هل يوجد مطبخ؟ لقد قُمتُ برحلة غريبة من أجل أن أعثر عليك».

حين ذهب عبر الصالة عادت إلى الطاولة وجلستْ مرتجفة. كانت في حاجةٍ إلى هذه الطاولة، إلى هذا الكتاب الذي وصلتْ إلى منتصفه لتستجمع قوّتها. رجلٌ كانت تعرفه قطعَ الطّريق كله بالقطار وسار أربعة أميال صاعدًا التلّ من القرية وعبر الصالة وإلى هذه الطاولة ليراها فقط. دخلت إلى غرفة المريض الإنجليزي بعد بضع دقائق، ووقفت هناك ناظرة إليه. ضوء القمر عبر الوريقات على الجدران، هذا هو الضوء الوحيد الذي جعل الوهمْ البصريّ يبدو مُقنعًا. كان في وسعها أن تقطف تلك الزهرة وتثبتها على فستانها.

يفتح الرجل الذي يُدعى كارافاجيو نوافذ الغرفة جميعها كي يتمكّن من سماع أصوات الليل، ويخلع ثيابه. يحكّ في لُطف عنقه براحتي كفّيه، ويستلقي قليلا على السرير غير المُعَدّ. تضجّ الأشجار، يتحوّل القمر إلى سمكة فضية تقفز على أوراق الأزهار النجميّة في الخارج. القمر يستلقي عليه مثل جِلدٍ ثانٍ، مثل حزمة قمح مائيّ. بعْد ساعة يصعد إلى سقف الڤيلا. على السطح يستطلع الأقسام المقصوفة على مُنحدر الأسقُف، ويشاهد الحدائق المدمّرة والبساتين التي تُجاور الڤيلا. يحدّد أين هم في إيطاليا.

تحادثا في الصباح عند النافورة بتردّد.

«بما أنك الآن في إيطاليا فيجب أن تعرفي المزيد عن ڤيردي».

«ماذا؟» رفعتْ بصرها عن البطانيات التي تغسلها في الحوض.

يذكّرها: «قلتِ لي مرة أنّك تحبينه».

تحني رأسها مستاءة.

يتمشّى كارافاجيو ناظرا إلى البناء أوّل مرّة، ناظرا من الدكّة إلى الحديقة.

«نعم، كنتِ تحبينه. كنتِ تبهريننا بمعلوماتك الجديدة عن جيوسيبي. يا له من رجل! الأفضل في كل شيء، كما ستقولين. وكان علينا جميعا أن نوافقك الرّأي، الفتاة المغرورة التي تبلغ السادسة عشرة من عمرها».

«أتساءل ما الذي حدث لها؟» تنشر الغطاء المغسول على حافة الحوض.

«كنتِ شخصا ذا إرادة خطيرة».

تسير على الأحجار المستوية التي ينبثق العشب من شقوقها. يراقب قدميها اللتين ترتديان جوْرَبين أسودين، وثوبها الرمادي الرقيق المفرود على السّياج للتجفيف.

«أعتقد أنّي جئتُ إلى هنا لأن شيئا في ذهني شدّني إلى ڤيردي. ثم طبعا غادرتَ أنت وأبي إلى الحرب... انظُر إلى الصقور. إنها تأتي إلى هنا كلّ صباح، كل شيء مدمّر إلى شظايا هنا. إن المياه الوحيدة الجارية في هذه الڤيلا كلها هي في هذا الحوض. انتزع الحلفاء أنابيب المياه حين غادروا. اعتقدوا أن هذا سيجعلني أرحل».

«يجب أن ترحلي. ما زال عليهم تمشيط هذا الإقليم. توجد قنابل غير متفجرة في

جميع أنحاء المكان».
تصعد إليه وتضع أصابعها على فمه.
«أنا سعيدة برؤيتك يا كارافاجيو، ولا أريد أن أرى أيّ شخص آخر. لا تقُل إنك جئت إلى هنا لتحاول أن تقنعني بالمغادرة».
«أريد أن أعثر على حانة صغير فيها بيانو، وأشرب دون أن تنفجر قنبلة لعينة. أُصغي إلى فرانك سيناترا وهو يغنّي. يجب أن نُحضر بعض أشرطة الموسيقا. هذا جيّد لمريضك».
«إنه لا يزال في أفريقيا».
يراقبها، ينتظرها كي تقول أكثر. لكن لا يوجد المزيد كي يقال عن المريض الإنجليزي. يغمغم: «بعض الإنجليز يحبّون أفريقيا. يعكُس جُزءٌ من دماغهم الصّحراء بدقة. وهكذا لا يصبحون غرباء هناك».
يرى رأسها يوافق بهزّة صغيرة. وجه هزيل، شعر قصير، دون قناع، ولُغز شعرها الطويل. إن كان هناك ما يُلاحَظ فهو أنها هادئة في عالمها هذا. النبعُ يُصدر خريرًا في الخلفيّة. الصّقور. الحديقة المدمّرة.
اعتقدَ أن هذه ربما طريقتها للخروج من الحرب: الاعتناء برجل محروق، غسْل بعض البطانيات في حوض، غرفة تُحيطها رسومات أعشاش، كأنّ كل ما تبقّى هو كبسولة من الماضي تمتدّ إلى ما قبل ڤيردي بوقت طويل. آل مديتشي يفكرّون في بناء سياج أو نافذة. يحملون ليلًا شمعةً في حضور مهندس مدْعُوّ، أفضل مهندس في القرن الخامس عشر، ويطلبون شيئا أكثر إقناعا لتأطير تلك الفسحة.
قالت: «إذا كنتَ ستبقى هنا سنحتاج إلى مزيد من الطعام. لقد زرعتُ الخضار، لدينا كيس من الفاصولياء، لكننا نحتاج إلى بعض الدجاج». تنظر إلى كارافاجيو، عارفة المهارات التي يتمتّع بها، دون أن تجْهَر بها تمامًا.
قال: «لقد فقدتُ قوّتي».
تعرض عليه هانا: «إذًا سآتي معك. سنقوم بذلك سوية. تستطيع أن تعلّمني السرقة، أرني ماذا أفعل».

«أنت لا تفهمين. لقد فقدت عصبي».

«لماذا؟»

«لقد قُبِضَ عليَّ وقطعوا يديَّ اللعينتين تقريبا».

أحيانا في الليل، حين ينام المريض الإنجليزي، أو بعد أن تنتهي من قراءة كتابها خارج غرفته، تذهب للبحث عن كارافاجيو. تعثر عليه في الحديقة مستلقيا على حافّة الحوض الحجريّة، ناظرا إلى النجوم. أو تراه على دكّة أكثر انخفاضا. يصعُب عليه خلال هذا الطّقس الصيفي الباكر أن يبقى في الداخل ليلا. يقضي معظم الوقت على السطح قرب المدخنة المحطمة، لكنه ينزلق نازلا في صمت حين يرى قامتها عبر الدكّة تنظر إليه. ستجده قرب تمثالٍ لأحد النّبلاء دون رأس، تُحبّ قطّة محليّة أن تجلس على جذْر عُنقه في وقار وجنون، وتُرَيِّلُ حين يظهر البشر. عليها أن تشعر دائما أنها هي التي عثرتْ عليه، هذا الرجل الذي خبرَ الظُّلمة، الذي حين يسكر يدّعي أن عائلة من البوم ربّتْه.

يقفان على جُرْفٍ ناتئ من التلّ. تظهر فلورنسا وأضواؤها في البُعد. أحيانا يبدو لها مسعورًا، وأحيانًا أخرى هادئًا جدًّا. تلاحظ في النهار بشكل أفضل كيف يمشي، تشاهد الذراعين المتصلّبين فوق اليدين المضمّدتين، كيف يستدير جسمه كله بدلا من العنق فقط حين تشير إلى شيء بعيد على التلّة. لكنها لم تحدثه عن هذه الأمور.

«يظن مريضي أن عظم الطاووس المطحون دواء عظيم».

ينظر نحو السماء الليلية: «نعم».

«هل كنتَ جاسوسا إذا؟»

«ليس تماما».

يشعر براحة أكبر كَونها لا تراه جيّدًا في الحديقة المظلمة، بصيص المصباح في غرفة المريض الإنجليزي مَرْئيّ في الأسفل.

«أحيانا كانوا يرسلوننا كي نسرق. هنا كنت إيطاليًا ولصًّا. لم يستطيعوا تصديق

كم هم محظوظون. كانوا يفعلون ما في وسعهم ليستخدموني. ثمّة حوالي أربعة أو خمسة منّا. قمتُ بعمل جيّد بعض الوقت. ثم مصادفةً صُوِّرتُ. هل تستطيعين تخيّل هذا؟

كنت أرتدي بذلة رسميّة كي أحضر حفلة لأسرق بعض الأوراق. ما زلتُ لصًّا حينئذ. لم أكن وطنيًّا أو بطلا عظيما. جعلوا مهاراتي رسميّة فقط. لكن إحدى النساء أحضرت آلة تصوير وكانت تُصوّر الضبّاط الألمان. التقطت صورتي وأنا أسير عبر قاعة الرقص. في منتصف الخطوة، جعلني صخب آلة التصوير أدير رأسي نحوها. وهكذا أصبح كل شيء خطيرا. إنها عشيقة أحد الجنرالات.

الصور التي تلتقط أثناء الحرب جميعها تُعالَج رسميًّا في مختبرات حكومية ويفحصها الجستابو[24]، وهكذا سأكون هناك، بوضوح. لستُ في أيّ قائمة للمدعوّين، وسيكون لي ملف يُعدّه مسؤول حين يذهب الفيلم إلى ميلان. ما يعني أنّ عليّ سرقة ذلك الفيلم بطريقة ما».

تنظر إلى المريض الإنجليزي الذي بدا جسده النائم كأنه يبْعُد أميالا في الصحراء، يعالجه رجل يواصل غمس أصابعه في الوعاء الجلديّ الذي أعدّه من ضمّ أخمَصَيْه، منحنيا إلى الأمام، ضاغطا المسحوق الغامق على الوجه المحروق. تتخيل وزن اليد على خدها هي.

تسير عبر الصالة وتصعد أرجوحتها الشبكيّة، ثمّ تدفعه ليتأرجح فيما تستلقي عليه. إن لحظات ما قبل النوم هي اللحظات التي تشعر فيها أنها أكثر حياة، تقفز عبر أجزاء اليوم، جالبةً معها كلّ لحظة إلى السرير، مثل طفل بكتبه المدرسية وأقلامه. يبدو أن اليوم ليس له نظام، إلّا في تلك الأوقات التي هي مثل جسر بالنسبة إليها، ويكون جسمها مليئا بالقصص والمواقف. أعطاها كارافاجيو على سبيل المثال شيئا ما. دافِعُه للسّرقة، قصّة دراميّة، وصورة مسروقة.

يغادر الحفلة في سيارة تُصدر جلبة على الممَرّ الحصَويّ المُلتفّ قليلً، الذي يقود

إلى خارج المنزل. تُصدر السيارة خرخرة، تسير مثل حِبْرٍ في ليل الصيف. راقبَ المصوّرة بقيّة المساء أثناء الحفل في ڤيلا كوزيما، ويستدير مبتعدا كلما رفعت آلة التصوير جهته. والآن يستطيع أن يتجنبها بعد أن عرف أنها موجودة. يحاول دخول دوائر الحوارات التي تتجاذبها مع الآخرين، اسمها آنا، عشيقة ضابط سيبقى هنا في القيلا هذه الليلة، وفي الصباح سيسافر شمالا عبر توسكاني. إن موت الفتاة أو اختفاءها المفاجئ سيثير الريبة. هذه الأيام يجري التحقيق في أي شيء غير عادي.

يركض على الأعشاب بجوربه بعد أربع ساعات، ظلّه يتلوّى تحته، ملوّنا بضوء القمر. يقف على الممر الحصوي ويتحرك ببطءٍ فوق الصخر الرملي. ينظر إلى الأعلى نحو ڤيلا كوزيما، إلى الأقمار المربّعة للنافذة. قصر نساء الحرب.

شعاع سيارة، مثل شيء انتشر من خرطوم مياه، يضيء الغرفة التي هو فيها ويتوقف ثانية في منتصف الخطوة، مشاهدًا عينَي المرأة تنظران إليه ورجلًا يتحرك فوقها، أصابعه في شعرها الأشقر. ولقد شاهدت، كما عرف، رغم أنّه عارٍ الآن، الرجل نفسه الذي صوّرته باكرا في الحفلة المزدحمة، لأنه بالمصادفة يقف بالطريقة نفسها الآن، نصف ملتفتٍ من الدّهشة، من الضوء الذي يكشف جسمه في الظلام. تنحرف أضواء السيارة إلى زاوية الغرفة وتختفي.

ثم يخيّم الظلام. لا يعرف إن كان يجب أن يتحرك أو إن كانت ستهمس للرجل الذي يضاجعها عن وجود شخص آخر في الغرفة. لصٌّ عارٍ، قاتلٌ عارٍ. هل يجب أن يتحرك نحو الشخصين في الفراش ويرفع يديه كي يحطّم عُنقًا؟

يسمع الرجل يواصل انهماكه، يسمع صمت المرأة (لا يسمع همسًا). يسمعُ تفكيرها وعينيها الموجهتين نحوه في الظلام. العبارة الصحيحة التي تصف ما تفعله هي الآن هو: التّفكير السّمعي. ينزلق ذهن كارافاجيو إلى تكوين عبارة أخرى، تُوحي تجميع شظايا فِكرة ما، كما يُصْلِحُ المرء دون براعة دراجة نصف مكتملة. قال له صديقٌ إن الكلمات أشياء مخادعة أكثر من الكمنجات. يتذكر ذهنه شَعْر المرأة الأشقر، وشريطته السوداء.

يسمع السيارة تستدير وينتظر لحظة ضوءٍ أخرى. ما زال الوجه الذي بزغ في الظلام كسهم ينظر إليه. ينتقل الضوء من وجهها إلى جسد الجنرال، إلى السجادة، ثم يلمس كارافاجيو وينحدر عنه مرّة أخرى. لم يعد في وسعه أن يشاهدها. يهزّ رأسه، ثم يُشير بيده إلى عُنُقه، تهديدًا لها بقطع حنجرتها. يرفع آلة التصوير بين يديه ليجعلها تفهم، ثم يدخل إلى الظلمة ثانية. يسمع أنين مُتعة يصدر عنها ويُدرك أنها وافقته، لا تتحدث، ولا يصدُر عنها تلميح ساخر. تُبرِم عقدًا معه فقط. ترتّب شفرة للتفاهم، وهكذا يعرف أنه يستطيع أن يتحرك الآن في أمان إلى الشُّرفة، ويقفز في الليل.

العثور على غرفتها كان أكثر صعوبة. دخل الفيلا وعبر في صمتِ اللوحات الجداريّة التي تعود إلى القرن الخامس عشر على طول الممرات. في مكان ما توجد غرفة نوم، مثل جَيْب غامق في بذلة ذهبيّة. الطريقة الوحيدة لعبور الحراس هي أن يبدو بريئًا. تعرّى بشكل كامل وترك ثيابه في حوض أزهار.
يصعد عاريًا ومتمهّلا الدّرجَ إلى الطابق الثاني، حيث انحنى الحرّاس إلى الأسفل ليضحكوا حين شاهدوا عُضْوَه. كان وجهه تقريبا في مستوى ردفه. لكزَ الحرّاس بكوعه منبّهًا إلى دعوته المسائية. أكان هذا في الهواء الطلق؟ أهذا إغواءٌ دون مصاحبة الآلات الموسيقيّة؟
هناك صالة طويلة في الطابق الثالث، وثمّة حارس قُرب الدرج، وآخَرَ في النهاية القصوى على بُعد عشرين ياردة، وهكذا قام بمشية مسرحية طويلة، وكان على كارافاجيو أن ينجزها. الآن، يراقبه في رِيبة واحتقار حارسان منتصبان قبالة بعضهما. يؤدي مشية المؤخّرة والقضيب، يقف عند قسم من اللوحات الجداريّة كي يحدق إلى حمار مرسوم في أيْكَة. يُسند رأسه إلى الجدار وينام تقريبًا، ثمّ يمشي ثانية. يتعثّر، وفي الحال يستجمع قوّته في مشية عسكرية. تلوّح يده اليُسرى الضالة إلى سقف الملائكة الأطفال عُراةِ الأكفال مثله، تحيّة من لص، رقصة فالس قصيرة بينما يتلاحق المنظر الجصّي كيفما اتّفق وهو يتجاوزه: قلاعٌ،

كنائس بالأبيض والأسود، قدّيسون واقفون في يوم الثلاثاء هذا من الحرب كي يحفظوا تخفّيه وحياته. كارافاجيو في الخارج على الآجر يبحث عن صورته.

يربت على صدره العاري وكأنه يبحث عن معبر، يمسك عضوه ويتظاهر أنه يستخدمه كمفتاح ليدخل إلى الغرفة المحروسة. ضاحكا يتراجع مغتاظا من فشله الفاجع وينزلق إلى الغرفة الثانية وهو يهمهم.

يفتح النافذة ويخرج إلى الشرفة. ليلة جميلة مظلمة. ثم يتسلّق ويهبط إلى شرفةٍ تقع في الطابق السفلي. الآن فقط يستطيع أن يدخل إلى غرفة آنا وجنرالها. لن يكون شيئًا بينهما سوى عِطر، سوى قدم دون أثر، أقلّ من ظل. القصة التي رواها لطفلة أحدهم منذ سنوات عن الشخص الذي بحث عن ظلّه كما يبحث الآن عن صورته في قطعة فيلم.

يُدرك فورًا في الغرفة أن ما يجري هو أوّل المضاجعة. يداه تدخلان ثيابها المُلقاة على ظهور الكراسي، يداه على الأرض، يستلقي ويتدحرج على السجادة ليشعر بأي شيء صلب كآلة تصوير، لامسًا جِلْدَ الغرفة. يتدحرج في صمت على شكل مروحة ولا يعثر على شيء. لا توجد حتى نُقطة ضوء.

ينهض على قدميه ويؤرجح ذراعيه ببطء. يلمس صدْرًا رخاميًا. تتحرك يده على طول يدٍ حجريّة (يفهم الآن الطريقة التي تفكّر بها المرأة) عُلّقَتْ عليها آلة التصوير، ثم يسمع السيارة، وبشكل متزامن حين يستدير تشاهده المرأة في الانتشار المفاجئ لأشعّة السيارة.

كارافاجيو يراقبُ هانا التي تجلس قبالته وتنظر في عينيه مُحاولة أن تقرأه، محاولة أن تتّبع مجرى تدفّق أفكاره كما اعتادت زوجته أن تفعل. يراقبها وهي تتنشّقهُ، باحثة عن الأثر. يدفن مجرى أفكاره ويعيد النظر إليها عارفًا أن عينيه لا تُخطئان، واضحتان، كأي نهر، موثوقتان كمنظر. يعلم أن الناس يَضيعون فيهما، وهو يُجيد الاختباء. لكن الفتاة تراقبه بسخرية، تغطّي رأسها بسؤال كما يفعل كلبٌ حين يُحادَث بنبرةٍ صوتيّة أو طبقة غير بشريّة. تجلس إزاءه أمام الجدران

الغامقة دمويّة اللون التي لا يحبّ لونها. وبشعرها الأسود وتلك النظرة. بدَت له نحيلة، صَبَغها ضوء البلاد باللون الزيتونيّ. ذكّرته بزوجته.

لا يفكر في زوجته هذه الأيام، رغم معرفته أنّ في وسعه الاستدارة وتذكُّر حركاتها كلّها، وصْفَ أي مظهر فيها، وَزْنَ رسغها على قلبه أثناء الليل.

يجلس فيما يداه تحت الطاولة، مراقبًا الفتاة وهي تأكل. ما زال يفضّل أن يأكل وحيدا. رغم أنه يجلس دائما مع هانا أثناء الوجبات. يظنّ أنه الغرور، الغرور البشري.

شاهدَتْه من النّافذة يأكل مُقتعدًا إحدى الدرجات الستّة والثلاثين قُرب الكنيسة. لم تلمح شوكة أو سكّينًا، كأنّه يتعلم أن يأكل مثل رجُل من الشّرْق. تشاهده أخيرًا في لحيته الجذاميّة الشائبة وسُترته السوداء، الإيطاليّ الذي فيه. تُلاحظ ذلك كثيرًا.

يراقب دُكنتها إزاء الجدران البُنيّة والحمراء، يُراقب بشرتها وشعرها القصير. يعرفها هي ووالدتها في تورنتو قبل الحرب. ثم أصبح لصًّا، رجلًا متزوّجًا، انزلق في عالمه المختار بثقة بَلِيدة. كان بارعًا في خداع الأغنياء أو إبهاج زوجته جيانيتا، أو ابنة صديقه، هذه الشابّة.

أمّا الآن فلا يوجد عالم حولهما، فبات مُضطرًّا إلى التواصل، خلال هذه الأيام في البلدة، فوق التلّة، قرب فلورنسا، داخل المنزل أثناء الأيّام الماطرة، تنتابه أحلام يقظة على كرسيّ ناعم في المطبخ، أو في فِراش، أو على السطح، ليست أمامه مؤامرات كي ينفّذها. يهتمُّ فقط بهانا التي قيّدَت نفسها إلى الرجل الميت في الطابق العلوي.

أثناء الوجبات يجلس قبالتها ويراقبها وهي تأكل.

منذ نصف عام، يظهر لهانا أسدٌ أبيض من نافذة تقع آخِرَ الصالة الطويلة في مشفى سانتا تشيارا في بيزا. ينتصب على قمّة الشّرفات المُشرعة، ويتّصل لونيًّا مع رخام الكاتدرائيّة الأبيض والمقبرة، رغم أن شكله الفظّ الساذج بدا جزءً من

حقبة أخرى. بدا مثل هديّة من الماضي يجب أن تُقْبَل. مع ذلك قَبِلَته أخيرًا بين تلك الأشياء المُحيطة بالمشفى. تنظر في منتصف الليل من النافذة وتعرف أنه ينتصب أثناء إطفاء الأنوار أثناء حظْر التجوّل، ويبزغ مثلها عند طلوع الفجر. تُلقي نظرها له في الخامسة صباحًا، أو الخامسة والنصف، فترى صورته الظلّيّة وشكله النامي. يحرسها كل ليلة وهي تتحرّك بين المرضى. حتى أثناء القصف، تَرَكَه الجيش هناك، واهتمّ أكثر ببقيّة المجمّع الخياليّ، بالمنطق المجنون لبُرج بيزا المائل هناك مثل شخص صَدَمَتْهُ قذيفة.

تقع أبنية المشفى في أراضي أبرشيّة قديمة. ولم تعد الحديقة المشذَّبة التي نحَتَها رُهبانٌ حريصون جدًّا منذ آلاف الأعوام محصورة داخل أشكال حيوانية يمكن التعرف إليها، وكانت الممرضات أثناء النهار يُخرِجْنَ المرضى على كراسٍ مُدَوْلبة بين الأشكال الضائعة. لم يكن هناك شيء يوحي بالاستمرارية إلّا الأحجار البيضاء.

أصيبت الممرضات أيضا بصدمة القذائف بسبب تناثُر الموت حولهن، أو بسبب أشياء صغيرة، رسالة مثلًا. كُنّ يحملن ذراعًا مقطوعة عبر الصالة، أو يمسحن دمًا لا يتوقف وكأن الجُرح الرّاعف بئر، وبدأن يفقدن إيمانهن وثقتهن بأي شيء. تحطّمن بالطريقة التي كان يتحطم بها رجُل وهو يحاول تعطيل لُغم لحظة انفجاره، بالطريقة التي انهارت فيها هنا في مشفى سانتا تشيارا حين سار مسؤول في المكان بين مئة سرير وسلّمها رسالة أخبرتها عن موت والدها.

أسدٌ أبيض.

في وقت ما بَعْدَ كلّ ذاك، صادفَ المريض الإنجليزي، شخصًا بدا كحيوان محروق، مضطرب وغامق، كان مثل بِرْكَةٍ بالنسبة إليها، وأصبحَ بعد شهور مريضها الأخير في ڤيلا سان جيرولامو. انتهت حربهما ورفض كلاهما العودة مع الآخرين إلى أمان مستشفيات بيزا. جميع المرافئ الساحلية مثل سورينتو ومارينا دي بيزا مليئة بجنود أميركيين شماليّين وبريطانيين مُنتظرين إعادتهم إلى أوطانهم. لكنها غسلتْ بذلتها، طوتها وأعطتها الممرّضات المغادرات. قيل لها إن الحرب لم تنته في الأمكنة كلّها.

انتهت الحرب. هذه الحرب انتهت. الحربُ هنا. قيل لها إنّ هذا سيكون فُراقٌ بينهم. هذا ليس فراقًا. سأبقى هنا. حُذّرَتْ من الألغام غير المزالة ومن قلّة الماء والطعام. صعدَت الطابق العلوي، إلى الرجل المحروق، إلى المريض الإنجليزي، وقالت له إنها ستبقى أيضا.

لم يقُل شيئا. لم يقدر حتى أن يُدير رأسه نحوها. لكن أصابعه انزلقت إلى يدها البيضاء، وحين انحنتْ فوقه وضع أصابعه السوداء في شعرها وأحسّ بخصلاته باردة بين أودية أصابعه.

كم عمرك؟

عشرون.

روى لها عن دوق، قيل إنه حين كان يحتضر أراد أن يُحْمَل نصفَ المسافة صعودًا برج بيزا، لكي يموت ناظرًا إلى المشهد الطبيعيّ أمامه.

أراد صديقٌ لأبي أن يموت أثناء رقْصِه رقصةَ شنغهاي، لا أعرف ما هي. وهو نفسه سمع عنها وحسب.

ماذا يعمل والدك؟

مكتبة

إنه...إنه في الحرب.

أنت في الحرب أيضًا.

لا تعرف عنه شيئا. حتى بعد شهر أو أكثر من الاعتناء به وحَقْنهِ بالمورفين. كلاهما خَجِلَ في البدء، وكان ذلك واضحًا من حقيقة أنّهما وحيدان. تغلّبا بغتةً على الخجل. ذهب المرضى والأطباء والممرضات والعتاد والبطانيات والمناشف كلها، نازلةً الهضبة إلى فلورنسا، ثمّ إلى بيزا. خَبّأتْ بعض أقراص الكودِين المسكّنة، بالإضافة إلى المورفين. راقبت المغادرين، خطَّ الشاحنات. وداعًا، إذن. لوّحت من نافذتها وهي تغلق المصاريع.

يرتفع خلف الڤيلا جدار صخريّ أعلى من المنزل، وتمتدّ غرب البناء حديقة طويلة مُسَيّجة، وعلى بعد عشرين ميلا كانت سجادة مدينة فلورنسا، التي تختفي

في معظم الأوقات تحت ضباب الوادي. سرَت إشاعة بأن جنرالًا عاشَ في ڤيلا ميديتشي القديمة المجاورة أكلَ طائر بُلبُل.

إن ڤيلا سان جيرولامو التي شُيّدَت لحماية قاطنيها من إغواء الشيطان، تتمتع بمظهر حِصْنٍ مُحاصَر، سقطت أعضاء معظم التماثيل أيّامَ القصف الأولى. وبدا أنّ هناك حُدود قليلة مرسومة بين المنزل والبريّة، بين البناء المُصاب وبقايا التراب الذي قُصف وحُرِق. الحدائق البريّة بالنسبة إلى هانا غُرَفًا إضافية. اشتغلت على حوافّها متنبّهة دومًا لوجود الألغام غير المتفجرة. بدأت تعمل بعاطفة وحشيّة تتولّد في شخصٍ ترعرع في المدينة فقط. في بُقعةٍ تُرْبَتُها خصبة تقع إلى جانب الڤيلا، ورغم التّراب المحترق، وقِلّة الماء، فإنّ أشجار الليمون ستعلو يومًا ما، غرفة للضوء الأخضر.

دخل كارافاجيو المطبخ وعثر على هانا جالسة محدودبة الظهر إلى الطاولة. لم يستطع أن يشاهد وجهها، أو الذراعين المدسوستين تحت جسمها. شاهدَ الظّهر العاري والكتفين العاريتين فقط.

لم تكن هادئة أو نائمة. كان رأسها يهتزّ فوق الطاولة مع كلّ ارتعادة.

وقف كارافاجيو هناك. أولئك الذين يبكون يفقدون طاقة أكبر من التي يفقدونها حين يقومون بأيّ شيء آخر. لم يكن قد طلع الفجر بعد. وجهها إزاء ظُلمة الطاولة الخشبية.

قال: «هانا!» فسيطرت على نفسها كأنّ في إمكانها تمويه بكاءها بالهدوء.

«هانا».

راحت تئن، وصار الصّوت حاجزًا بينهما، نهرًا لا يمكن عبوره للوصول إليها.

لم يكن قد قرر في البداية أن يلمسها وهي عارية فقال: «هانا»، ثم وضع يده المضمّدة على كتفها. لم تتوقف عن الارتجاف. ظنّ أنه الأسى الأعمق، حيث الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي التنقيب عن كل شيء.

رفعت نفسها وما زال رأسها الى الأسفل ثم وقفت إزاءه وكأنها تجرّ نفسها من المجال المغناطيسي للطاولة.

«لا تلمسني إذا كنت ستحاول أن تضاجعني».

بشرتها شاحبة في الجزء العلويّ من جسدها، فوق تنّورتها التي كانت كل ما ترتديه في المطبخ، كأنّها نهضت توًّا من سريرها. ارتدت ثيابها بشكل جزئي وخرجت، هواء

التلال البارد يهبّ عبر مدْخَل المطبخ، يلفّها بعباءته.
كان وجهها أحمر ومبلّلًا.
«هانا»
«هل تفهم؟»
«لمَ أنت هائمة به؟»
«أحبّه»
«لا تحبيه، بل تهيمين به».
«اذهب يا كارافاجيو، أرجوك».
«لقد قيّدتِ نفسك إلى جثّة لسببٍ ما».
«أظنّ أنه قدّيس، قدّيس بائس. أتوجد أشياء كهذه؟ نرغب أن نحميهم».
«إنه لا يأبه».
«أستطيع أن أحبّه».
«فتاة في العشرين من عمرها ترمي نفسها خارج العالم لتُغرم بشبح!»
توقّفَ كارافاجيو. «يجب أن تحمي نفسك من الحزن. دعيني أخبرك هذا، هذا شيء تعلّمته: إذا تجرّعتِ سمّ شخصٍ آخر ظانّة أنه في وسعك أن تُشفيه إذا شاركته كمّيّة السّم، فأنت في الحقيق تخزّنينه داخلك. كان رجال الصحراء أذكى منك. افترضوا أنه يمكن أن يكون مُفيدًا وهكذا أنقذوه، لكن حين لم يعُد مفيدا تخلوا عنه».
«اتركني وحدي».

حين تكون وحدها تجلس واعيةً لعَصَب كعبها المُبلّل من الأعشاب البستان الطويلة. تقشّر خوخة عثرت عليها هناك وتحملها في جيبها القطنيّ الأسود. حين تكون وحيدة تحاول أن تتخيّل من يمكن أن يأتي على الطريق القديم تحت الغطاء الأخضر لأشجار السّرو الثمانية عشرة؟
حين يستيقظ المريض الإنجليزي تنحني فوق جسمه وتضع ثلث الخوخة في فمه.

يلتقطها فمه المفتوح كالماء لكن الفكّ لا يتحرك. يبدو كأنه سيصرخ من المُتعة.
تستطيع أن تحسّ أن الخوخة بُلِعَتْ.
يرفع يده ويمسح عن فمه القطرة الأخيرة التي لا يستطيع لسانه أن يصل إليها ويضع إصبعه في فمه ليمصّها. دعيني أخبركِ عن الخوخ، يقول لها.
حين كنتُ صبيًّا...

بعد الليالي الأولى، بعد أن أُحرقت مُعظم الأسرّة وقودًا للتدفئة من البرد، أخذت أرجوحة شبكيّة لرجل ميت لتستخدمها. تثبت خطّافات في أيّ جدران شاءت، في أي غرفة تريد أن تستيقظ فيها، مرتفعة فوق كل القذارة والكوردايت[25] والمياه التي على الأرضية، والجرذان التي بدأت تظهر هابطة من الطابق الثالث. كانت تتسلّق كل ليلة حتى الخطّ الشبحيّ الخاكيّ للأرجوحة التي أخذتها من جندي ميت، أحد الذين ماتوا وهي تطبّبهم.

زوْج حذاء تِنِس وأرجوحة. هذا ما أخذته من الآخرين في هذه الحرب. تستيقظ تحت زحف القمر على السقف، مكسوّة بقميص قديم تنام فيه دائما، بينما يتدلى ثوبها على مسمار قرب الباب. ارتفعت الحرارة الآن وبهذه الطريقة تستطيع أن تنام. من قبل، حين يكون الجو باردًا، كان اضطُرّوا إلى إشعال بعض الأشياء. أرجوحتها وحذاؤها وثوبها. آمنة في العالم الصغير الذي بنته، وبدا الرجلان الآخران كوكبَين بعيدين. كلٌ منهما يعيش في حَلَقَة ذاكرته وعزلته الخاصّة. تلك الأيام، كان كارافاجيو، صديق والدها في كندا وعَشيرُه الدائم، قادرا على الصمود مُبقيًا لا أحد دون فوضى في قافلة النساء التي أسْلَمَ نفسه إليها. يستلقي الآن في ظلمته. لصّ رفض أن يعمل مع الرجال لأنه لم يثق بهم. تحدّث معهم لكنه فضّل التحدث مع النساء، وحين يبدأ حديثه إحداهن يَغْلَق على الفور في شِباك علاقة بها. حين تتسلّل إلى المنزل في الساعات الصباح الباكرة تجده نائمًا على كرسيّ والدها المذرّع مُصابًا بالإعياء من السّرقات الاحترافية أو الشخصية.

فكّرت في كارافاجيو، هناك أُناسٌ ينبغي عليك أن تحتويهم، بطريقة أو بأخرى، أن تعضّ عضلاتك وأنت معهم لتتحمّلهم، أن تبقى عاقلًا في حضرتهم. تحتاج أن تقبض شعرهم وتتعلّق به مثل غريق، وهكذا يسحبونك إلى وسطهم. دون ذلك فإنّك قد تجدهم يسيرون مصادفة في الشارع نحوك، وعلى وشك أن يلوحوا لك بيدهم، ثم بغتة سيقفزون فوق جدار ويغيبون أشهرًا. مثل عَمٍّ لك وقد اختفى فجأة.

قد يُشوّشك كارافاجيو بمجرّد أن يضمّك بين ذراعيه، جناحيه. ومع ذراعيه ستحتويك شخصيّته. لكنّه يستلقي الآن في الظّلمة مثلها في موقع ما من المنزل الضخم. هكذا، هناك كارافاجيو، وهناك الرجل الإنجليزي الصحراوي.

احتفظَت طوال الحرب ببرودة مخبّأة في دَوْرها كممرّضة، أبقتها على قيد الحياة مع جميع مرضاها الأسوأ حالة. «سوف أنجو من هذا». «لن أنهار». تلك عبارات مدفونة طوال حربها، عبر البلدان التي زحفوا نحوها، عبر آرينو، وأنغياري، ومونتيرشي إلى أن دخلوا فلورنسا، ثم ذهبوا إلى أبعد، وأخيرا وصلوا البحر الآخر قُربَ بيزا.

شاهدت المريض الإنجليزي أوّل مرّة في مشفى في بيزا. رجلٌ دون وجه، بِرْكَةٌ أبنوسيّة اللون. كل ما يدل عليه احترق في النار. رُشّتْ أجزاء من جسمه المحروق ووجهه بحمض السّنديان[26]، الذي تصلّب متحوّلا إلى صَدَفة حامية فوق جلده الخام. المنطقة حول عينيه مُغطّاة بطبقة كثيفة من البنفسّج البلّوريّ[27]. لا شيء فيه يُمكن التعرّف عليه.

تُراكم أحيانًا عدّة ملاءات وتستلقي تحتها، مستمتعة بثقلها عليها أكثر من دفئها. حين ينزلق ضوء القمر على السقف تستيقظ، فتستلقي في الأرجوحة الشبكيّة وذهنها يتنقّل. تجد أن الاسترخاء دون النوم هو الأكثر راحة ومُتعة. لو كانت كاتبة ستجمع أقلامها ودفاترها وقطتها المفضّلة وتكتب في الفراش. لن يعبر الغرباء أو العشّاق البابَ المقفل.

إن الراحة هي استقبال مظاهر العالم كلّها دون الحُكم عليها. سباحة في البحر، ممارسة الجنس مع جنديّ لا يعرف اسمك أبدًا. رِقّة إزاء المجهول واللامسمّى. رقّة مع الذات.

تتحرّك ساقاها تحت ثِقل الملاءات العسكريّة، تسبح في صوفها كما كان المريض الإنجليزي يتحرك في غشاء مشيمته.

ما تفتقده هنا هو البروق البطيئة، أصوت الأشجار المألوفة. تعلّمت طوال شبابها في تورنتو أن تقرأ ليلَ الصيف. يحدثُ هذا حين تكون وحدها مستلقية في السرير، تندفع عبر مخرج للنجاة من النار، نصفَ نائمة، حاملة قطّةً بين ذراعيها.

كارافاجيو هو غُرفة صَفّها في طفولتها. علّمها الشّقلبة. أمّا الآن فهو يومئ فقط بكتفيه بما أنه يضع يديه دائما في جيبيه. من يدري أيّ بلادٍ جعلته الحرب يعيش فيها. هي نفسها تدرّبتْ في مشفى كليّة نسائيّة، ثُمّ أرْسلت إلى ما وراء البحار أثناء الغزو الصّقليّ. حدث ذلك عام 1943 مع فرقة المُشاة الكنديّة الأولى، التي شقّت طريقها إلى إيطاليا وغُذّيَت المستشفيات الميدانية بالأجساد المحطّمة، مثل الوحل الذي يمرّره حافرو الأنفاق في الظلام. وبعد معركة آريزو، حين تراجع سَيل الجنود الأوّل، أُحيطت ليلا ونهارا بجراحهم. بعد ثلاثة أيام كاملة دون استراحة، استلقت أخيرا على الأرض قُرب وسادة، حيث كان يستلقي أحدهم ميتا، ونامت اثنتي عشرة ساعة مُغلقة عينيها إزاء العالم الذي حولها.

حين استيقظت، أخرجت مقصًّا من الوعاء الخزفيّ. انحنَتْ وبدأت تقص شعرها غير مهتمة بالشكل أو الطول، قَصّته فقط. استياءها منه في الأيام الماضية ما زال في ذهنها، حين انحنت إلى الأمام ولمس شعرها الدم في الجرح. لا تملك شيئا ليصلها بالموت. أمسكت بما تبقّى منه لتتأكّد أنه لم تعد توجد خصَل أخرى، واستدارت ثانية لتواجه الغرف المليئة بالجرحى.

لم تنظر إلى نفسها في المرايا ثانية أبدًا. وحين أصبحت الحرب أكثر سوادًا تلقّت تقارير عن كيفية موت بشر معيّنين كانت تعرفهم. خافت من اليوم الذي ستُزيل فيه الدم عن وجهِ مصابٍ وتكتشف أنّه والدها، أو شخص كان يقدّم لها الطعام

عبر طاولة المحاسِب في شارع دانفورث. أصبحت قاسية مع نفسها ومع المرضى. إن العقل هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم، ولم يكن يوجد عقل. ارتفعَ مقياس سفك الدماء في البلد. أين كانت وماذا كانت تورنتو في ذهنها على أيّ حال؟ هذه أوبرا خائنة. أصبح البشر فظّين مع مَن حولهم، الجنود والأطباء والممرضات والمدنيون. انحنت هانا مُقتربةً أكثر من الجِراح التي تعتني بها، وفمها يهمس للجنود.

تنادي كلّ شخصٍ بصديقي، وتضحك من الأغنية التي تحتوي هذه السطور:

كلّما صادفَ ورأيتُ فرانكلن دي،

قال مرحبًا يا صديقي، دائمًا، لي

نظّفت أذْرُعًا لا تنفكّ تنزف. أخرجت شظايا كثيرة وشعرت أنها أخرجت طنًّا من المعدان من أجسام بشريّة كانت تعتني بها فيما الجيش يتحرك شمالا. وحين مات مريض في ليلة ما، تجاهلتْ جميع القوانين وأخذت حذاء التّنس المدسوس بين أغراضه وارتدته. وجدته كبيرا على قدميها قليلا، لكنها مرتاحة فيه.

أصبح وجهها أكثر فظاظة ونحولا، ذلك الوجه الذي سيقابله كارافاجيو فيما بعد. أنْحَلَها التعب. جائعة دائما وتجد أن إطعام مريض لا يستطيع أن يأكل، أو لا يريد شيئا، مُرْهِقًا جدًّا وهي تراقب الخبز يتفتّت والحساء يبرُد راغبةً أن تبتلعه بسرعة. لم ترغب في أي شيء غريب الطراز، رغبت بالخبز واللحم فقط. ثمّة قسم لصناعة الخبز، في أحد البلدان، مُلْحَق بالمشفى، في وقت فراغها تتحرّك بين الخبّازين مستنشقة الغبارَ ووعد الطعام. فيما بعد، حين أصبحوا في شرق روما، قدّم لها أحدهم هديّة، ثَمَرَة خرشوف من القدس.

يُستغرَب النوم في الكاتدرائيّات أو الأبرشيّات أو في أي مأوىً للجرْحى، ودائما يزحفون شمالا. تزيل البطاقة الكرتونية الصغيرة عن قدم السرير حين يموت شاغِلُهُ، ويعرف المساعدون ذلك بنظرة سريعة، ثم تغادر البناء سميك الأحجار

وتخْرج إلى الربيع أو الشتاء أو الصيف، الفصول التي بدت عتيقة الطراز، التي جلست أمامهم مثل عجائز طوال الحرب. ستخرج كيفما كان الطقس. تريد هواء لا تفوح منه رائحة بشريّة، تريد ضوء القمر حتى لو جاءَ مع عاصفة مطريّة. مرحبا صديقي، وداعًا يا صديقي. تبادُل الاهتمام قصير. عَقْد مُبْرَم إلى لحظة الموت القريبة فقط. لم يعلّمها شيء في روحها أو ماضيها أن تصبح ممرّضة. لكن قَصَّ شعرها كان عَقْدًا استمرّ حتى عسكروا في ڤيلا سان جيرولامو شمال فلورنسا. أربع ممرّضات وطبيبان ومئة مصاب، فيما الحرب تزحف في إيطاليا إلى الشمال، فباتوا متروكين خلفها.

أثناء احتفالات شابَتها الكآبة، أقيمت بمناسبة انتصار محلّيّ في بلدة التلّ هذه، قالت إنها لن تعود إلى فلورنسا، ولا روما، ولا أيّ مشفى آخر؛ قالت إنّ حربها انتهت. ستبقى مع الرجل المحروق الذي يدعونه «المريض الإنجليزي»، الذي يجب ألّا يُنقل أبدًا كما تبيّن لها، بسبب هشاشة أعضائه. ستضع نبتَة سِتّ الحسن[28] على عينيه، وتغسل الجلد ذا الندوب والحروق الخطيرة بمياه مالحة. قيل لها إن المشفى غير آمن، إنّ الدّيْر الذي استُخدم عدّة أشهر كنُقطة دفاع ألمانية، أمْطَره الحلفاء بالقذائف، وتلاحقت فيه الانفجارات. لن يُترَك لها شيء، ولا أمان من قُطّاع الطرق، لكنها أصرّت على رفض المغادرة. خلعت لباس التمريض وأخرجت الثوب البني المخطّط الذي حملته شهورا معها، وارتدته مع حذاء التنس. ابتعدت عن الحرب. تحرّكت جيئة وذهابا وفق رغبتهم. ستبقى في الڤيلا مع الإنجليزي إلى أن تستردّها الرّاهبات. يوجد شيء فيه تريد أن تعرفه، أن تترعرع فيه وتختبئ خارجةً من واقِع أنّها كبيرة وراشِدة. هناك بعض موسيقا الفالس في طريقة حديثه وتفكيره. أرادت أن تنقذه، هذا الذي لا اسم له، الذي دون وجه، الذي كان من بين مائتي شخص وُضعوا تحت عنايتها أثناء الغزو شمالًا.

ابتعدت عن الاحتفال مُرتدية ثوبها المخطّط. دخلتْ الغرفة التي تقاسمتها مع الممرضات الأخريات، وجلست. لمعَ شيء في عينيها حين جلستْ فلمحت مرآة صغيرة مستديرة. نهضَت في بُطء وسارتْ نحوها. صَغيرة جدا لكن بدتْ شيئا

مُترفًا. رفضتْ أن تنظر إلى نفسها أكثر من عام، تنظر فقط إلى ظلّها بين فَينة وأخرى على الجدار. كشفت المرآة خدّها فقط. عليها أن تُبعدها عنها مسافةَ ذراع كي ترى وجهها كاملًا، لكن يدها ترتجف. راقبت صورتها الصغيرة كأنها منعكسة على دبّوس زِينة. هيَ. دخل من النافذة صوت المصابين الذين أُخرجوا إلى ضوء الشمس على كراسيهم المدولبة، يضحكون ويتهجون مع الموظفين. وبقي في الداخل أولئك المصابون في حالة خطرة. ابتسمت وقالت: «مرحبا صديقتي.» حدّقت إلى نَظْرَتِها، محاولة أن تتعرف على نفسها.

الظّلام قائم بين هانا وبين كارافاجيو أثناء سيرهما في الحديقة. يُبادره الحديث بطريقته التشدّقيّة، البطيئة، المألوفة.

«أُقيمَت حفلة عيد ميلاد شخص ما، في وقت متأخر من الليل، في شارع دانفورث. مطعم نايت كرولر، هل تذكرين يا هانا؟ كان يجب على كل شخص أن يقف ويغنّي أغنية. والدك وأنا وجيانيتا والأصدقاء، وقلتِ إنك تريدين ذلك أيضا، للمرّة الأولى. ما تزالين في المدرسة آنذاك. ولقد تعلّمتِ الأغنية في صفّ اللغة الفرنسية»

«ولقد أدّيتِها بشكل رسميّ. وقفتِ على المقعد ثم خطوتِ خطوة أخرى إلى الطاولة الخشبية بين الصحون والشموع التي تشتعل"

«Alonson Fon!»

«غنّيتِ واضعة يدك اليُسرى على قلبك، *Alonson Fon*. لم يعرف نصف الموجودين ماذا تغنين، وربما لم تعرفي أنتِ وقتئذ معنى الكلمات بدقة، لكنك عرفتِ موضوع الأغنية»

«رفع النسيم الذي هبّ من النافذة تنورتك فكانت على وشك أن تلامس شمعة، وبدا كعباك أبيضين من النار في الحانة. عينا والدك تنظران إليك وأنت تبدين فاتنةً بتلك اللغة الجديدة، والكلام يتدفق متميزا وصحيحا ودون تردّد، فيما لهب الشموع ينحرف دون أن يلامس فستانك. وقفنا في النهاية ومشيتِ على الطاولة إلى ذراعيه»

«سأنزع الضمادات عن يديك، أنت تعرف أنني ممرّضة»
«إنها مريحة كالقفازات»
«كيفَ حدث هذا»
«قُبضَ عليّ وأنا أقفز من نافذة امرأة، المرأة التي أخبرتك عنها، التي التقطت الصّورة. لم يكن ذلك خطأها»
تُمسك ذراعه وتدلّك العضلات: «دعني أفعل هذا».
تُخرج اليدين المضمّدتين من جيبَي معطفه. شاهدَتهما رماديّتين في ضوء النهار، لكنهما مُضيئتان تقريبًا في هذا الضوء.
يخطو إلى الوراء وهي تحلّ الضمادات، يُخرج الضماد الأبيض من ذراعيه كأنّه ساحر، إلى أن يتحرّر منه. تمشي نحو عَمّ الطفولة، ترى عينيه تَأمَلان أن تلتقيا مع عينيها من أجل تأجيل ذلك، وهكذا لا تنظُر الى أي شيء سوى عينيه.
يداه مطويتان معًا مثل وعاء، تصلُ إليهما بينما يرتفع وجهها إلى خده ثم يعشعش في عنقه. ما تمسكه يبدو ثابتا ومُعافا.
«قلتُ لكِ إنه كان عليّ أن أفاوض من أجل ما تركوه لي»
«كيف فعلت ذلك؟»
«جميع تلك المهارات التي كنت أحملها»
«آه! أذكر. لا، لا تتحرّك، لا تنحرف بعيدا عني»
«إنه وقت غريب، نهاية حربٍ»
«نعم، فترة تكيّف»
«نعم»
رفع يديه إلى الأعلى وكأنه يريد أن يغطّي الهلال.
«لقد قطعوا كلا الإبهامين يا هانا. انظري»
يرفع يديه أمامها ويريها بشكل مباشر ما لمحته، يقلبُ إحداهما كأنه يريدُ أن يكشف أنّ هذه ليست خدعة، أن ما يبدو كاللّغد هو حيث قُطع الإبهام. يُحرّك اليد نحو بلوزتها.

تلمس القماش الذي رُفع في موقع تحت كتفها وتمسكه بإصبعين وتشدّه بنعومة نحوه.

«ألمس القطن هكذا».

«حين كنتُ طفلة اعتقدتُ دومًا أنك سكارلت بيمبرنل[29]، وسرتُ معك في أحلامي على السقوف الليليّة. كنت تجيء إلى المنزل حاملا لي وجباتٍ باردة وعلب أقلام رصاص وصفحات موسيقا بيانو فورست هيل[30].

تتحدّث مع ظُلمة وجهه، ظِلال من الوُريقات تغطّي فمه مثل مخرّمات امرأة غنيّة.

«أنت تحب النساء، أليس كذلك؟ لقد أحببتهن؟»

«أحبهن. لماذا تستخدمين صيغة الزمن الماضي؟»

«يبدو أن الأمر غير مهم الآن، بسبب الحرب وأمور تشبهها»

يهزّ رأسه وتنأى عنه ظلال الوُريقات.

«كنتَ مثل أولئك الرسّامين الذين يرسمون في الليل فقط، ويوجد مصباح واحد مضاء في شارعهم. مثل جامِعِي الدّيدان حاملين عُلَب قهوتهم القديمة المربوطة إلى كواحلهم، فيما خوذة الضوء مسلّطة على الأعشاب، في جميع حدائق المدينة. أخذْتَني إلى ذلك المكان، إلى ذلك المقهى حيث يبيعونها. وجدته أشبه بالبورصة، كما قلت، حيث سِعْر الديدان ينخفض ويرتفع، خمسة سنتات، عشرة سنتات. والبشر يبدّدون أو يجمعون الثروات، أتذكر؟»

«نعم».

«سِر عائدًا معي. الجوّ يبرد».

«يولَد النشّالون العباقرة بإصبع وسطى وسبّابة لهما الطول نفسه تقريبًا. لا يحتاجان أن يدْخُلا عميقا في أيّ جَيْب. المسافة العظيمة فقط، نصفَ إنش!»

يتحرّكان نحو المنزل، تحت الأشجار.

«من فعل بك هذا؟»

«عثروا على امرأة للقيام بذلك. ظنّوا أن هذا أكثر فاعليّة. أحضروا إحدى ممرضاتهم، رسغاي مقيّدان إلى ساقَي الطاولة بالأصفاد. حين قطعوا إبهاميّ

انزلقَت يداي منها دون قوّة، مثل أُمنيةٍ في حلم. لكن الرّجل الذي طلب منها الدخول هو المسؤول فعلًا، واسمه رانسيو توماسوني. كانت بريئة، لا تعرف شيئا عنّي، أو اسمي، أو جنسيّتي، أو ما الذي فعلته».

حين دخلا المنزل سمعا المريض الإنجليزي يصيح. تركت هانا كارافاجيو الذي راقبها وهي تركض صاعدة الدرج، حذاء التنس الذي تنتعله يلمع وهي تصعد وتنعطف حول السّياج.

ملأ الصوت القاعات. دخل كارافاجيو إلى المطبخ، قطعَ شريحة خُبز وتبع هانا إلى الدّرج. وهو يمشي نحو الغرفة أصبحت الصرخات أكثر تهيّجا. وحين دخل غرفة النوم كان الإنجليزي يحدّق في كلب، رأسه مُرتَدّ إلى الخلف كأنّ الصراخ أذهله. نظرت هانا إلى كارافاجيو وابتسمت.

«لم أر كلبا طوال أعوام. طيلة الحرب، لم أر كلبا».

انحنت وضمّت الحيوان شامّة شعره ورائحة أعشاب الهضبة فيه. وجّهت الكلب نحو كارافاجيو الذي قدّم له قطعة خبز، حينئذ شاهد الإنجليزي كارافاجيو فارتخى فكّه. خُيّل إليه أن الكلب الذي تحجبه هانا الآن قد تحوّل إلى إنسان. حمل كارافاجيو الكلب بين ذراعيه وغادر الغرفة.

قال المريض الإنجليزي: كنت أفكّر أن هذه لا شكّ غرفة بوليزيانو[31]. لابدّ أن هذه الفيلا التي نحن فيها له، إنها المياه التي يخرج من ذاك الجدار، من تلك النافورة المرسومة العتيقة. هذه غُرفة مشهورة جدًّا، لقد التقوا جميعهم هنا.

قالت في هدوء إنّ هذا مشفى. وقبل ذلك، بوقت طويل، كان دَيْر راهبات. وأخيرًا احتلّته الجيوش.

أعتقد أن هذه كانت فيلا برسكولي. بوليزيانو، رَبيب لورنزو الرائع[32]. أنا أتحدث عن عام 1483. تستطيعين أن تشاهدي في فلورنسا، في كنيسة سانتا ترينيتا[33]، لوحة آل ميديشي[34] مع بوليزيانو في مقدّمة الرّسمة، يرتدي عباءة حمراء. كان رجلًا مَهيبًا ومتألّقا، استطاع بذكائه وعبقريّته أن يشقّ طريقه إلى أعلى طبقة في المجتمع.

جاوزَ الوقت منتصف الليل كثيرًا، وما زال مستيقظا تمام اليقظة مرّة أخرى. وفكّرَتْ، حسنًا، أخبِرني، خُذني إلى مكان ما. ذهنها ما زال مشغولًا بيَدَيْ كارافاجيو، الذي راح الآن على الأرجح يُطعم الكلب الضال شيئا من مطبخ ڤيلا برسكولي، إذا كان هذا هو اسمها.

تلك الحقبة في إيطاليا دمويّة، الخناجر والسياسة والقُبَعات ثلاثيّة الطبقات والجوارب الكولونيالية المبطّنة وباروكات مستعارة حريرية. جاء ساڤونارولا[35] فيما بعد طبعا، لم يتأخر كثيرا، وقام بعمليّة حرق الباطل[36]. بوليزيانو ترجم ملحمتَي هوميروس. ألّف قصيدة عظيمة عن سيمونيتا فسبوتشي[37]، هل تعرفينها؟

«لا» قالت هانا ضاحكة.

اللوحات التي رسمها لها الفنانون منتشرة في أنحاء فلورنسا. ماتتْ من السلّ في سن الثالثة والعشرين، أذاعَ صيتها بوليزيانو في قصيدة ألهمت بوتيتشيلي[38] رسْمَ مشاهد منها. ليوناردو دافنشي أيضًا رسم مشاهد منها. كان بوليزيانو يُلقي محاضراته كل يوم، مُدَة ساعتين صباحًا باللاتينية، وساعتين عصْرًا باليونانية. صادف شخصا يُدعى بيكو ديلا ميراندولا[39]، عضو بارز في المجتمع ومتوحّش، ارتدّ فجأة وانضم إلى ساڤورنارولا.

تلك كُنيتي في طفولتي، بيكو.

نعم، أعتقد أنّه جرى هنا الكثير. هذه النافورة في الجدار. بيكو ولورنزو وبوليزيانو ومايكل آنجلو الشاب، حملوا العالم الجديد في كفّ، وفي الأخرى العالم القديم. بقيادتهم، حصلت مكتبة فلورنسا على الكتب الأربعة الأخيرة لشيشرون[40]، وجلبوا زرافة، ووحيدَ قرن، وطائر دودو[41]. رسمَ توسكانلي[42] خرائط للعالم معتمدا على المراسلة مع التجّار. جلسوا في هذه الغرفة مع تمثال نِصْفِيّ لأفلاطون، وتجادلوا طوال الليل.

ثم جاءت صرخة ساڤونارولا من الشوارع: «التوبة! الطوفان قادم!» وكُنِسَ كلّ شيء: الإرادة الحرة، والرّغبة في الأناقة، والشُّهرة، حقّ تَبجيل أفلاطون كما يُبَجّل المسيح. جاءت النيران، إحراق الباروكات المستعارة والكتب وجلود الحيوانات

والخرائط. بعد أكثر من أربعمئة عام على ذلك، فتحوا القبور. كانت عظام بيكو محفوظة، بينما عظام بوليزيانو أضحت رميما.
أصْغَت هانا بينما كان الإنجليزي يقلبُ صفحات كتابٍ مألوف ويقرأ المعلومات من قُصاصات أُلصقت فيه من كتب أخرى، عن الخرائط العظيمة التي ضاعت في النيران، وعن حرق تمثال أفلاطون الذي تقشّر رخامه من الحرارة، وعن شقوق ستبقى دومًا ناقصة في علوم الحِكمة، كالكلمات التي قالها بوليزيانو عبر الوادي حين وقف على التلال المعشوشبة ليشمّ رائحة المستقبل. بيكو أيضا هناك في مكان ما، في زنزانته الرمادية، يُراقب كلّ شيء بالعين الثالثة للخلاص.

سكب بعض الماء في وعاء للكلب. كان كلبا عجوزا مهجّنا أكبر عُمرًا من الحرب. جلس وأمامه إبريق نبيذ زجاجيّ أعطاه رهبان الأبرشية لهانا.
إنّه منزل هانا، ولذا يتحرّك في حِرص دون أن يعاود ترتيب أي شيء. لاحظَ تحضّرها في معاملتها الأزهار البريّة، والهدايا الصغيرة التي تقدمها لنفسها. حتى في الحديقة المغطاة بالأعشاب سيعثر على قَدَمٍ مربع مقصوص بمقصّ تمريضها. لو كان رجلا أكثر شبابا لأحبّ هذا.
لم يعد شابًّا. كيف رأته، بجراحه، بفقدانه توازنه، بالخصلات الشائبة في قفا عنقه؟ لم يتخيل نفسه قط رجلًا ينتابه إحساس التقدّم في العمر، والحكمة. كبُرَ الجميع، لكنه ما زال يشعر أنه لا يحمل حكمةً تواكب كهولته.
انحنى ليراقب الكلب وهو يشرب، أعاد موازنة نفسه متأخرا جدًّا، مُمْسكًا الطاولة، هازًّا إبريق النبيذ.
اسمك ديفيد كارافاجيو، صحيح؟
قيّدوه بالأصفاد إلى السّيقان السميكة لطاولة من خشب البلّوط.
مرّةً نهضَ والطاولة بين ذراعيه، والدم يتدفق من يده اليسرى، وحاول أن يركض بها عبر باب رقيق، لكنه سقط. توقّفت المرأة، مُسقطة السكّين، رافضة أن تفعل المزيد. انزلق دُرْج الطاولة الى الخارج وسقط على صدره بجميع محتوياته، وظنّ

أنه ربما يوجد مسدّس يستطيع أن يستخدمه، عندئذ التقط رانسيو توماسوني الموسى وجاءَ إليه. كارافاجيو، أهذا صحيح؟ كان ما زال غير متأكد.

حين استلقى تحت الطاولة تساقط على وجهه الدمُ الذي نزف من يديه، وفجأة فكّر بوضوح وانزلق من الصّفد المثبّت إلى رجل الطاولة قاذفا الكرسيّ بعيدًا كي ينسى الألم، ثم استلقى إلى اليسار ليخرُج من الصفد الآخر، الدمُ في كل مكان الآن، لا فائدة من يديه. فيما بعد وطوال أشهر وجد نفسه ينظر إلى إبهام البشر كأنّ الحادثة قد غيّرته لتجعله حَسودًا فقط. لكن الحدث أنتج كهولة. مثلما حدثَ تلك الليلة حين قيّدوه إلى الطاولة وسكبوا داخل جسده محلولا أبطأ حركته.

وقف دائخا فوق الكلب، فوق الطاولة المبلّلة بالنبيذ الأحمر. حارسان، المرأة، توماسوني، الهواتف ترن وتقاطع توماسوني الذي يضع الموسى ويهمس بسخرية: المعذرة، ملتقطًا السمّاعة بيده الملطخة بالدم، ويصغي. فكّر أنه لم يقل لهم شيئا ذا قيمة، لكنهم تركوه يذهب، وهكذا ربما كان مخطئا في أنّه لم يقل شيئًا مهمًّا. ثم قطعَ سَيرًا فيا دي سانتو سبيريتو[43]، إلى الموضع الجغرافي الذي خَبّأه في دماغه. سار عابرا كنيسة برونليسكي[44] نحو مكتبة المعهد الألماني حيث كان يعرف شخصا معينا سيعتني به. وفجأة أدرك أن هذا هو سبب إطلاق سراحه؛ تركه يذهب بحرية خادعة كي يكشف الشخص الذي سيذهب إليه. انعطف في شارع جانبي دون أن ينظر خلفه أبدا. أراد أن يعثر على نار مشتعلة في الشارع كي يقدر أن يوقف نزيف جراحه، ويضعها فوق دخان مِرْجَل قار، بحيث يغطي الدخان الأسود يديه. كان على جسر سانتا ترينيتا. لم يكن يوجد شيء حوله، ولا حتى سيارات، وهذا أدهشه. جلس على السّياج الناعم للجسر واستند إلى الخلف، لا أصوات. باكرًا، حين شرع في المسير، داسًّا يديه في جيبَيه المبلّلين، تناهت إليه حركة محمومة لدبّابات وسيارات جيب.

حين استند هناك انفجر الجسرُ الملغوم، فقذفه إلى الأعلى ثم سقط كجزءٍ من نهاية العالم. فتح عينيه، فرأى رأسًا مقطوعًا عملاقًا إلى جانبه. تنفّس فامتلأت رئتيه ماءً، إنّه تحت الماء إذن. الرأس ذو لحية، قربه في مياه آرنو الضحلة. وصل

إليه لكنه لم يستطع حتى أن يلكزه. كان الضوء ينسكب في النهر، سبح إلى السطح الذي كانت أقسام منه تشتعل.

حين روى لهانا القصة فيما بعد في ذلك المساء، قالت: «توقّفوا عن تعذيبك لأن الحلفاء كانوا قادمين، كان الألمان يخرجون من المدينة وينسفون الجسور لدى مغادرتهم».

«لا أعرف، ربما قلتُ لهم كل شيء. رأس من كان ذاك؟ جرَت في تلك الغرفة اتصالات هاتفيّة متواصلة. يسود الصّمت، يبتعد عني الرّجل فيما الجميع يراقبونه، وهو قابض على سماعة الهاتف مُصغيًا إلى صمت الصوت الآخر الذي لم نستطع سماعه. صوت من؟ رأس من؟»

«كانوا يغادرون، يا ديفد».

تفتح كتاب آخر سلالة الموهيكيّين، إلى الصفحة البيضاء في الخلف وتبدأ الكتابة عليها:

يوجد رجُل يدعى كارافاجيو، صديقٌ
لوالدي. أحببته دائما. هو أكبر منّي، في
حوالي الخامسة والأربعين على ما أعتقد.
إنه في زمن مظلم ولا يحمل ثقة في نفسه.
لسبب ما يحرصُ عليّ صديق أبي هذا.

تُغلق الكتاب ثم تسير هابطة إلى المكتبة وتخبئه في أحد الرفوف العالية.

الرّجل الإنجليزي كان نائمًا، ويتنفس من فمه كما يفعل دائما في اليقظة أو في النوم. نهضت عن كرسيها وانتزعت بلطف الشمعة التي كان يحملها بيديه. ذهبت إلى النافذة ونفختها لتخرج الدخان من الغرفة. كرهتْ استلقاءه هناك حاملا شمعة بيديه مُقلّدا وضعيّة الموت فيما الشّمع يتساقط، دون أن يلاحظه على رسغه، كأنه يجهّز نفسه، كأنه أراد أن ينزلق في موته الخاص مقلّدًا مناخ الموت وضوئه.

وقفت قرب النافذة وأمسكت بأصابعها شعر رأسها مسكة قوية وشدّته. في الظلام، في أيّ ضوء بعد الغسق، تستطيع أن تشقّ شريانا لها، وستكون الدماء سوداء.

احتاجت إلى الانتقال من الغرفة. فجأة شعرت برهاب الاحتجاز وأنها ليست مُتعبة. خطت عبر الصالة ونزلت الدرج وخرجت إلى دكّة الفيلا، ثم رفعت عينيها كأنها تحاول تمييز شكل الفتاة التي ابتعدت عنها. عادت الى البناء، دفعت الباب الصلب المنتفخ ودخلت المكتبة مدخلة الهواء الليلي. لم تعرف أين كارافاجيو. كان يخرج معظم الأمسيات ويعود عادة قبل ساعات قليلة من الفجر. على أيّ حال، لا إشارة تدل عليه.

أمسكت الملاءة الرماديّة التي تغطي البيانو، وشارت إلى رُكن الغرفة تجرّه خلفها، قماشا متموّجًا، شبكة أسماك.

ما من ضوء. سمعَتْ قصف رعد بعيد.

وقفت أمام البيانو. ودون أن تنظر إلى أسفل، أخفضت يديها وبدأت تعزف،

مُناغِمَةً الصّوت فقط، مُحيلة اللحن إلى هيكل عظميّ. كانت تتوقف بعد كل مجموعة من الألحان وكأنها تُخرج يديها من الماء كي ترى ما الذي أمسكَته، ثم تتابع واضعة العِظام الرئيسية للّحن. أبطأت حركات أصابعها أكثر. كانت تنظر إلى أسفل حين دخل رجلان عبر النوافذ الفرنسيّة ووضعا بندقيّتيهما على طرف البيانو، ووقفا أمامها. ما زال حينها صخب النغمات طائرًا في هواء الغرفة المتبدّل. ذراعاها إلى جانبيها، وقدم عارية على دواسة الصوت تُتَابع الأغنية التي علّمتها إيّاها أمها، تتمرّن عليها على أيّ سطح، على طاولة المطبخ، على صفحة الجدار جوارها فيما تصعد إلى الطابق الثاني، وعلى فراشها قبل النوم. لم يكن لديهم بيانو. اعتادَت أن تذهب إلى مركز الفعاليات الاجتماعيّة في صباحات السبت وتعزف هناك، لكنها اعتادتْ أن تتمرّن طوال الأسبوع أينما كانت، متعلّمة الألحان التي ترسمها لها أمّها بالطباشير على طاولة المطبخ، ثم تمسحها فيما بعد. هذه هي أوّل مرّة تعزف فيها على بيانو الفيلا، رغم أنها أمضت هنا ثلاثة أشهر، وقد التقطت عينها شكله في يومها الأوّل، عبر النوافذ الفرنسية. آلات البيانو في كندا تحتاج إلى ماء. ترفعين ظهر البيانو وتتركين كأسًا مليئة بالماء، وبعد شهر تجدينها فارغة. كان والدها قد أخبرها عن الأقزام الذين يشربون في آلات البيانو ولا يشربون أبدًا في الحانات. لم تصدق هذا وظنّتْ في البداية أنها الفئران على الأرجح.

ومض برق عبر الوادي، كانت العاصفة تهبُّ طوال الليل، وشاهدت أن أحدَ الرجلين سِيْخِيّ. توقّفت وابتسمت قليلًا في ذهول، مرتاحة على أيّ حال. كان عرض الضوء خلفهما قصيرا بحيث لمحت لحظة قصيرة جدا عمامته والبندقيتين المبلّلتين المتوهجتين. غطاء ظهر البيانو المرتفع قد أزيح، واستُخدم طاولة مشفى منذ عدة شهور بحيث أسندا بندقيتيهما على الطرف البعيد لحُفرة المفاتيح. يستطيع المريض الإنجليزي أن يحدّد نوع البندقيتين. إنه الجحيم، إنها محاطة برجال أجانب، لا يوجد حتى إيطالي واحد نقي. الفيلا قصة رومانسية. ماذا سيكون رأي بوليزيانو بخصوص هذا المشهد في عام 1945، مشهد رجلين وامرأة إزاء بيانو وقد انتهت الحرب توًّا تقريبًا، والبندقيتان في تألقهما المبلّل كلّما انزلق

البرق إلى الغرفة وأضاء كل شيء باللون والظلّ كما يفعل الآن، فيما يهدر صوت الرعد في الوادي كلّ نصف دقيقة، واللحن الموسيقى التجاوبي الذي تعزفه، وصوت اندفاع مفاتيح البيانو، حين أدعو سُكَّرَتي لتناول الشاي...

هل تعرفان الكلمات؟

لم تصدر عنهما حركة. رفعت أصابعها عن المفاتيح لحظة، ثمّ أطلقتها في لحن معقّد، تهوي فيما كانت تُحجم عنها، في الجاز الذي يكسر كستناء اللحن فاتحًا النغمات والرؤى المختلفة:

حين أدعو سُكَّرَتي لتناول الشاي

يغار الفتيان مِن هواي

لذا لا أرافقها إلى حيث تذهب العصابة

حين أدعو سُكَّرَتي لتناول الشاي

ثيابها مبلّلة، وهما يراقبانها كلّما دخل البرق إلى الغرفة بينهم، يداها تعزفان الآن إزاء البرق والرعد وداخلهما، ضدّهما، مالئة الظّلمة بين فترات الضوء. وجهها مركّز بحيث عرفا أنهما غير مرئيّين لها، ولدماغها الذي يُصارع ليتذكّر يد أمها تقصّ الجريدة وتبلّلها تحت حنفية المطبخ وتستخدمها لتمسح العلامات الموسيقية المرسومة ومربّعات المفاتيح عن الطاولة. بعد ذلك ذهبت إلى درسها الأسبوعي في المركز الاجتماعيّ حيث ستعزف، وقدماها لا يزالان غير قادرتين على الوصول إلى الدواسات حين تجلس، وهكذا كانت تُفضّل الوقوف وصندلها الصيفي على الدوّاسة اليُسرى وبندول الإيقاع يتكتك.

لم ترغب أن تُنهي ذلك، أن تتخلّى عن كلمات الأغنية القديمة هذه. شاهدت أن الأماكن التي ذهبَا إليها، حيث لم تذهب العصابة قط، مزدحمة بنبات الدريقة. رفعت عينيها وأومأت برأسها نحوهما، إشارة إلى أنها ستتوقّف الآن.

لم يشاهد كارافاجيو ما حدث كلّه. حين عاد، وجد هانا والجنديين من وحدة نزع الألغام في المطبخ يعدّون بعض لفائف الأكل.

III

نارٌ أحياناً

جرَت آخر حرب قروسطيّة في إيطاليا بين عامَي 1943 و1944. بُلدان محصّنة فوق قممٍ مهيبة دار القتال حولها منذ القرن الثامن، هاجمتها جيوشُ ملوكٍ جُدُد دون مبالاة. حول النتوءات الصخرية في الأراضي المنبسطة، تجد نقّالات مَرْضى وحقول أعناب مقطوعة، وإذا حفرت عميقًا تحت آثار عجلات الدبابات، ستعثر على فأس دمويّة، ورُمح. مونيرشي، كورتونا، آريينو، آريزو، سانسيبولكرو، أنغياري[45]، ومن ثم الساحل.

كانت القطط تنام في أبراج المدفعيّة وتنظر إلى الجنوب. تقَدّم الإنجليز والأميركيون والهنود والأستراليون والكنديون شمالا، وانفجرت القذائف المتبقية متلاشيةً في الهواء. حين اجتمعت الجيوش في سانسيبولكرو، وهي بلدة رمزها قوسُ الرّماية المُستعرَض، حصل على تلك الأقواس بعض الجنود ليلًا، وأطلقوا منها على المدينة في صمت من فوق أسوارها. فكّر الفريق أوّل كيسلرنغ من الجيش الألماني المنسحب أن يصبّ الزيت الحار من فتحات أسوار البلدة.

أُخرجَ الباحثون المختصّون في تاريخ القرون الوسطى من كليات أوكسفورد وأرْسلوا جوًّا إلى إقليم أومبريا. متوسّط أعمارهم ستّون عامًا. آووا مع الجنود، وفي الاجتماعات مع القيادة الاستراتيجية واصلوا نسيان أنّ البشر باتوا في زمن اختراع فيه الطائرة. تحدثوا عن البلدات الإيطالية من ناحية فنيّة بحتة. يوجد في بلدة مونتيرشي لوحة العذراء الحامل[46] لبييرو ديلا فرانتشيسكا[47]، في كنيسة صغيرة قرب مقبرة البلدة. حين استُرجعت أخيرا قلعة القرن الثالث عشر، أتت أمطار الربيع، وآوى الجنود تحت قُبّة مرتفعة لكنيسة وناموا قُرب منبر حجريّ

حيث هرقل يذبح هيدرا. كانت توجد مياه سيئة فقط. مات الكثيرون من التيفوئيد وأنواع أخرى من الحمّى. وحين كان الجنود ينظرون بمنظار الخدمة في الكنيسة القوطية في آريزو إلى أعلى، كانوا يكتشفون وجوههم المعاصرة في لوحات فرانتشيسكا الجدارية. ملكة سبأ تتحدث مع الملك سليمان. قربها غصن من شجرة معرفة الخير والشر، موضوع في فم آدم الميت. بعد سنوات ستدرك هذه الملكة أن الجسر فوق سلوان شرقَ القُدس مصنوع من خشب هذه الشجرة المقدّسة.

مكتبة

السماء ماطرة والهواء بارد دائما، ولم يكن من نظام سوى تسلسل خرائط الفن العظيمة، التي أظهرت العقاب والطاعة والتضحية. فوجئ الجيش الثامن بالأنهار، الواحد تلو الآخر، وجسورها المدمّرة. وحدات نزع الألغام نزلت إلى الضفاف بسلالم من حِبال، في مرمى نار مدفعية العدو، ثم سبحتْ أو عبرت في صعوبة إلى الضفّة الأخرى. الطعام ينفد، والخيام تختفي، والرجال الذين يُربَطون إلى العتاد يختفون. مرّة عبروا نهرًا وحاولوا الخروج من مياهه، فزرعوا أيديهم وأرساغهم في الجدار الطيني لوجه الجُرف وتعلّقوا هناك. أرادوا أن يجفّ الطين ويحملهم. وضع مهندس الألغام السّيخي الشاب وجنته على الطّين، وفكّر في وجه ملكة سبأ، في نسيج جلدها. لا شيء يبعث الراحة في ذلك النهر، لكنّ رغبته في الملكة أدفأته بطريقة ما. سينزع الحجاب عن شعرها، سيضع يده اليمنى بين عنقها وقميصها الزيتونيّ. هو أيضا متعب وحزين مثل الملك الحكيم والملكة المذنبة اللذين شاهدهما في آريزو منذ أسبوعين.

تعلّق فوق المياه ويداه مقيدتان في طيب الضفّة. شخصيّاتهم امّحت، هذا الفنّ الماكر، تلك الأيام والليالي، ولم توجد سوى في كتاب أو لوحات جدار. مَن هي الشخصيّة الأكثر حُزنًا في جداريّة القُبّة؟ استند إلى الأمام كي يرتاح على عُنقها الرّقيقة. عَشِق عينها المُسْبَلة. هذه المرأة التي ستعرف يوما ما قداسة الجسور. ليلا في المعسكر يمد ذراعيه في المسافة مثل جيشين. لم يكن يوجد وعد أو حلّ أو نصر إلا للعَقْد المؤقّت بينه وبين تلك الملكة المرسومة في الجدارية الجصية، التي

ستنساه ولن تعترف بوجوده أبدا أو تعي حضوره، سِيخيّ، على منتصف سُلّم لنزع الألغام تحت المطر، ينْصُب جسرًا للجيش المُنتظر خلفه. لكنه تذكّر لوحة قصّتهما. وبعد شهر، وصلت الكتائب إلى البحر بعد نجاتها من كل شيء، ودخلت بلدة كاتوليكا الساحلية، ومشّط المهندسون الشاطئ من الألغام على مدى عشرين ياردة بحيث يستطيع الرجال أن يدخلوا عُراةً في البحر. اقترب من أحد المختصّين في القرون الوسطى، الذي صادَقه – جاذبه الأحاديث مرّة ببساطة وقاسمه لحمًا معلّبًا – فوعده أن يريه شيئا ما مقابل لُطفه.

أخذ مهندس الألغام دراجة بخارية صغيرة من نوع ترايومف، وربط ضوء طوارئ قرمزيّ إلى ذراعه، ورجعا من الطريق التي قدما منها عبر البلدات البريئة الآن مثل آربينو، وأنغياري. على طول القمة الدائرية لجُرف الجبل الذي كان مثل عمود فقري عبر إيطاليا، انكمش العجوز خلفه، حتى نزلت الدرّاجة الطريق الغربيّة نحو بلدة آريزو. الميدان العام يخلو من الجنود ليلًا. أوقف مكتشف الألغام الدرّاجةَ أمام الكنيسة. ساعد المتخصّص في القرون الوسطي ليهبط من الدرّاجة، جمع معه أغراضه، ودخلا الكنيسة. ظُلمة شديدة البرودة. فراغ رَحْبٌ، وقَع حذاءه يملأ الأرجاء. شمّ مرّة أخرى الحجر القديم والخشب. أشعل ثلاث مقذوفاتٍ متوهّجة كي يُنير المكان. كان قد أدْلى سابقًا بَكْرةً وحبلًا من بين الأعمدة فوق صحن الكنيسة، فتقدّم منه وحرّر ثِقَل أسطوانة مُثَبّتة مربوطة إلى الحبل على لوح خشبي فارتفعت إلى السّقف. الأستاذ يراقبه محتارا، وبين فينة وأخرى يحدق عاليا إلى الظّلمة المرتفعة. دار مهندس الألغام الشاب حول الأستاذ وربط حبلًا حول خصره وكتفيه، وثبّت مقذوفة متوهّجة مشتعلة على صدر العجوز. تركه هناك في الأسفل، عند منضدة العشاء الرباني، وصعد درجًا في صخب إلى المستوى الأعلى، حيث كانت النهاية الأخرى للحبل، أمسك بها وقفز إلى أسفل، انتقل من الشرفة إلى الظلام، وفي الوقت نفسه جُذبَ العجوز ورُفِع بسرعة إلى أعلى حتى منتصف المسافة عموديًا، وعلى بُعد ثلاثة أقدام من الجدران الجصيّة أفقيًا، فيما المقذوفة المتوهّجة تصنع هالة حوله. حين لامست قدما مهندس

الألغام الأرض، سار إلى الأمام وهو ما زال ممسكًا الحبل، يُحرّك به الأستاذ في الأعلى في أيّ اتجاه أراد، وهكذا قذفه يُمنةً، ليرفرف أمام جداريّة «طيران الإمبراطور مكسينتيوس[48]».
أنزل الرجل بعد خمس دقائق، أشعل مقذوفة متوهّجو لنفسه ورفع جسده إلى القبّة، داخل الزُّرقة العميقة للسماء الاصطناعية. تذكّر نجومها الذهبية من الوقت الذي نظر فيه إليها بالمنظار. وحين نظر إلى أسفل شاهد عالِم القرون الوسطى يجلس على مقعدٍ مُنهكا. أصبح الآن مدركا عمق هذه الكنيسة، لا ارتفاعها، الإحساس السائلي بها، تجوّف وظلمة البئر. انتشر الضوء من يده كصولجان. رفع نفسه إلى وجهها، الى وجه ملكته، ملكة الحزن، ووصلت يده السمراء الصغيرة إلى العنق العملاقة.

ينصب السيخيُّ خيمة في طرف الحديقة، حيث اعتقدت هانا أن الخزامى نمَتْ مرّة. عثرت على وُريقات جافّة في تلك المنطقة لفّتها على أصابعها وحدّدت هويتها. بين فينة وأخرى، بعد المطر، كانت تتعرّف على عطرها.
في البداية لن يدخل إلى المنزل مُطلقًا. يتجاوزه في طريقه ذاهبًا لتأدية واجبه في نزع لُغم ما. إنه لطيف دائما. يُصدر إيماءة خفيفة من رأسه. تراه هنا يغْتَسل فوق حوض من ماء المطر المتجمّع فوق ساعة شمسيّة. جفّ صنبور الحديقة الذي استخدمته في أوقات سابقة من أجل أحواض البذار. ترى جسمه الأسمر بلا قميص حين يرش الماء على نفسه، مثل طائر يستخدم جناحه. تُلاحظ أثناء النهار تقريبا ذراعيه في القميص العسكريّ قصير الكُمّين والبندقيّة التي يحملها دائما، رغم أن المعارك تبدو الآن منتهية بالنسبة إليهم.
يأخذ وضعيات متعددة مع البندقية: يصبح هلاليّ الشكل حينًا معها، ومنحنيا حين تكون فوق كتفيه أحيانًا أخرى. يستدير فجأة، مدركا أنها تراقبه. بقي على قيد الحياة بسبب مخاوفه، يستدير حول أي شيء يُثير ريبته، متعرّفًا على نظْرتها في هذه البانوراما، كأنّه يقول إنّه قادر على التعامل معها كلها.

يريحها اكتفاؤه الذاتيّ، يريحهم جميعا في المنزل، رغم أن كارافاجيو يتذمّر من دندنة مهندس الألغام المتواصلة لأغنيات غربية حفظها خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة من الحرب. آووا المهندس الآخر الذي وصل معه أثناء العاصفة، يُدعى هاردي، في مكان آخر، قرب البلدة، رغم أنها شاهدتهما يعملان معا، يدخلان حديقة بأدواتهما الخاصة بإزالة الألغام.

يتعلق الكلب بكارافاجيو. يرفض الجندي الشاب الذي يركض ويقفز مع الكلب على طول الممر أن يقدّم له أي نوع من الطعام، شاعرا أنه يجب أن يعيش معتمدا على نفسه. يذهب لطفه بعيدا فقط.

ينام في بعض الليالي على المتراس الذي يطلُّ على الوادي ويزحف إلى غرفته إذا أمطرت.

هو، من ناحيته، يراقب تجوّل كارافاجيو، في الليل، يتعقب مهندس الألغام كارافاجيو في مناسبتين عن بُعد. لكن بعد يومين يوقفه كارافاجيو ويقول: «لا تتبعني ثانية». يبدأ في إنكار ذلك، لكن الرجل الأكبر يضع يده على وجهه الكاذب ويهدّئه. وهكذا يعرف الجنديّ أن كارافاجيو كان واعيا لوجوده منذ ليلتين. على أيّ حال، كان التعقّب بقيّة عادة تعلّمها أثناء الحرب، تماما كما يرغب أحيانا أن يسدّد بندقيته ويطلق النار ويصيب هدفا ما بدقة. مرّة بعد أخرى يُسدّد على أنف تمثال أو على أحد الصقور الرمادية التي تميل عبر سماء الوادي.

ما زال في ريعان صباه، يأكل الطعام كذئب ويقفز لينظّف صحنه، سامحا لنفسه بنصف ساعة للغذاء.

راقَبَتْهُ أثناء العمل، كان حريصا، لا يهمه مرور الزمن، كالقطّة، يعمل في البستان وداخل الحديقة المغطاة بالعشب خلف المنزل، تلاحظ الجلد الأسمر الأكثر قتامة لرسغه الذي ينحدر بحُريّة داخل السوار الذي يصلصل أحيانا حين يشرب كوب شاي أمامها.

لا يتحدث أبدا عن الخطر المرتبط بنوع بحثه. بين فينة وأخرى، يخرجها انفجارٌ هي وكارافاجيو من المنزل بسرعة، وقلبها متوتّر من الانفجار الخامد، تركض إلى

الخارج أو إلى نافذة مُشاهدةً كارافاجيو أيضا في زاوية رؤيتها، وسيشاهدان مهندس الألغام يلوّح بكَسَل نحو المنزل دون أن يستدير على المصطبة العشبية.

مرّة دخل كارافاجيو المكتبة وشاهدَ مهندس الألغام عاليًا قرب السقف، إزاء الإضاءة الوهميّة، فقط كارافاجيو سيدخل إلى غرفة وينظر إلى الزوايا المرتفعة كي يرى إن كان وحيدا، والجندي الشاب، عيناه لا تغادران تركيزهما، يرفع راحة كفه ويشير بأصابعه مُوقفًا دخول كارافاجيو، مُحذّرًا إياه أن يغادر الغرفة من أجل الأمان فيما يفكّ ويقطع سلك صمّام، تعقّبَه حتى تلك الزاوية، كان مخبأ فوق الستارة القصيرة أعلى النافذة.

دائما ما يدندن ويصفّر. «من الذي يصفر؟» سأل المريض الإنجليزي ليلةً ما، ولم يكن قد قابل أو حتى شاهدَ الوافد الجديد. دائما يغني لنفسه حين يستلقي على المتراس ناظرا إلى أعلى، إلى تنقّل الغيوم.

حين يدخل الفيلا التي تبدو فارغة، يُصدر ضجيجا. إنه الشخص الوحيد بينهم الذي بقي في لباسه العسكريّ، نظيفًا، وذا مشابك لامعة، يخرج مهندس الألغام من خيمته، عمامته ملفوفة بشكل متناسق. حذاءه نظيف، ويخبط على أرضيات المنزل الخشبية أو الحجريّة. يترك لسبب تافه مشكلة يعمل على حلها، وينفجر ضاحكا. يبدو أنه يحبّ دون وعي جسده وقوّته وهو ينحني ليلتقط قطعة من الخبز، يمشّط العشب بمفاصل قدميه، ويحرك البندقية دون وعي كأنها عصا ضخمة فيما يسير في الممرّ بين أشجار السّرو ليقابل مهندسي الألغام الآخرين في القرية.

يبدو أنّه راضٍ عن هذه المجموعة الصغيرة في الفيلا، كان مثل نجمٍ خارج مداره لكن على حافة نظامهم. ما يعيشه الآن هو أشبه بالعُطلة بالنسبة إليه بعد حرب الوحل والأنهار والجسور. يدخل إلى المنزل حين يُدعى فقط. إنه زائر مؤقت، كما فعل تلك الليلة الأولى حين تبع الصوت المترنح لبيانو هانا وصعد الممرّ المحاط بأشجار السّرو، ودخل المكتبة.

اقترب من الفيلا ليلة العاصفة تلك، ليس بسبب فضوله حيال الموسيقا، بل بسبب الخطر الذي يمكن أن يتعرّض له العازف، غالبا ما كان الجيش المتراجع يترك ألغامًا من أقلام رصاص داخل الأدوات الموسيقية. يفتح المالِكُون العائدون آلات البيانو فيفقدون أياديهم. قد يُديرُ الناسّ الرقّاص في ساعة جداريّة، لتنفجر قنبلة زجاجيّة، مدمّرةً نصف جدار وكل ما هو قربها.

تتبّع ضجّة البيانو مندفعًا فوق التل مع هاردي، تخطّى الجدار الحجري المهدّم، داخلًا الفيلا. طالما أن الموسيقا لم تنقطع، فذاك يعني أن العازف لن ينحني إلى الأمام ويسحب الرّباط المعدني الرّقيق ليشّل بندول الإيقاع. تُخبَّأ معظم الألغام القلميّة في هذا المكان الأسهل، لربط الطبقة الرقيقة للسِّلك عموديًا. تُربط القنابل بأيّ صُنبور، بظُهُور الكتب، توضع داخل فاكهة الأشجار بحيث إذا سقطت تفّاحة عن غصن منخفض تُفجّر الشجرة، تماما كما قد تفعل يدٌ أمسكت ذلك الغصن. لم يكن قادرا على النظر إلى غرفة أو حقل دون رؤية احتمال وجود السّلاح هناك.

توقف عند النوافذ الفرنسية، أسند رأسه إلى الإطار ثم انزلق إلى الغرفة، ولولا لحظات البرق لبقيَ في الظّلمة. فتاة رائعة، كأنها تنتظره، تنظر إلى أسفل نحو المفاتيح التي تعزف عليها، تفحّصت عيناهُ الغرفةَ قبل أن تتفحّصاها، مسحتها كرادار، كان بندول الإيقاع يتكتك، متأرجحًا ببراءة، جيئة وذهابا. لم يكن يوجد خطر أو سِلْك صغير. توقّف هناك في بزّته المبلّلة، والمرأة الشابة غير مدركة في البداية دخوله.

قرب خيمته كان الراديو البلّوري[49] معلّقًا على غُصن. تستطيع أن تشاهد الُخضرة الفسفوريّة إذا نظرت إلى هناك ليلا بمنظار كارافاجيو الميدانيّ، وجسد مهندس الألغام المتنقل يغطّيه فجأة إذا تحرّك عبر ممرّ الرؤية. يرتدي الأداة غريبة الشكل أثناء النهار، فقط سمّاعة واحدة مثبّته إلى رأسه، الأخرى متدلية تحت ذقنه، كي يستطيع أن يسمع أصواتَ بقيّة العالم، ما يهمّه منها على الأقل. يدخل

المنزل لينقل أيّ معلومات حصل عليها، يظن أنها تهمّهم أيضًا. عصْرَ يوم ما قال إن زعيم العصابة غِلن ميلر مات بعد أن تحطمت طائرته في مكان ما بين بريطانيا وفرنسا.

يتحرك بينهم. تشاهده في بُقعة ميتة من الحديقة مع أداة الاستكشاف، أو إذا كان قد عثر على شيء، يفكّ كتلة الأسلاك والصمّامات التي تركها له أحدٌ ما كرسالةٍ مريعة.

دائمًا يغسل يديه. اعتقدَ كارافاجيو في البداية أنه نيّق جدًّا. ضحك كارافاجيو: «كيف تدبّرتَ أمورك أثناء الحرب؟»

«لقد نشأت في الهند، يا عمّ. هناك تغسل يديك طول الوقت، قبل كل الوجبات، إنها عادة. وُلدتُ في بلاد البنجاب».

تقول: «أنا من أمريكا الشماليّة».

ينام نصف الوقت في الخيمة، ونصفًا خارجها، ترى يديه تُزيلان السماعة وتضعانها في حضنه.

ثم تضع هانا المنظار جانبًا وتستدير بعيدا.

كانا تحت القنطرة الضخمة. أشعل الرّقيب قذيفة متوهّجة، فيما استلقى مهندس الألغام على الأرض ناظرًا إلى أعلى خلال منظار البندقية، إلى الوجوه الشّاحبة بلون المُغرة[50]، كأنّه يبحث عن شقيق له في حَشْد. اهتّزت شُعيرات الصّلبان المتعامدة على الهيئات التوراتيّة في السّقف الحجريّ، الثياب الملوّنة والأجساد التي سوّدتْها مئات السنين من الزّيوت ودُخان الشموع. والآن دُخان البنزين الأصفر هذا، الذي أدْرَكا أنه فظيع في هذه الكنيسة، وسوف يُجْبَران مع الجنود الآخرين على الخروج، ويُذْكّرون جميعًا بإساءة استخدام التصريح الذي تلقّوه لرؤية قاعة القصر الرئيسيّة، التي وصلوا إليها بصعوبة عبر رؤوس الجسور الساحلية والمناوشات الألْف لحروب صغيرة، وقصف مونتي كازينو[51]، ثم السير بتهذيب وصمت عبر غرف رفاييل الأربعة[52] إلى أن وصلوا إلى هنا، أخيرًا. كانوا سبعة عشر رجلا نزلوا في صقليّة وقاتلوا فاتحين طريقهم عبر كامل البلاد للوصول إلى هنا، حيثُ وجدوا لهم قاعة مُظلمة تقريبا وحسب، كأنّ التواجد داخل المكان كان كافيًا.

قال أحدهم: «اللعنة، مزيدًا من الضوء أيها الرّقيب شاند؟». ترك الرقيب قبضة المقذوفة المتوهّجة ورفعها إلى أعلى بذراعه الممدودة، فتدفّق شلال ضوء من فوق يده. وقف طيلة فترة احتراقها بهذه الوضعية، فيما راح بقيّتهم ينظرون نحو الأعلى إلى الأشكال والوجوه المحتشدة في السقف الذي بزغ في الضوء. لكن مهندس الألغام الشاب كان على ظهره، البندقية مسدّدة وعينه تمشّط تقريبًا

لحيتَي نوح وإبراهيم وعددًا من العفاريت إلى أن وصل إلى الوجه العظيم الذي هدّأه، الوجه الذي بدا مثل رُمح، حكيم ولا يغفر.

كان الحرّاس يصرخون عند المدخل، وتمكّن من سماع الخطوات الراكضة، فقط ثلاثون ثانية أخرى بقيت للمقذوفة المتوهّجة. تدحرج وسلّم البندقية للقسّيس.

«هذا الشخص من هو؟ هذا الذي إلى يمينك، من هو؟ بسرعة، الضوء على وشك الانطفاء».

سحب القسّيس البندقية إلى الزاوية وانطفأت الخرطوشة، أعادَ البندقية إلى السّيخي الشاب.

«أنت تعرف أننا سنواجه جميعا مشكلة حقيقية بسبب استخدام الأسلحة في كنيسة سيستينا[53]. كان يجب ألّا أجيء إلى هنا. لكن يجب أن أشكر أيضا الرّقيب شاند. كان فعله لذلك بطوليًا. أعتقد أنه لم يحدث أي ضرر حقيقي».

«هل رأيته؟ الوجه. لمن هو؟»

«آه نعم، إنه وجه عظيم»

«شاهدته؟»

«نعم، إنه إشعيا».

حين وصل الجيش الثّامن البريطانيّ إلى بلدة غابيتشي على الشاطئ الشرقي، كان مهندس الألغام رئيسًا لدوريّة ليليّة. تلقى في الليلة التالية عبر الجهاز اللاقط إشارة بوجود تحرّكات معادية في الماء. أطلقت الدورية قذيفة تحذيرية قوية حدث على إثرها انفجار في المياه. لم تُحقّق أيّ إصابة، لكن في الانتشار الأبيض للانفجار شاهد خطًّا داكنا يتحرك. رفع البندقية وجعل الظل المتنقّل في منظاره دقيقة كاملة، مقرّرًا أن يُطلق النار ليتبيّن إن كانت ستصدر حركة أخرى قريبة. العدوّ ما زال مخيّمًا في الشمال، في مدينة ريميني. وعلى حافّة البلدة، كان الظل في مدى منظاره حين أشرقت الهالة فجأة حول رأس مريم العذراء وهي تخرج من البحر. رآها واقفةً في زورق، معها رجلان يجدّفان واثنان آخران يرفعانها إلى أعلى. وحالما

وصلوا إلى الشاطئ بدأ سكّان المدينة يصفّقون من النوافذ المُظلمة المفتوحة.
استطاع مهندس الألغام أن يشاهد الوجه ذا اللون القشْدِيّ، والهالة المنبعثة من أضواء صغيرة تعمل على البطاريات. كان يستلقي على الحصن الإسمنتي بين البلدة والبحر، ويراقبها بينما نزل الرجال الأربعة من القارب ورفعوا بأذرعهم التمثال الجصّي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام. ساروا على الشاطئ دون توقف أو خوف من الألغام. ربما راقبوها وهي تُدفن ورسموا خرائطها مع الألمان الذين كانوا هناك. غاصَت أقدامهم في الرمل. إنّها غابيتشي مير في 29 أيار 1944. الاحتفال البحريّ بمريم العذراء.
البالغون والأولاد كانوا في الشوارع. وظهر رجال بثياب الفرقة الموسيقية أيضا. لن تعزف الفرقة وتكسر قوانين حظْر التجوّل، لكن الآلات الموسيقية ما زالت جزءً من الحفل ويبدو عليها رونق النظافة.
انسحبَ من الظّلمة، ماسورة الهاون مثبّتة إلى ظهره ويحمل البندقية بيديه. صدمهم بأسلحته وعمامته. لم يتوقعوا ظهوره على أرض الشاطئ المهجورة. رفع بندقيته وشاهد وجهها بمنظار البندقية. كان وجهًا بلا عمر، بلا إيحاء جنسي، وأيدي الشباب الداكنة تصل إلى ضوئها، التمايل الفاتن لعشرين مصباح صغير. ترتدي القامة مئزرًا أزرق باهتا، وركبتها اليُسرى مرفوعة قليلا لتوحي بلباس من الجوخ.
لم يكونوا بشرًا رومانسيين. نجوا من الفاشيين والإنجليز والفرنسيين والقوطيين والألمان. امتُلِكوا غالبًا لكن هذ لا يعني شيئا. لكن هذا الشكل الجصي القشدي اللون والأزرق خرج من البحر ووُضع في شاحنة لنقل العنب مليئة بالأزهار، بينما تقدّمت الفرقة أمامه صامتة. إنّ الحماية التي كان يُفترض به توفيرها لهذه البلدة، بلا معنى. لم يستطع أن يمشي بين أولادهم الذين يرتدون ملابس بيضاء بأسلحته تلك.
ابتعد عنهم شارعا واحدا جنوبًا، وسار بسُرعة حركة التمثال بحيث وصلوا جميعًا إلى تقاطع الشوارع في الوقت نفسه. رفع بندقيته ليشاهد وجهها مرة

أخرى بمنظاره. انتهى كل شيء على رَغْنٍ[54] يُطلّ على البحر، حيث تركها الأطفال والناس عائدين إلى منازلهم. لم يكن أي منهم مُدركا لحضوره المستمرّ في المحيط. كان وجهها ما يزال مضاء. جلسَ الرجال الذين أحضروها بالقارب في مربع حولها مثل حُرّاس. بدأت البطارية المثبتة إلى ظهرها تنفد، وانطفأت الأضواء حوالي الرابعة والنصف صباحا. عندئذ نظر إلى ساعته. شاهد الرّجالَ بمنظار البندقية. اثنان منهم نائمين. رفع المنظار إلى وجهها ودرسه ثانية. بدت ملامحه مختلفة في الضوء الذي يذوي حوله. بدا الوَجْه في الظلام أشبه بوجه يعرفه. أخت، يوما ما ابنة. لو استطاع مهندس الألغام أن يشارك في الاحتفال، لأبقى من عنده شيئًا هناك مثل تحيّة، لكنّه يحمل إيمانه الخاص المختلف في النهاية.

يدخل كارافاجيو المكتبة، ويمضي معظم النهار فيها. وكما كان الأمر دائما، الكتب هي كائنات صوفيّة بالنسبة إليه. يمسك واحدا ويفتحه على صفحة العنوان. دخل الغرفة قبل خمس دقائق من سماعه أنّة خفيفة.

يستدير ويشاهد هانا نائمة على الأريكة، يُغلق الكتاب ويستند إلى طَنَفٍ تحت الرفوف. كانت نائمة على بطنها وخدها الأيسر على القماش المغبَرّ، فيما ذراعها اليمنى مرفوعة نحو وجهها، وقبضتها على فكها، وحاجباها يتحركان، ووجهها مستغرق في النوم.

حين شاهدها أوّل مرة بعد كل ذلك الوقت بدَت متوترة، مختَصَرة إلى جسم كافٍ فقط لجعلها تستمر عبر كل الأحداث بشكل فعّال. جسدها في حالة حرب، وكما في الحُبّ، استنفد جميع أعضائه.

عطس بصوت مرتفع. حين رفع عينيه أثناء انقذاف رأسه إلى أسفل في خضم العطسة، كانت مستيقظة وتحدّق إلى الأمام نحوه.

«خمّني كم الساعة الآن».

قالت: «حوالى الرابعة -آه- الخامسة. لا، الرابعة -آه- السابعة».

لعبة قديمة بين رجل وطفلة. خرج من الغرفة لينظر إلى الساعة، ومن حركته وثقته بنفسه استطاعت أن تخمّن أنه تناول المورفين مؤخّرًا، كان نشيطا ودقيقا ويمتلك ثقته المألوفة بنفسه، جلست وابتسمت حين عاد هو يهزّ رأسه متعجبا من دقّتها.

«وُلدتُ بساعة شمسيّة في رأسي، أليس هذا صحيحا؟»

«وليلا؟»

«هل يمتلكون ساعات قمرية؟ هل ابتكر أحدهم واحدة؟ ربما كل مهندس معماري يبني ڤيلا يخبئ ساعة قمرية للّصوص، مثل ضريبة عُشْر ضروريّة».

«شيء جيد مقلق للأغنياء».

«قابلني عند الساعة القمرية يا ديفد، مكان يستطيع فيه الضعيف أن يدخل إلى القوي».

«مثل المريض الإنجليزي ومثلك؟»

«كدتُ أحظى بطفلٍ منذ عام».

الآن بعد أن أصبح ذهنه خفيفا ودقيقا بفعل المخدر، تستطيع أن تلفّ وتدور، وسيكون معها ويفكّر إلى جانبها. وكونها منفتحة، لا تُدرك تماما أنها مستيقظة وتتبادل الحديث كأنها لا تزال تتحدث في الحلم، كأنّ عطسته كانت عطسة في الحلم. يألف كارافاجيو هذه الحالة. غالبًا ما قابل بشرًا في أوقات متأخرة من الليل. يزعجهم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كأن خزانة غرفة نوم سقطت وتحطمت عن طريق الخطأ. واكتشف أن صدمات كهذه جعلتهم بعيدين عن الخوف والعنف. وحين ينزعج من مالكي المنازل التي يسرقها، يشبك يديه ويتحدث باهتياج قاذفا ساعة مرتفعة الثمن في الجوّ، ثم يمسكها بيديه ويسألهم بسرعةٍ أسئلة عن مكان الأشياء.

«لقد فقدتُ الطفل. أعني كان عليّ أن أفقده. والده مات والحرب مستمرة».

«هل كنتِ في إيطاليا؟»

«كنت في صقليّة حين حدث ذلك. طوال سفرنا خلف القُوّات، عبر بحر البنادقة[55]، كنت أفكر في الأمر. تحدّثت باستمرار مع الطفل، عملت بدأب في المستشفيات وانسحبت من جميع الذين حولي، ما عدا الطفل الذي تقاسمت كل شيء معه، حتى في ذهني. كنت أتحدث معه وأنا أغسل المصابين وأعتني بهم. كنت مجنونة قليلا».

«ثم ماتَ والدك».

«نعم، ثم ماتَ باتريك. كنتُ في بيزا حين سمعت».

كانت مستيقظة. ووقفتْ.

«أكنت تعرف إذا؟»

«تلقيتُ رسالة من الوطن».

«ألهذا جئْتَ إلى هنا، لأنك تعرف؟»

«لا».

«حسنا. لا أعتقد أنه كان يؤمن بالعُطَل السنوية أو ما شابه. اعتاد باتريك أن يقول إنه يريد لحنًا ثنائيًا تعزفه امرأتان على أداتين موسيقيتين حين مات، أوكرديون وكمان، هذا كل شيء. كان عاطفيا بشكل ملعون».

«نعم، في وسعك أن تجعليه يفعل أي شيء. اعثري له على امرأة تمرُّ في محنة، وسيضيع».

هبّت رياح من الوادي إلى هضبتهم وتصارعت معها أشجار السّرو المزروعة على طول الدرجات الستّة والثلاثين خارجَ الكنيسة الصغيرة معها. لكزتهما قطرات مطر مبكّرة بصوت متكتك وهما جالسان على السّياج قرب الدرجات. الوقت تجاوز منتصف الليل. هي مُستلقيةً على الطنف الإسمنتي، فيما هو كان يمشي أو يُطلّ ناظرا إلى الوادي، سامعا صوت المطر المرتحل فقط.

«متى توقفت عن التحدث مع الطفل؟»

«انشغلنا كثيرا فجأة. كانت القوات تخوض المعارك في موروبريدج ثم في آربينو. ربما توقّفتُ عن ذلك في آربينو. تشعرُ أنه من الممكن أن تُقتل في أي وقت هناك، ليس إذا كنت جنديا فقط، بل قسّا أو ممرضة. كانت مثل وِجَار الأرانب، تلك الشوارع الضيّقة المائلة. يعودُ الجنود بقِطَع قليلة من أجسامهم، لكنني كنت أرى الطفل كلّما ماتوا. كونه ذهب بعيدا. سيجلس البعض وينزعون جميع ضماداتهم ليقدروا على التنفس بشكل أفضل. البعض يقلقون من خدوش

صغيرة، في أذرعتهم حين يموتون، ثم تسمع الحشرجة في الفم، تلك الطلقة الخفيفة. انحنيت إلى الأمام لأغلق عيني جندي ميت ففتحهما ونخر: تريدينني أن أموت بسرعة؟ أيتها العاهرة! جلس ورمى كلّ محتويات صينيتي على الأرض. كان غاضبا. مَن يريد أن يموت هكذا؟ أن تموت بهذا النوع من الغضب. أيتها العاهرة! بعد ذلك، كنت أنتظر دائما حشرجة أفواههم. أعرفُ الموت الآن يا ديفد. أعرف جميع الروائح، أعرف كيف أُبعدهم عن الألم. حين تُعطي جرعة مورفين قوية في الشريان، محلول مالح، أن تجعلهم يُفرغون أحشاءهم قبل أن يموتوا. يجب على جميع الجنرالات الملعونين أن يقوموا بعملي، جميع الجنرالات الملعونين، يجب أن يكون هذا متطلّبًا أساسيًّا لأيّ عبور نهر. مَن كنّا بحقّ الجحيم لنكلّف بهذه المسؤولية، كي يُتَوَقّع أننا حكماء كالقساوسة العجائز، ونعرف كيف نقود البشر نحو شيءٍ لم يُرِده أحد، ولنجعلهم نوعا ما يشعرون بالراحة. لم أستطع أن أؤمن أبدا بجميع تلك الخدمات التي قدموها للموتى، وبخطاباتهم السوقية. كيف يجرؤون؟ كيف يتجاسرون ويتحدثون هكذا عن كائنٍ بشريّ يموت؟»

لم يكن يوجد ضوء، جميع المصابيح مطفأة، والسماء محجوبة بالغيوم. كان من الآمن الآن شدّ الانتباه إلى حضارة المنازل الموجودة، اعتاد السير على أرضيات المنزل في الظلام.

«هل تعرفين لماذا لم يُريدك الجيش أن تمكثي هنا مع المريض الإنجليزي؟ هل تعرفين؟»

«زواج مزعج؟ عقدة والدي؟»

كانت تبتسم له.

«كيف حال العجوز؟»

«لم يهدأ بعد بسبب الكلب».

«أخبريه أنه جاء معي».

«ليس متأكدا في الحقيقة أنك ستمكث هنا أيضا، يعتقد أنك يمكن أن تذهب وتأخذ معك الآنية الخزفية».

«أتعتقدين أنه سيحب بعض النبيذ؟ لقد سرقت زجاجة اليوم».
«من أين؟»
«هل تريدينها أم لا؟»
«لنشربها الآن، دعنا منه».
«آه، التقدّم المفاجئ».
«ليس تقدما مفاجئا، أحتاج جدًّا إلى مشروب حقيقي».
«عشرون عاما! في الوقت الذي كنتُ فيه في العشرين...»
«نعم، نعم، لماذا لا تسرق فونوغرافا يوما ما. بالمناسبة أعتقد أن هذا يُدعى نَهْبًا».
«علمتني بلادي كلّ ذلك، هذا ما فعلته لهم أثناء الحرب».
دخل إلى المنزل عبر الكنيسة الصغيرة المقصوفة.
نهضتْ هانا، دائخة قليلا، فاقدة للتوازن. «وانظري ماذا فعلوا بِك»، قالت لنفسها.
نادرا ما تحدثت أثناء الحرب حتى مع أولئك الذين عملت معهم بشكل قريب. كانت بحاجة إلى عَمّ، إلى عُضو من الأسرة، احتاجت إلى والد الطفل، بينما كانت تنتظر في هذه البلدة التلّية لتسكر للمرة الأولى طيلة أعوام، بينما رجلٌ محروق في الطابق العلوي يغرق في ساعات نومه الأربع، وصديقٌ قديمٌ لوالدها ينقب الآن في صندوق دوائها كاسرا مقبضًا زجاجيًّا، شادًّا رباط الحذاء حول ذراعه، وحاقنًا نفسه بالمورفين بسرعة، في الوقت الذي يستغرقه ليستدير.

ليلا في الجبال حولهما، حتى في الساعة العاشرة، تُظلمُ الأرض. سماء رمادية صافية وتلالٌ خضراء.
«أمرضني الجوع، وأنّني مادّة للشّبَق. هكذا ابتعدت عن المواعيد ونزهات سيارات الجيب والمغازلة والرقصات الأخيرة قبل أن يموتوا. اعتبروني متكبرة. اشتغلت بجدّ أكثر من الآخرين، مناوبة مضاعفة، تحت النار. كنت أفعل أي شيء لهم، أُفرغ جميع نونيات الأسرّة، أصبحت متكبّرة لأنني لا أريد أن أخرج وأصرف

نقودهم. أردت أن أذهب إلى الوطن ولم يكن يوجد أحدٌ في الوطن. مرضتُ من أوروبا، سئمتُ من كوني أعامَل كالذّهب لأنني أنثى. أحببتُ رجلا واحدا فمات ومات الطفل. أعني لم يمت الطفل لكنني قضيت عليه. بعد ذلك تراجعت كثيرا ولم يستطع أحد أن يقترب مني، لا عن طريق حديث المتكبّرين أو موت أي شخص. عندئذ قابلته، الرجل المسودّ من الحروق... الذي تبيّن أنه قريب، رجل إنجليزي. مرّ وقتٌ طويلٌ يا ديفد قبل أن أفكّر بأي شيء أفعله مع رجل ما».

بعد أسبوع على تواجد مهندس الألغام السيخيّ حول الفيلا، تكيّفوا مع عادات أكله. أينما كان على التلّ أو في القرية سيعود حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف وينضم إلى هانا وكارافاجيو. يُخرج صُرّته: منديلٌ أزرق من حقيبته الكتفيّة، ويفرشها على الطاولة إلى جانب وجبتهما. يضع بَصَلهُ وأعشابَه. يظنّ كارافاجيو أنه يجلبها من حديقة الفرانسيسكانيين أثناء الوقت الذي يمضيه ممَشّطًا المكان بحثًا عن الألغام. يقشّر البصل بمُدْيَة، وهي نفسها التي يُزيل بها المطّاط عن سِلْك صَمّام قنبلة. يُتْبِع ذلك بالفاكهة. ظنّ كارافاجيو أنه أمضى الحرب كلها دون أن يأكل مع الجنود في خِيَم الطعام.

وفي الحقيقة كان دائما يقف في الصفّ مُطيعًا عند انبلاج الفجر، حاملًا كوبه من أجل الشاي الإنجليزي الذي أحبّه، مُضيفًا إليه تموينه الخاص من الحليب المكثّف. يشرب في بُطء واقفا في ضوء الشمس ليراقب حركة القوات البطيئة التي لو لم تكن في حالة انتقال اليوم إلى مكان آخر، لكان الجنود يلعبون الورق منذ التاسعة صباحا.

الآن، فجرا، تحت الأشجار ذات الندوب في الحدائق نصف المقصوفة لفيلا سان جيرولامو، يصبُّ جرعة ماء من مزادته، يصبّ بودرة الأسنان على فرشاته ويبدأ عملية تنظيف واهنة مُدّة عشر دقائق وهو يتجوّل ناظرا إلى الوادي الذي ما زال مدفونا في الضباب. ذهنه فضوليّ، وليس خائفًا من الفُسحة التي حدث أنه يعيش الآن فوقها. تنظيف الأسنان بالنسبة إليه منذ طفولته نشاط يجب أن يجري في الخارج.

إن المنظر حوله شيء مؤقت، لا استمرارية فيه. يُقرّ ببساطة باحتمال سقوط المطر، برائحة معينة من شُجيرة، كأنّ ذهنه، حتى حين لا يُستخدم، مثل رادار. عيناه تحدّدان الأشياء غير العاقلة حوله على مدى رُبع ميل، المدى القاتل للأسلحة الصغيرة. يدرس البصلتين اللتين اقتلعهما من الأرض بانتباه مُدركًا أن الجيوش المتراجعة لغَمَتْ الحدائق أيضا.

أثناء الغداء، هناك نظرة كارافاجيو العميقة إلى الأشياء الموضوعة على المنديل الأزرق. يظن كارافاجيو أنه يوجد على الأرجح حيوان نادر يأكل الطعام نفسه الذي يأكله هذا الجندي الشاب بيده اليمنى وتحمله أصابعه إلى فمه. يستخدم المُدية لتقشير البصل ولتقطيع الفاكهة فقط.

ينزل الرجلان إلى الوادي في عربة لإحضار كيس طحين. كان على الجنود أيضا أن يرسلوا خرائط الأماكن الممشّطة إلى مقرّ القيادة في سان دومينيكو. وحين وجدا صعوبة في توجيه الأسئلة إلى بعضهما، تحدثا عن هانا. كان يوجد كثير من الأسئلة قبل أن يقرّ العجوز أنّه يعرفها قبل الحرب.

«في كندا؟»

«نعم، عرفتها هناك».

يعبران عدة نيران مشتعلة على جانبي الطريق، ويحوّل كارافاجيو انتباه الجندي الشاب إليها. لقب مهندس الألغام هو كيب (Kip). «انهض كيب». «جاء كيب». ربط الاسم نفسه به بشكل يثير الفضول. وفي تقريره الأول عن تعطيل القنابل في إنجلترا، لطّخت الزبدة ورقته وقال الضابط: «ما هذا؟ دهن سلمون (Kipper grease)؟» وتعالى الضحك. لم يمتلك أيّ فكرة عمّا هو السلمون، لكن السيخي الشاب، بهذه الوسيلة، تُرجمَ إلى سمكة إنجليزية مالحة. ونسي خلال أسبوع اسمه الحقيقي الذي هو كيربال سِنغ. لم يزعجه ذلك. اعتاد اللورد سفولك وفريقه التّدميري أن ينادوه بلقبه، الأمر الذي فضّله على العادة الإنجليزية في مناداة الناس بكُنيتهم.

ذلك الصيف، وضع المريض الإنجليزي المُساعدَ السَمعيّ فأصبح مُطّلعا على كل شيء في المنزل. الصّدَفة الكهرمانيّة المعلقة داخل أذنه وترجَمَتها للضجّة العَرَضيّة: الكرسي في الصالة وهو يصرّ على الأرض، صوت براثن الكلب خارج غرفته حيث سيفتح المجلد ويسمع تنفّسه اللعين أو صيحة مهندس الألغام على الدكّة. أصبح المريض الإنجليزي خلال بضعة أيام من وصول الجندي الشاب مُدركًا حضوره حول المنزل، رغم أن هانا فصلت بينهما، ظانّة أنهما على الأرجح لن يحبا بعضهما. لكنها دخلت أحد الأيام إلى غرفة المريض الإنجليزي لتجد مهندس الألغام هناك. كان يقف عند قدم السرير واضعًا ذراعيه على بندقيّته التي تتدلّى على صدره، معلّقةً بين كتفَيه. كرهَت هذه الطريقة في حمل البندقية ودورانه الكسول نحوها، كأن جسده مِحْوَر عجلة، كأن قطعة السلاح خِيطت إلى كتفيه وذراعيه وإلى الرسغين الأسمرين الصغيرين. التفت إليها الإنجليزي وقال: «إن علاقتنا تتطوّر بشكل ممتاز».

لقد انزاحت بحيث استطاع مهندس الألغام الدخول مصادفة إلى هذا الملك، وبدا قادرًا على أن يحيط بها ويكون في كلّ مكان. بعد أن سمع كيب من كارافاجيو أن المريض يعرف عن البنادق، بدأ يناقش البحث عن القنابل مع الإنجليزي. جاء إلى الغرفة ووجد أنه خزّان معلومات عن أسلحة الحلفاء والأعداء. لم يعرف الإنجليزي عن الصمّامات الإيطالية السخيفة فحسب، بل عرف أيضا الطبوغرافيا التفصيلية لهذا الإقليم الإيطالي، توسكاني. وحالا شرعا في رسم مخطّطات القنابل والحديث عن نظرية كلّ بقعة محدّدة.

«يبدو أن الصمامات الإيطالية توضع عاموديا، وليس دائما من الذّيل».

«حسنا. كما يقتضي الأمر. توضع بهذه الطريقة تلك التي صُنعت في نابولي، لكن المصانع في روما تتبع النظام الألماني. طبعا، نابولي، تعود الى القرن الخامس عشر..."

كان هذا يعني أن عليه الإصغاء للمريض وهو يتحدث بطريقته غير المباشرة، ولم يكن الجندي الشاب معتادا على البقاء هادئا وصامتا. سيصبح قلقا ويواصل مقاطعة الوقفات والصمت الذي يمنحه الإنجليزي لنفسه دائما محاولا أن

يشحن قطار أفكاره بالطاقة. رفع الجندي رأسه للأعلى ونظر إلى السقف. وقال وهو يستدير نحو هانا حين دخلت: «ما يجب أن نصنعه هو شبكة من الحبال ونحمله حول المنزل». نظرتُ إلى كليهما، هزّت كتفيها بلا مبالاة وخرجت من الغرفة.

حين عبرها كارافاجيو في الصالة كانت تبتسم. وقفا في الصالة وأصغيا إلى المحادثة التي تدور داخل الغرفة.

هل أخبرتك بمفهومي عن الإنسان الفرجيلي يا كيب؟ دعني...

هل شغّلت مساعدك السمعي؟

ماذا؟

شغّله

قالت لكارافاجيو: «أظن أنه عثر على صديق».

تسير خارجة إلى ضوء الشمس، إلى الفناء. ظُهرًا تصبّ الصنابير الماءَ في حوض الفيلا وتتدفق مدّة عشرين دقيقة. تنزع حذاءها، تتسلق الحوض الجافّ وتنتظر. في هذه الساعة تفوح رائحة الأعشاب الجافة في كل مكان ويطير الذباب مصطدما بالبشر كأنه يخبط جدارا، ثم ينسحب بلا اهتمام. تشاهد أن العناكب المائية عَشّشتْ تحت التجويف العلوي للحوض الذي كان وجهها في ظِلال جزئه النّازِل. تحبّ أن تجلس في هذا المهد الحجري حيث تبزغ رائحة الهواء البارد المختبئ في الظلمة من الأنابيب التي ما تزال فارغة قربها، كهواء يهبّ من قَبو يُفتح لأول مرة في أواخر الربيع، بحيث تبقى درجة حرارة الخارج مغايرة. تنفض الغبار عن ذراعيها وأصابع قدميها مُتحرّرةً من تجعّد الحذاء، ثمّ تتمدّد.

كثير من الرجال في المنزل، يتكئ فمها على صفحة كتفها العاري، تشمّ جلدها وأُلفَته، المذاق الخاص للإنسان ونكهته. تتذكر حين وَعَت حضوره أوّل مرّة، في مكانٍ ما أثناء مراهقتها، بدا مكانا أكثر ممّا هو زمان، حين قبّلت ساعدها لتتدرب على التقبيل وشمّت رسغها، أو انحنت إلى فخذها، وتنفخ في يديها ليرتدّ النفس إلى

أنفها. تحكّ قدميها البيضاوين العاريين باللون الرمادي للحوض، أخبرها مهندس الألغام عن التماثيل التي عثر عليها أثناء القتال وكيف نام إلى جانب واحد كان ملاكا حزينا، نصف ذكر ونصف أنثى، ووجده جميلا. يستند إلى الخلف ناظرا إلى الجسد، ولأوّل مرّة أثناء الحرب شعر بالأمان.

تشم الحجر، رائحة العثّة الباردة التي تفوح منه.

هل صارع والدها في موته أم مات في هدوء؟ هل استلقى في الوضعية التي يستلقي فيها المريض الإنجليزي بجلالٍ في سريره؟ هل اعتنت به غريبة؟ إن إنسانا ليس من دمك يمكن أن يتعاطف معك أكثر من شخص من دمك. وكأنك تسقط بين يدي غريب وتكتشف مرآة اختيارك. على عكس مهندس الألغام، لم يكن والدها مرتاحا في العالم. راحت أحاديثه تفقدُ بعض مقاطعها بسبب الخجل. شَكَتْ والدتها من ذلك قائلةً إنّ عبارات باتريك تفقدُ كلمتين حاسمتين للفهم أو ثلاث. لكن هانا أحبّت هذا فيه، بدا أنه لا يحمل روحًا عدائيّة، بل غموضًا وشكًّا منحاه بهجة مؤقتة. مختلف عن معظم الرجال، حتى المريض الإنجليزي يحمل داخله الهدف المألوف للشخص العدوانيّ. لكن والدها كان شبحا جائعا يحبّ أن يثق الذين حوله في أنفسهم، وربما خشنين أيضًا.

هل اندفع إلى موته بالحسّ العَرَضي لكونه موجودا هناك في حادث؟ أو غاضبا؟ كان الرجل الأقل غضبا بين الرجال الذين عرفتهم ويكره الجدل ويخرج من الغرفة فقط إذا تكلم أحدهم بشكل سيء عن روزفلت أو تيم باك[56]، أو مدحَ رؤساء بلديّات معيّنين في تورنتو. لم يحاول قط أن يغيّر أي شخص طوال حياته، بل يُصلح فقط أو يحتفل بالأحداث التي تدور حوله، ذاك كل شيء. الرّواية هي مرآةٌ تسيرُ في شارع، قرأت ذلك في كتاب ما زكّاه لها المريض الإنجليزي، وكانت هذه هي الطريقة التي تذكّرت بها والده، كلما عبر ذهنها، كان يوقف سيارته تحت جِسْرٍ في تورنتو إلى الشمال من شارع بوتيري، منتصفَ الليل، ويقول لها إنه هنا تقتسم الزرازير والحمامات غير مرتاحة، وغير سعيدة، العوارضَ الخشبية أثناء الليل. وهكذا توقّفا هناك ليلة صيفيّة ومدّا رأسيهما إلى حلبة الضجيج والسقسقة

النائمة. قال كارافاجيو: «قيل لي إن باتريك ماتَ في بُرج حَمام».

أحبّ والدها مدينة من ابتكاره الخاص، رسم شوارعها وأسوارها وحدودها هو وأصدقاؤه. وفي الحقيقة لم يخطُ أبدا خارج ذلك العالم. تُدرك أن كل شيء كانت تعرفه عن العالم الحقيقي تعلّمته بطريقتها الخاصّة، أو من خلال كارافاجيو، أو زوجة والدها كلارا، التي كانت يومًا ما مُمَثّلة، التي غضبت حين غادروا جميعا إلى الحرب. حملت طوال العام الأخير في إيطاليا رسائل كلارا، رسائل عرفتْ أنها كُتبتْ فوق صخرة ورديّة في إحدى جُزُر خليج جورجيان. كتبتْ والريح تهبّ على الماء وتلوي ورقة دفترها قبل أن تمزق الصفحات أخيرا وتضعها في ظرفٍ لترسلها إلى هانا. لطالما حملتها في حقيبتها وكل منها تحتوي على قشرة من الصخرة الورديّة ومن تلك الريح، لكنها لم تجاوبها قط. افتقدت كلارا بألم، لكنها غير قادرة أن تكتب لها الآن بعد ما حدث كل ما حدث لها، لا تستطيع أن تتحمل أن تتحدث أو حتى أن تقرّ بموت باتريك.

والآن، في هذه القارّة، بعد أن ارتحلت الحرب إلى مكان آخر، أصبحت الأديرة والكنائس التي حُوّلت لفترة قصيرة إلى مستشفيات معزولة ومفصولة في تلال توسكاني وكامبريا، تحمل بقايا مجتمعات الحرب، ركامًا صغيرا تركه نهر جليديّ كبير. وكل ما يوجد حولها الآن هو الغابة المقدّسة.

تثني قدميها تحت عباءتها الرقيقة وتريح ذراعيها على فخذيها. كلُّ شيء هادئ. تسمع الاهتياج المجوّف المألوف، قلقًا في الأنبوب المدفون في العمود المركزي للحوض. ثم يخيّم الصّمت. وفجأة ينبعث صوت تحطّم حين يصل الماء متفجّرا حولها.

القصص التي قرأتها هانا للمريض الإنجليزي مسافرة مع العجوز الجوّال في كيم[57]، أو مع فابريس، بطل رواية دَيْر بارما[58]، التي أسكرتهما في دوّامة من الجيوش والأحصنة، تلك التي تركض بعيدا عن الحرب أو إليها. هناك كتبٌ أخرى مكوّمة في إحدى زوايا غرفة نومه، قرأتها له، وكان قد سارَ سابقا في أراضيها.
تُفتتح كتب كثيرة بتأكيد مؤلفها على النظام. ينزل المرء إلى مياهها بمجداف صامت.

سأبدأ عملي هذا منذ الوقت الذي كان فيه سيرفيوس غالبا قنصلًا... لقد زُوِّرَت الكتابات التاريخية حول تيبريوس، وكاليغولا، وكلوديوس ونيرون، أثناء امتلاكهم القوّة. لقد حُرِّفَت بالإرهاب والخوف منهم. لكن بعد موتهم، أعيد كتابتها، لكن بحِقد طازج.

هكذا بدأ تاسيتس حوليّاته[59].
لكن الروايات تبدأ بالتردّد أو الفوضى. ولم يكن القُرّاء أبدًا متوازنين إزاءها بشكلٍ كامل. ينفتح باب قُفل سياج، فيندفعون حاملين سمكة بيدٍ وفي الأخرى قبعة.
حين تبدأ هي بقراءة كتاب، تدخل عبر مداخل مواربة تنفتح على ساحاتٍ كبيرة، بارما وباريس والهند تفرش لها سجّادها.

جلس دون اهتمام للاعتبارات المحليّة والتقاليد، منفرجَ الساقين،

واضعًا مدفع الزمزمة[60] على المنصّة الآجريّة مقابل بيت العجائب، كما يسمّي المحليّون متحف لاهور. مَن يقبض على الزمزمة، ذلك التنّين الذي ينفث النار، يقبض على بلاد البنجاب، لأن القطعة البرونزية الخضراء الكبيرة هي دائمًا أوّل غنائم الفاتح.

«اقرئيه في بُطء، يا فتاتي العزيزة، يجب أن تقرئي كبلينغ في بُطء. راقبي بانتباه أين تقع الفواصل، وهكذا يمكنك اكتشاف الوقفات الطبيعية. إنه كاتب استخدم القلم والحبر. كان يرفع بصره عن الصفحة كثيرا، كما أظنّ، ويحدّق عبر نافذته ويصغي إلى لطيور، كما يفعل معظم الكتّاب الوحيدين. لا يعرف البعض أسماء الطيور، لكنه كان يعرفها. عيناك سريعتان جدا وأمريكيّتان شماليّتان جدًّا. فكّري بسرعة قلمه. كم كانت تلك فَقْرَة افتتاحيّة قديمة، دبقة، ومروّعة».
ذاك هو درس المريض الإنجليزي الأول عن القراءة، لم يقاطعها مرة ثانية. إذا حدثَ ونام ستتابع ولن ترفع بصرها أبدًا إلى أن تشعر هي نفسها بالإعياء. إذا فقد نصف الساعة الأخيرة من الحبكة، سيكون هناك موضع واحد غامض في القصّة فقط، ومن المرجّح أنه يعرفه مسبقًا. يعرف خريطة القصّة. تقع فاراناسي[61] إلى الشرق من جيلياوالا شمال البنجاب. (حدث كل هذا قبل أن يدخل مهندس الألغام إلى حياتهما وكأنه خرج من هذه الروايات، كأن صفحات كبلينغ حُكّتْ في الليل كمصباح سحري. أفيون العجائب).
استدارت عن نهاية رواية كيم، بكُلّ عباراتها الرّشيقة المقدّسة، وبيانها الناصع، والتقطت دفتر المريض، الكتاب الذي حمله خارج النار. انفتح الكتاب الذي ازدادت سماكته.
ثمّة ورقة رقيقة من الكتاب المقدس، منتزعة وملصقة على النص.

وَشَاخَ الْمَلِكُ دَاوُدُ. تَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَكَانُوا يُدَثِّرُونَهُ بِالثِّيَابِ فَلَمْ يَدْفَأْ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: «لِيُفَتِّشُوا لِسَيِّدِنَا الْمَلِكِ عَلَى فَتَاةٍ عَذْرَاءَ، فَلْتَقِفْ

أَمَـامَ الْمَلِـكِ وَلْتَكُـنْ لَـهُ حَاضِنَـةً وَلْتَضْطَجِـعْ فِي حِضْنِـكَ فَيَدْفَـأَ سَـيِّدُنَا الْمَلِـكُ». فَفَتَّشُـوا عَـلَى فَتَـاةٍ جَمِيلَـةٍ فِي جَمِيـعِ تُخُـومِ إِسْرَائِيـلَ، فَوَجَـدُوا أَبِيشَـجَ الشُّـونَمِيَّةَ، فَجَـاءُوا بِهَـا إِلَى الْمَلِـكِ. وَكَانَـتِ الْفَتَـاةُ جَمِيلَـةً جِـدًّا، فَكَانَـتْ حَاضِنَـةَ الْمَلِـكِ. وَكَانَـتْ تَخْدِمُـهُ، وَلكِـنَّ الْمَلِـكَ لَـمْ يَعْرِفْـهَا[62].

إن القبيلة التي أنقذت الطيار المحترق أحضرته إلى القاعدة البريطانية في سيوة عام 1944، ونُقل في قطار إسعاف منتصفَ الليل من الصحراء الغربية إلى تونس، ثم إلى إيطاليا. في ذلك الوقت من الحرب كان هناك مئات الجنود الذين ضيّعوا أنفسهم والذين هم أكثر براءة من كونهم مخادعين. أولئك الذين ادّعوا أنهم غير متيقّنين من جنسيّاتهم، أُسكنوا في مجمّعات في بلدة تيرينا، حيث المشفى البحري. بدا الطيار المحترق لهم لُغزًا إضافيًا، دون هويّة ولا يمكن التعرف عليه، وفي سجن في الجوار احتجزوا الشاعر الأمريكي عزرا باوند في قفص، يخبّئ وردة أوكالبتوس كان قد أحناها واقتلعها من حديقة الذي وشى به وخانه حين اعتُقِل، يضعها حينًا في أحد جيوبه وحينًا لصقَ جسده في مكان ما، كانت تلك صورته عن الأمان. وردة أوكالبتوس من أجل الذكريات.

قال الطيّار المحروق للّذين يحققون معه: «من الواضح أنكم تحاولون خداعي لكي أتحدّث معكم بالألمانية، التي أستطيع أن أتحدثها بالطّبع. لكن لمَ لا تسألوني عن أمور أخرى، دون برادمان[63] مثلًا. اسألوني عن المارميات[64]، أو غيرترود جيكل العظيمة[65]». كان يعرف أين تقع أعمال جوتّو[66] في أوروبا كلّها، ومعظم الأمكنة حيث يستطيع المرء أن يجد لوحات ترمبوليّة[67].

بُنيَ المشفى البحري من مقصورات سباحة على طول الشاطئ استأجرها السواح عند منعطف القرن، حين كانت تشتد الحرارة كانت مظلات الكامبري القديمة تُنصب فوق الطاولات، وكان المضمدون والجرحى وفاقدو الوعي يجلسون تحتها في الهواء البحري ويتحدثون في هدوء أو يحدقون، أو يتحدثون طوال الوقت. لاحظ الرجل المحروق وجود الممرضة الشابة وانفصالها عن الآخرين. يعرف النظرات

الميتة كهذه، يعرف أنها مريضة أكثر مما هي ممرّضة. كان يتحدث معها فقط حين يحتاجها لشيء.

استُجوب مرة ثانية. كل شيء فيه إنجليزيٌّ جدّا ما عدا حقيقة أن جلده مقيّر بالأسود، بدا بُعْبُعًا من التاريخ بين الضباط المستجْوَبين.

سألوه أين توقف الحلفاء في إيطاليا، وقال إنه يظن أنهم احتلوا فلورنسا ولا يستطيعون أن يعبروا قواعد مثل براتووفيسول مثلا لأن الألمان تحصّنوا في الڤيلات والأديرة بشكل جيد. إنها قصة قديمة. ارتكب الصليبيون الخطأ نفسه ضد العرب المسلمين. وتحتاجون مثلهم إلى بلدات محصّنة، لم تُهجَر قط إلا أثناء تفشّي الكوليرا.

تحدث بشكل مفكك جعلهم يفقدون صوابهم دون أن يعرفوا إن كان خائنا أم حليفا، وتركهم غير متأكدين تماما من هويته.

الآن، بعد أشهر، في ڤيلا سان جيرولامو، في البلدة التلّية إلى الشمال من فلورنسا، يأخذ وضعية تمثال الفارس الميت في راڤينا[68]. يتحدث بشكل مفكك عن الواحات، عن آخر سلالة آل ميديتشي، عن الأسلوب النثري لكبلينغ، عن المرأة التي عضّت لحمه. وفي كتابه المعروف، طبعة 1890، من كتاب التواريخ لهيرودتس، قصاصات أخرى: خرائط ومداخل ومذكرات وكتابات بلغاتٍ كثيرة، فقرات مقتطعة من كتب أخرى، كان كل ما هو مفقود هو اسمه، لا يوجد مفتاح لمعرفة من هو فعلًا، بقي دون اسم، دون رتبة أو انتماء لكتيبة أو سرب طائرات، جميع المراجع في كتابه تعود إلى فترة ما قبل الحرب، صحاري مصر وليبيا في الثلاثينيات، موشاة بإشارات حول فن الكهوف أو فنّ القاعات أو ملاحظات صحفيّة بخط يده. يقول المريض الإنجليزي لهانا وهي تنحني فوقه: «لا نساء سمراوات بين السيدات الفلورنسيات».

الكتابُ بين يديه. تحمله بعيدا عن جسمه النائم وتضعه على الطاولة الجانبية. تتركه مفتوحا. وتقف هناك ناظرة إلى الأسفل وتقرأ. تَعِدُ نفسها أنها لن تقلب الصفحة.

أيار 1936

سـأقرأ لـك قصيـدة، قالـت لي زوجـة كليفتـون بصوتهـا الرسـميّ، الـذي تسـتخدمه دائمـا إلا إذا كنـتُ قريبـا منهـا جـدًّا. كنّـا جميعًـا في مركـز المخيّـم الجنـوبي جالسـين حـول النـار.

مشيت في صحراء

وصُحت:

آه! إلهي خذني من هذا المكان!

فأجاب صوت: إنها ليست صحراء.

صُحت:

حسنا، لكن-

الرمل، الحرارة، الأفق الفارغ

أجاب صوت: إنها ليست صحراء.

لم يتفوه أحدٌ بأي شيء.

قالـت «إنّ هـذا مقطـع مـن قصيـدة لسـتيفن كريـن[69]، لم يـأت قـط إلى أيّ صحـراء»

فقال مادوكس: لقد جاء إلى الصّحراء.

تموز 1936

تحـدث خيانـات في الحـرب تُعتـبر طفوليـة إذا مـا قورنـت بخيانـات البـشر أثنـاء السـلم. العاشـق الجديـد يدخـل عـادات الآخـر. الأشـياء تُحطّـم. تُكشـف بضـوءٍ جديـد، أكتـب هـذا بعبـارات عصبيّـة أو رقيقـة، رغـم أن القلـب عضـو مـن النـار.

إن قصـة الحـب ليسـت عـن أولئـك الذيـن تتحطـم قلوبهـم بـل عـن أولئـك الذيـن يجـدون ذلـك المقيـم الكئيـب، الـذي، حـين يُعـثر عليـه، يعنـي أن

الجسد لا يستطيع أن يخدع أحدا، لا يستطيع أن يخدع شيئا، لا حكمة النوم أو عادة الكياسات الاجتماعية. هذا استهلاك للذات وللماضي.

الغرفة الخضراء مظلمة تقريبا. تستدير هنا وتدرك أن عنقها متصلب من الوقوف. لقد ركزتْ وانغمست في الكتابة الملتوية في كتابه السميك الأشبه بالبحر المليء خرائطًا ونصوصًا، حتى ورقة سرخس ملصقة فيه، كتاب التواريخ. لا تغلق الكتاب، لم تلمسه منذ أن وضعته على الطاولة الجانبية. تسير بعيدا عنه.

كان كيب في حقل شمال الفيلا حين عثر على اللغم. أوشكت قدمه أن تدوس على السّلك الأخضر حين عبر البستان، وحين انحرف فقد توازنه وسقط على ركبتيه. رفع السلك إلى أن أصبح مشدودا ثم تبعه في خط متعرّج بين الأشجار. جلس عند المصدر والحقيبة القماشية في حضنه. صدَمه اللغم، لقد غطّوه بالإسمنت. وضعوا المادة المتفجرة هناك وغطوها بإسمنت مجبولٍ لتمويه آليتها ومقدار قوتها. كانت شجرة جرداء على بعد أربع ياردات. ونما فوق الكرة الإسمنتية عشب عمره شهران.

فتح حقيبته وقطع الأعشاب بالمقص. ربط شبكة صغيرة من الحبال حولها، وبعد أن ثبّت حبلا وبكرة إلى غصن الشجرة، رفع الإسمنت ببطء في الجو. سلكان من الإسمنت يدخلان في الأرض. جلس واستند إلى الشجرة ونظر إلى اللغم. لا تهم السرعة الآن. أخرَجَ الراديو البلّوري من الحقيبة ووضع السماعات على أذنيه. حالا بدأ الراديو بغمره بالموسيقا الأمريكية من محطة إي آي إف. تستمرّ كل أغنية أو رقصة دقيقتان ونصف. يستطيع أن يشق طريقه إلى الخلف وهو يصغي إلى خيط اللآلئ[70] وأغاني البلوز المرتجلة[71]، وألحان أخرى ليكتشف كم أمضى من الوقت هناك، يتلقى الموسيقا الخلفيّة بشكل لا واعٍ.

لا يكترث بالضجيج. لن تكون هناك تكتكات ضعيفة أوطقطقات لتشير إلى

الخطر في هذا النوع من القنابل. ساعدته الموسيقا على التركيز على الأشكال المحتملة لتركيب هذا اللغم، على الشخص الذي وضع مدينة الخيوط ثم صبّ إسمنتا مجبولا فوقها.
كان الشد المحكم للكرة الإسمنتية والمربوطة بحبلٍ ثان في الجوّ، يعني أن السلكين لن ينسحبا مهما هاجم بقوة. وقف وبدأ يحفر حول اللغم بلطفٍ نافخا الحبيبات الترابية المنفلتة بفمه، مستخدما العصا الريشية، كانسا مزيدًا من الإسمنت. أوقف تركيزه فقط حين انزاحت الموسيقا عن الطول الموجي وكان عليه أن يجدَ المحطة ليوضح الألحان، وحرّر ببطء شديدٍ سلسلة الأسلاك. ستة أسلاك مختلطة بغير نظام مربوطة بعضها ببعض ومدهونة كلها باللون الأسود. نفض الغبار عن لوحة الخريطة التي تتوضّع عليها الأسلاك. ستة أسلاك سوداء. حين كان طفلا ضم والده أصابعه وخبأها عدا رؤوسها وجعله يخمّن أيّ إصبع هو الأطول. إصبعه الصغيرة ستلمس اختياره وستنفتح يد والده لتكشف خطأ الصبي. يستطيع المرء بالطبع أن يجعل سلكا أحمرَ سالبًا، لكن هذا الخصم لم يغط اللغم بالإسمنت فحسب، بل دهن جميع الصفات بالأسود. دخل كيب دوّامة نفسية. بدأ يزيل الطلاء بالمدية كاشفا لونًا أحمر وأزرقَ وأخضر. هل سيكون خصمه قد بدلها أيضا؟ عليه أن يرتّب انعطافاتها بسلك أسود من عنده، كمنعطف نَهْر على شكل سِنَاد النّيْر، ثم يختبر الدورة من أجل الطاقة السالبة والموجبة، ثم سيفحصها من أجل الطاقة المتلاشية ويعرف أين يكمن الخطر.

هانا تحمل مرآة طويلة أمامها عبر الصالة. تتوقّف بسبب وزنها ثم تتحرك إلى الأمام، المرآة تعكس لون الممَرّ القرمزي المعتم.
أراد المريض الإنجليزي أن يشاهد نفسه. قبل أن تخطو إلى الغرفة أدارت بحرص الانعكاس على نفسها، غير راغبة أن يقفز الضوء بشكل غير مباشر من النافذة إلى وجهه.
يستلقي هناك في جلده الأسود، البياض الوحيد هو في المُسَاعد السمعي الذي في

أذنه، وتوهّج الضوء الظاهر على مخدته. أزاح الملاءات بيديه. هانا، افعلي هذا، ودفع قدْرَ استطاعته، ودفعت هانا الملاءة إلى قاعدة السرير.

وقفت فوق كرسيّ عند قدم السرير وببطء أدارت المرآة إلى الأسفل نحوه. كانت في هذه الوضعية، يداها متوترتان أمامها حين سمعت الصيحات الضعيفة، تجاهلتها في البداية، كان المنزل غالبا ما يلتقط ضجيجا من الوادي. الجنود الذين يُخلون أماكنهم يستخدمون أبواقًا تُثير أعصابها حين كانتْ تعيش وحيدة مع المريض الإنجليزي.

قال: «ثبّتي المرآة يا عزيزتي».

«أظن أنه يوجد شخص يصيح، هل سمعت؟»

شغّلت يده اليسرى المساعد السمعي.

«إنه الفتى، من الأفضل أن تذهبي وتستكشفي».

أسندت المرآة إلى الجدار واندفعت عبر الدكّة. توقفت في الخارج منتظرة الصرخة التالية. حين جاءت سارتْ عبر الحديقة ثم إلى الحقول فوق المنزل.

وجدته واقفا، يداه مرفوعتان فوقه كأنه يحمل بيت عنكبوت عملاق، ويهزّ رأسه ليتخلص من السماعات. حين ركضتْ نحوه صرخ بها أن تنعطف إلى اليسار، هناك حيث أسلاك اللغم في كل أنحاء المكان. توقفت، كانت قد تنزّهت هنا مرات عدّة دون إحساس بالخطر. رفعت تنورتها وتحركت إلى الأمام مراقبة قدميها حين دخلتا الأعشاب الطويلة.

يداه ما زالتا مرفوعتين حين وصلت إلى جانبه، لقد خُدع وانتهى حاملا سلكين حيث لا يستطيع أن يضعهما دون أمان اللحن المساير. كان في حاجة إلى يد ثالثة ليُبطل أحدهما وإلى أن يعود مرة أخرى إلى رأس الصمام. أعطاها السلكين بحذر وأنزل ذراعيه مُعيدًا الدمَ إليهما.

«سآخذهما بعد دقيقة؟»

«حسنا».

«ابقي هادئة جدا».

فتح حقيبته ليُخرج عدّاد جايجر وقطعة مغناطيس. شغّل القرص ومرّره على السّلكين اللذين تحملهما، لم يكن هناك انحراف إلى الإشارة السّالبة.

خطا إلى الخلف متسائلا أين تكمن الخدعة.

«دعيني أربط هذين إلى الشجرة وغادري».

«لا، سأمسكهما، لن يصلا إلى الشجرة».

«كلا».

«كيب! أستطيع أن أمسكهما».

«يواجهنا مأزق، بِدعة جديدة في صناعة الألغام. لا أعرف من أين أبدأ هنا. لا أعرف كم هي الخدعة تامة».

تركها وعادَ إلى المكان الذي رأى فيه السلك أوّل مرة. رفعه وتبعه طول الطريق هذه المرة وعدّاد جايجر إلى جانبه، ثم انحنى على بعد عشر ياردات منها مفكرًا، وبين فينة وأخرى ينظر إلى الأعلى وإلى اليمين عبرها مراقبا السلكين الرافدين الذين تحملهما فقط. قال بصوت مرتفع وببطء: لا أعرف، لا أعرف. أعتقد أنه يجب أن أقطع السلك الذي في يدك اليسرى، يجب أن تغادري. كان يدفع سماعتَي الراديو فوق رأسه بحيث جاء الصوت إليه كاملا وملأه بالوضوح. درس الممرات المختلفة للسلك وانحرف إلى التفافات العقد، الزوايا المفاجئة، المحوّلات المدفونة التي ترجمتها من الموجب إلى السالب، علبة القدح. تذكّر الكلب ذا العين الكبيرة كصحون الفناجين. ركض مع الموسيقا على طول السلكين وطوال الوقت كان ينظر إلى يدي الفتاة اللتين ما زالتا تمسكانهما.

«من الأفضل أن تذهبي».

«تحتاج إلى يد أخرى لتقطعه، أليس كذلك؟».

«أستطيع أن أربطه إلى الشجرة».

«سأمسكه».

التقط السلك كأفعى نحيلة من يدها اليسرى ثم أخذ الآخر. لم تبتعد. لم يقل

شيئا إضافيا، كان عليه أن يفكر الآن بوضوح قدر استطاعته وكأنه وحيد، جاءت إليه وأخذت أحد الأسلاك. لم يكن واعيا لهذا على الإطلاق، لقد امحى حضورها. سافر عبر ممرّ صمام القنبلة ثانية، مع العقل الذي خطّط لهذا، لامسا جميع النقاط المهمة، مشاهدا أشعتها السّينيّة، والموسيقا طغت على كلّ شيء آخر.

متجها نحوها، قطع السلك تحت قبضتها اليسرى قبل أن تتلاشى النظريّة، الصوت مثل شيء تمَّ عضّه بسنٍ. رأى الرسوم القاتمة لفستانها فوق كتفها، إزاء عنقها. عُطّلت القنبلة. رمى المِقْطَعة ووضع يده على كتفها محتاجًا أن يلمس شيئا بشريا. كانت تقول شيئا ما لم يستطع أن يسمعه، وتقدمت ونزعت السماعات وهكذا هيمن الصمت، النسيم والحفيف، لاحظ أن طقطقة السلك الذي قُطع لم تُسمع إطلاقا، فقط شعر بها، طقطقة انكسار عظم أرنب صغير، دون أن يدعها تذهب يمد يده ويسحب السلك الذي يبلغ طوله سبعة إنشات من قبضتها التي كانت ما تزال مشدودة.

تنظر إليه في سخرية منتظرة جوابه على ما قالته ولم يسمعه. هوّت رأسها وجلستْ. بدأ يجمع أشياء متنوعة حوله ويضعها في حقيبته. رفعت بصرها إلى الشجرة ثم فقط بالصدفة نظرت إلى الأسفل ورأت يديه ترتجفان متوترتين وصلبتين كيدي شخص مصاب بالصرع، تنفسه العميق والسريع ينتهي في لحظة. كان منحنيا إلى الأسفل.

مكتبة

«هل سمعتَ ما قلته؟»

«لا، ماذا قلت؟»

«ظننت أنني سأموت، أردت أن أموت، واعتقدت أنني إذا كنتُ سأموت، فسأموت معك، مع شخص مثلك، شاب مثلي، رأيت كثيرين يموتون قربي العامَ الماضي. لم أشعر بالخوف. أكيد لم أكن شجاعة الآن. فكرتُ أننا نمتلك هذه الفيلا وهذه الأعشاب، يجب أن نستلقي معا، وأنت بين ذراعي، قبل أن نموت. أردت أن ألمس العظم عند عنقك، الترقوة، إنها مثل جناح صلب صغير تحت جلدك، أردت أن أضع أصابعي عليها. أحببتُ دائما الجسد الذي له لون الأنهار والصخور أو العين

البنيّة للسّوسن، هل تعرف ما هي الزهرة؟ هل رأيتها؟ أنا متعبة يا كيب. أريد أن أنام. أريد أن أنام تحت هذه الشجرة وأضع عيني إزاء ترقوتك، أردتُ لتوّي أن أغمض عينيّ دون أن أفكر في الآخرين، رغبت أن أعثر على شجرة ملتويّة لأتسلق انحناءها وأنام عليه. يا له من ذهنٍ حريص! أن تعرف أي سلك تقطع. كيف عرفت؟ كنت تردّد: لا أعرف، لا أعرف، لكنك عرفت. أليس كذلك؟ لا ترتجف، يجب أن تكون سريرا هادئا لي، دعني ألتفّ وكأنك جَدٌّ طيّب أستطيع أن أضمه، أحب كلمة «ألتفّ»، كلمة بطيئة كهذه، لا تستطيع أن تقولها بسرعة».

كان فمها على قميصه. استلقى معها على الأرض هادئا كما كان عليه أن يكون، عيناه صافيتان، ناظرا إلى غُصن. استطاع أن يسمع نفَسَها العميق، حين وضع ذراعه حول كتفها كانت قد نامت، لكنها شدّته نحوها. محدقا إلى أسفل وجد أنها لا تزال تمسك السّلك، لابدّ أنها التقطته مرة ثانية.

كان نَفسها هو الأكثر حياة، بدا وزنها خفيفا بحيث يجب أن تكون قد وازنت مُعظمه، كي لا يرتمي الثقل عليه. إلى متى يستطيعان أن يستلقيا هكذا، غير قادر على الحركة أو الذهاب إلى العمل. من الضروري أن يبقى هادئا بالطريقة التي استند بها إلى التماثيل تلك الشهور حين انطلقوا على الساحل ليقاتلوا داخل كلّ بلدة محصّنة وما بعدها، إلى أن لم يبق اختلاف بينها، الشوارع الضيقة نفسها في كل مكان والتي أصبحت مجارير من الدم، حيث حلُمَ أنه إذا فقد توازنه سيهبط تلك المنحدرات على السائل الأحمر وينقذف من الجرف إلى الوادي. يسير كلّ ليلة في برودة كنيسة محتلّة، ويعثر على تمثال ليكون حارسه في الليل. لم يكن يثق إلا بسلالة الأحجار هذه، مقتربا منها قدر الإمكان في الظلام، كانت ملاكا حزينا فخذه فَخْذ امرأة بخطوط وظلال ناعمة. يضع رأسه في حضن كائنات كهذه ويحرر نفسه بالنوم.

وضعت فجأة مزيدا من الثقل عليه وأصبح تنفسها أعمق مثل صوت تشيلو. راقب وجهها النائم، كان ما يزال متضايقا لأن الفتاة مكثتْ معه حين عطّل القنبلة

وكأنها جعلته بذلك مدينا لها بشيء ما. جعلته يشعر بمسؤوليّة نحوها رغم أنه لم يفكّر في ذلك، كأن ذلك أثّر فيه بشكل نافعٍ وحدّد له ما يفعله باللغم.
لكنه شعر أنه الآن داخل شيء ما، ربما لوحة رآها في مكان ما في العام المنصرم. شخصان آمنان في حقل. كم رأى كثيرين ينامون بكسلٍ دون أن يفكروا في العمل أو في أخطار العالم. إلى جانبه كانت الحركات التي تشبه حركات الفأرة داخل نَفَس هانا، حاجباها يرتفعان وينخفضان مع الجدال، غضب قليلٌ في حُلمها، أدار عينيه بعيدا، عاليا نحو الأشجار والسماء التي تنتشر فيها غيوم بيضاء. أمسك يدها كما تعلَّق بالطين على طول ضفة نهر مورو، حيث غاصت قبضته في التراب المبلّل ليحمي نفسه من السقوط في التيار بعد أن عبره.
لو كان بطلا في لوحة، لكان في وسعه أن ينام قرير العين، لكن كما قالت له، إنّه أسْمَر سُمرة صخرة، سُمْرة نَهْر موحل تغذيه العاصفة. لكن شيئًا ما داخله دفعه إلى صدّ حتى البراءة الساذجة لملاحظة كتلك. إن تعطيل قُنبلة بشكل ناجح يُنهي الروايات: رجال بيضٌ حكماء أبويّون بعضهم يصافح بعضًا، اعتُرِف بفضلهم ثم رُحّلوا، وبقليل من التودّد خرجوا من عزلتهم من أجل هذه المناسبة الخاصة. لكنه محترفّ. بقيَ الأجنبي بينهم، السّيخي. اتصاله البشري والشخصي الوحيد هو مع العدوّ الذي صنعَ القنبلة وغادر مُزيلا آثاره بغصن.
لماذا لم يستطع أن النوم؟ لماذا لم يستدر نحو الفتاة ويوقف التفكير بأن كل شيء نصفَ مضاء، نار معلّقة؟ في لوحة من خياله سيكون الحقل الذي يحيط بهذا العناق مشتعلا بألسنة اللهب. مرّة راقب دخول خبير ألغام إلى منزل ملغوم بالمنظار. رآه يكنس علبة عود ثقاب عن حافة طاولة ويُغلّف بالضوء نصفَ ثانية قبل أن يصل إليه الصوت التفتيتي للقنبلة، ضوء أشبه بالبرق عام 1944 . كيف يستطيع أن يثق بتلك الدائرة من المطاط على كُمّ ثوب المرأة التي أمسكت ذراعها؟ أو بخشخشة نَفَسَها القريب العميق كأحجار في قاع النهر.

استيقظت حين قفزت اليرقانة من قُبّة فستانها إلى عنقها. فتحتْ عينيها لتشاهده

منحنيا عليها. رفعَها عن وجهها دون أن يلمس جلدها، ووضعها على العشب. لاحظَت أنّه حزَم معدّاته. تراجع إلى الخلف واستند إلى الشجرة وراقبها وهي تتمدّد في بطء على ظهرها، مُبقية تلك اللحظة قدْرَ استطاعتها. لابدّ أنّها ساعة العصر، الشمس في الأعلى هناك. أسندت رأسها إلى الخلف ونظرت إليه.

«كان من المفترض أن تعانقني»

«لقد فعلت، إلى أن انفصلت»

«كم من الوقت حضنتني؟»

«إلى أن تحرّكتِ. إلى أن احتجت إلى التحرّك»

«لم أكن أتودّد إليك في نومي بأيّ شكل، أليس كذلك؟» ثم أضافت حين رأته يحمرّ، «كنت أمزح فحسب. هل تريد الذهاب إلى المنزل؟»

«نعم، أنا جائع»

نهضتْ في صعوبة، مُنبهرة من الشمس وساقيها المتعبتين، ما زالت لا تعرف كم من الوقت بقيا هناك. لم تستطع أن تنسى عمق نومها، خفّة السّقوط في النوم.

انطلقت حفلة في غرفة المريض الإنجليزي حين أظهر كارافاجيو جهازَ الفونوغراف الذي عثر عليه في مكانٍ ما.

«سأستخدم الجهاز كي أعلّمك الرّقص يا هانا، لا ما يعرفه صديقك الشاب. لقد شاهدت رقصات معيّنة لهم وأدرت ظهري عنها. لكن هذا اللحن الذي يحمل عنوان أغنية «منذ متى يحدث هذا» والتي هي واحدة من أعظم الأغاني لأن لحن المقدمة أنقى من الأغنية التي يقدّمها. اعترفَ بذلك عظماء الجاز فقط. الآن نستطيع أن نقيم هذه الحفلة في الدكّة الخارجيّة، الأمر الذي سيسمح لنا بدعوة الكلب، أو في وسعنا أن نغزو الرّجل الإنجليزي ونقيمها في غرفة نومه في الطابق العلوي. صديقك الذي لا يشرب، وجد زجاجات نبيذ أمس في سان دومينيكو. إذن عندنا أكثر من الموسيقا! أعطني ذراعك. لا، يجب أن نرسم بالطبشور على الأرض بعض العلامات أوّلًا، ونتمرّن على القيام بثلاث خطوات رئيسية – واحد، اثنان، ثلاثة – الآن أعطني ذراعك، ما الذي حدث لك اليوم؟»

«لقد عطّل قنبلة ضخمة، واحدة صعبة. دعه يخبرك عنها».

هزَّ مهندس الألغام كتفيه بلا مبالاة، ليس من باب التواضع بل لأنها مسألة معقدة لا يمكن شرحها. خيّم الليل بسرعة مالئًا الوادي ثم الجبال، فتُركوا مرة أخرى مع المصابيح.

مشوا سوية في الرّدهة نحو غرفة نوم المريض الإنجليزي. كارافاجيو يحمل

الفونوغراف بيد واحدة من ذراع الجهاز وإبرته.

قال للشكل الثابت في الفراش: «الآن، قبل أن تبدأ تواريخك، سوف أُسمِعُكَ رومانسيّتي».

غمغم الإنجليزي: «أعتقد أن السيّد لورنز هارت[72] كتبها عام 1935». كيب يجلس على النافذة، وهانا قالت إنها تريد أن ترقص مع مهندس الألغام.

«ليس قبل أن أعلمك يا دودتي العزيزة».

نظرت إلى كارافاجيو في استغراب، فذاك هذا هو المصطلح التودّدي الذي يستخدمه والدها معها، شدّها في عناقه الأشيب الكثيف وقال دودتي العزيزة مرّة ثانية، وبدأ درس الرقص.

ارتدت فستانًا نظيفا لكنه غير مكوي. وكلما راحا يدوران، شاهدت مهندس الألغام يغني لنفسه أغنيات. لو أن ثمّة كهرباء لتمكنوا من استخدام الراديو وسماع الأنباء عن الحرب في مكانٍ ما. كل ما عندهم هو الراديو البلّوري الذي يحمله كيب معه، لكنه تركه في خيمته. كان المريض الإنجليزي يستعرض الحياة البائسة التي عاشها صاحب الأغنية، لورنز هارت، قائلًا إن بعض أفضل أغانيه عن مدينة مانهاتن غُيِّرَتْ، ثم راح يُنشد هذه الأشعار:

سوف نسبح في برايتون
ونخيف الأسماك
ونحن نفعل ذلك
مايوهك الشفّاف
سيجعل المحار يبتسم
زعنفة لزعنفة.

«أبيات رائعة وجنسيّة، لكن المرء يظن أن ريتشارد رودجرز[73] أراد مزيدًا من الوقار».

«يجب أن تخمّني حركاتي».

«لماذا لا تخمن حركاتي أنا».

«سأفعل ذلك حين تعرفين ما يجب أن تفعليه. حاليا أنا الوحيد الذي يفعل».

«أراهن أن كيب يعرف».

«ربما يعرف ولكنه لا يريد أن يفعل ذلك».

قال المريض الإنجليزي بأنه سيشرب بعض النبيذ، فالتقط مهندس الألغام كأس ماء وقذف محتوياتها من النافذة، وصبَّ النبيذ للإنجليزي.

«هذه كأسي الأولى خلال عام».

سُمِعتْ ضجة مكتومة، فاستدار المهندس بسرعة ونظر من النافذة في الظلام. تجمّد الآخرون. محتمل أن يكون هذا لغما، استدار إلى الحفلة وقال: «كل شيء على ما يرام، ليس لغما. يبدو أن هذا جاء من منطقة ممشّطة».

«أدِر الفونوغراف يا كيب. سوف أقدم لكم الآن: منذ متى يحدث هذا التي كتبها...» ثمّ ترك للمريض الإنجليزي أن يُكمل، فبدا عليه الحرَج وهزّ رأسه مبتسما والنبيذ في فمه.

«سيقتلني هذا الكحول على الأرجح».

«لا شيء سيقتلك يا صديقي فأنت كربون صرف».

«كارافاجيو!»

«جورج وإيرا غريشوين[74]، أصغوا».

رقص هو وهانا على الإيقاع الحزين للساكسفون. ولقد كانَ مُحقًّا. التقاسيم بطيئة وطويلة. أحسّت أن الموسيقيّ لا يرغب في مغادرة الردهة الصغيرة للمقدمة ويدخل في الأغنية، وأصر على البقاء هناك حيث لم تبدأ القصة بعد وكأنه متيَّم بعذراء في المقدمة. غمغم المريض الإنجليزي قائلا إن مقدمات أغانٍ كهذه كانت تُدعى «الأعباء».

ارتاح خدّها على عضلات كتف كارافاجيو. شعرت بيديه التي كالبراثن المرعبة على الثوب النظيف عند ظهرها. تحرّكا في المكان المحصور بين السرير والجدار،

بين السرير والباب، بين السرير وتجويف النافذة الذي جلس كيب فيه. كلما استدارا رأت وجهه، وركبتاه مرفوعتان وذراعاه يستريحان عليهما، أو ينظرُ عبر النافذة في الظلام.

«هل يعرف أي منكم رقصة تُدعى ضمة البوسفور؟»، سألَ الرجل الإنجليزي.

«لم نسمع بها».

راقب كيب الظلّ الضخم يتزلق فوق السقف والجدار المليء بالرسوم. نهض وسار إلى المريض الإنجليزي ليملأ كأسه الفارغة، وقرع حافة كأسه بالزجاجة ليشرب نخبه. هبَّت الريح الغربيّة على الغرفة واستدار فجأة غاضبا. رائحة خفيفة من الكورديت وصلت إليه. نسبة مئوية منها في الجو، ثم انزلق خارجا من الغرفة وعلى ملامحه قلق، تاركا هانا بين ذراعي كارافاجيو.

لا ضوء يُنير دربه حين ركض عبر الصالة المظلمة. أفرغ الحقيبة، هرع من المنزل واندفع هابطا درجات الكنيسة السّتة والثلاثين إلى الطريق راكضا، مزيلا فكرة الإنهاك من جسده.

هل مُطلق الرائحة مهندس ألغام أم شخص مدنيّ؟ رائحة الأزهار والأعشاب تفوح على طول جدار الطريق، ويشعر بألم يخز خاصرته. حادث أم اختيار خاطئ؟ غالبا ما يعزل مهندسو الألغام أنفسهم. إنهم مجموعة غريبة إذا صح الوصف، أشبه بصاغَة المجوهرات، ويحملون صلابة ووضوحا في داخلهم، وتخيف قراراتهم حتى زملاءهم في المهنة. تعرّف كيب على هذه الصفة في قاطعي الأحجار الكريمة، لكنه لم يتعرّف عليها أبدا في نفسه، رغم أنه عرف أن الآخرين يرونها فيه. لم يألف مهندسو الألغام بعضهم بعضًا أبدا. وحين يتحدثون يمررون المعلومات، والأدوات الجديدة، وعادات العدو. يدخل إلى صالة البلدة حيث يأوون ويشاهد الوجوه الثلاثة، ويدرك غياب الوجه الرابع، أو سيكون الأربعة موجودين في حقل وفي مكان ما ثمّة جثة عجوز أو فتاة.

تعلّم الرسوم التخطيطية للنظام حين تطوّع في الجيش، المخططات التي

أصبحت أكثر تعقيدا كالعقدة الكبيرة أو العلامات الموسيقية. اكتشف أنه يمتلك مهارة النظرة ثلاثية الأبعاد، النظرة المحدقة الشاذة التي تستطيع أن تنظر إلى شيء أو صفحة معلومات فتعيد ترتيبها، وترى جميع الألحان المسايرة. كان حذِرًا بالفطرة، لكنه قادر أيضا على تخيّل الأمور الأكثر سوءا، إمكانية حصول حادث في الغرفة، خوخة على طاولة، طفل يقترب ويأكل النواة المسمومة، رجل يدخل غرفة مظلمة وقبل أن ينضم إلى زوجته في الفراش يفصل مصباح بارافين عن حاملته. كانت جميع الغرف مليئة بهذه الأشياء. تستطيع النظرة المحدقة الشاذة أن ترى الخط المدفون تحت السطح، كيف تتذبذب عقدة حين تكون مخفية. ابتعد عن روايات المغامرات مستاءً، فلطالما استطاع التعرّف على الأشرار بسهولة كبيرة، كان أكثر ارتياحا مع الرجال الذين يمتلكون الجنون التراجيدي للمتعلّمين ذاتيا، مثل معلمه الخاص اللورد سفولك، ومثل المريض الإنجليزي.

لم يمتلك إيمانا بالكتب بعد. راقَبْتُه هانا في الأيام الأخيرة وهو يجلس قرب المريض الإنجليزي، وبدت له شخصيّته عكس شخصيّة كيم. الطالب الشاب بات هنديًّا الآن، والمدرس العجوز الحكيم إنجليزيًّا. لكن هانا هي التي مكثت ليلا مع العجوز وقادته عبر الجبال إلى النبع المقدّس. حتى أنهما اطّلعا معا على ذلك الكتاب، وكان صوت هانا يخفت حين تُضعف الريح ضوء الشمعة قربها وتُظلم الصفحة لحظة.

جلس في حجرة الانتظار التي تُصدر رنينًا سابحا بعيدا عن جميع الأفكار الأخرى. يداه مطويتان في حضنه وبؤبؤاه متقلصان كرأس الدبوس. في لحظة، في نصف ثانية أخرى، شعر بأنه سيصل إلى حل ذلك اللغز الكبير...

وبطريقة ما في ليالي القراءة والإصغاء الطويلة تلك، افترضَتْ أنهما أعدّا نفسيهما للجندي الشاب، الصبي الذي كبر وسينضم إليهما، لكن هانا هي التي كانت الصبي

في القصة. وإذا كان كيب أي شخص، فهو الضابط غريتون.
كتاب، خريطة من العقد، لوحة صمّام، غرفة لأربعة أشخاص في ڤيلا مهجورة مضاءة فقط بالشموع، وبين فينة وأخرى تضيئها العاصفة، وأحيانا ضوء لانفجار محتمل. أظلمت الجبال والتلال وفلورنسا دون كهرباء. يصلُ ضوء الشمعة إلى أقل من خمسين ياردة، ويبدو أن لا شيء هنا ينتمي إلى العالم الخارجي. احتفلوا في رقصة المساء القصيرة في غرفة المريض الإنجليزي بمغامراتهم الخاصة الصغيرة: هانا لنومَتِها الهانئة، وكارافاجيو لعثوره على الفونوغراف، وكيب لتعطيل اللغم المعقّد، رغم أنه نسيَ ذلك.
لم يكن لهم تمثيلٌ في العالم على بُعد خمسين ياردة، لا يُسمع لهم صوت أو تراهم عين الوادي حين ينزلق ظلّ هانا وكارافاجيو على الجدران، ويجلس كيب بارتياح مغلَّفًا في التجويف، فيما المريض الإنجليزي يرتشف نبيذه ويشعر بروحها تنفذ في جسمه المعطّل الذي يسكر بسرعة، فيطلق فمه الصغير صفير ثعلب صحراوي مستحضرا رفرفة طائر الدج الغابي الإنجليزي، الذي قال إنه يوجد في إسيكيس فقط لأنه يعيش جوار الخزامى وديدان الخشب. كانت رغبة المريض الإنجليزي كلها في الدماغ كما فكّر مهندس الألغام وهو جالسٌ في التجويف الحجري. فجأة أدار رأسه عارفا كل شيء عندما سمع الصوت، متأكدا منه. نظر إليهم وكذب لأول مرةٍ في حياته: «كل شيء على ما يرام، ليس لغما. بدا أن هذا جاء من منطقة ممشّطة»، واستعدّ لينتظر حتى تصل إليه رائحة الكورديت.

الآن، بعد ساعات، يجلس كيب ثانية في تجويف النافذة. إذا كان في وسعه أن يقطع الياردات السبعة عبر غرفة الإنجليزي ويلمسها، سيكون عاقلا. ضوء باهت في الغرفة، فقط الشمعة الموضوعة على الطاولة حيث تجلس دون أن تقرأ الليلة، ربما لأنهم ثملون قليلا كما اعتقَد.
عاد من مصدر انفجار اللغم ليجد كارافاجيو نائما على أريكة المكتبة، فيما الكلب بين ذراعيه. راقبه الكلب حين توقف عند الباب المفتوح محركا قليلا من جسمه

كما كان عليه أن يفعل ليشير إلى أنه مستيقظ ويحرس المكان. هَرير الكلب يعلو فوق شخير كارافاجيو.

نزع حذاءه، ربط الرباطين معا وعلّقه فوق كتفه حين صعد إلى الدور العلوي. المطر يتساقط واحتاج إلى قماش مشمّع لخيمته. ومن الصالة شاهد أن الضوء ما زال مشتعلًا في غرفة المريض الإنجليزي.

وجدها تجلس على الكرسي مستندة بمعصمها إلى الطاولة، حيث نشرت الشمعة ضوءها ورأسها إلى الوراء. وضع حذاءه على الأرض ودخل إلى الغرفة في صمت، حيث كانت الحفلة قائمة منذ ثلاث ساعات. استطاع أن يشمّ رائحة الكحول في الجو. وضعت أصابعها على شفتيها حين دخل ثم أشارت إلى المريض. لن يسمع خطوات كيب الصامتة. جلس مهندس الألغام في تجويف النافذة ثانية. لو يقدر أن يسير عبر الغرفة ويلمسها لاستعاد رُشده ربما. لكن تمتدّ بينهما رحلة غادرة معقدة. عالم واسع جدا. والإنجليزي يستيقظ على أي صوت، لأن المساعد السمعي يدار إلى مستواه الأخير حين ينام، ذلك أنه يشعر بالأمان حين يكون مصغيا وواعيا لما حوله. دارت عينا الفتاة حولها ثم هدأتا حين واجهتا كيب في مستطيل النافذة.

عثر على موقع الموت وما بقيَ هناك، ودفنوا زميله الأدنى رتبة منه الذي يُدعى هاردي. وبعد ذلك بدأ يفكر في الفتاة بعد الظهر، مرعوبًا فجأة عليها، غاضبا منها لأنها ورطت نفسها. حاولت أن تؤذي حياتها عرضيًا، وكانت تحدّق إليه. اتصالها الأخير به كان وضع إصبعها على شفتيها. انحنى ومسح جانب خده على الحبل الموضوع على كتفه. سارَ عائدا عبر القرية والمطر يتساقط على أشجار حي البلدة مقطوعة الرؤوس، التي لم تقلّم منذ بداية الحرب، عابرا التمثال الغريب لرجلين يتصافحان على ظهر حصان، الآن هو هنا، ضوء الشمعة يتأرجح مبدلا نظرتها، وهكذا لم يستطع أن يخمّن بماذا تفكّر، الحكمة أَم الحزن أم الفضول.

لو أنها تقرأ الآن، أو تنحني فوق الإنجليزي، لأحنى رأسه لها وغادر على الأرجح، لكنه الآن يراقب هانا كامرأة شابة ووحيدة. الليلة، حين كان يحدق إلى مشهد

اللغم المنفجر، بدأ يخاف من حضورها أثناء عملية التعطيل بعد الظهر. كان عليه أن يتخلص من الخوف وإلا ستكون معه في كل الأوقات التي يقترب فيها من صمّام. سيكون حاملا بها. حين كان يعمل امتلأ بالوضوح والموسيقا وانطفأ العالم البشري. الآن هي في داخله أو على كتفه، بالطريقة التي رأى فيها مرّة ضابطا يحمل عنزة ويخرجها من نفقٍ كانوا يحاولون إغراقه بالماء.

كلا.

لم يكن ذلك صحيحا. أراد كَتِفَ هانا، أن يضع كفه فوقه كما فعل في ضوء الشمس حين نامت واستلقى هناك كما لو أنه في شاشة منظار بندقية أحدهم، مرتبكًا معها، داخل منظر الرسام المتخيّل. لم يُرِد راحةً بل أراد أن يحيط الفتاة بها، أن يقودها من هذه الغرفة. رفض أن يؤمن بنقاط ضعفه، ومعها لم يجد ضعفا كي يُهيّئ نفسه ضده. لم يكن أي منهما راغبا في كشف إمكانية كهذه للآخر.

جلست هانا هادئة. تنظر إليه وتأرجح ضوء الشمعة يبدّل نظرتها. لم يكن مدركا أنه بالنسبة إليها مجرّد صورة ظليّة، وأن جلده جزء من الظلمة.

قبل ساعات، حين رأت أنه غادر تجويف النافذة، غضبت عارفة أنه يحميهم كالأولاد من لغمٍ. تعلّقت بكارافاجيو. كانت إهانة، والليلة لم يسمح لها الابتهاج المتنامي للأمسية أن تقرأ بعد أن ذهب كارافاجيو إلى الفراش، متوقفا عن التنقيب في صندوق أدويتها أوّلا، وبعد أن ضرب المريض الإنجليزي الهواء بإصبعه النحيل، وبعد أن انحنت وقبّل خدّها.

أطفأت الشموع الأخرى، أشعلت فقط الجزء المتبقي من الشمعة الليلية على طاولة الفراش وجلست هناك. جسد المريض الإنجليزي يواجهها في صَمْت بعد وحشيّة أحاديثه السكرانة. يوما ما سأصبح حصانا. سأصير كلبا، خنزيرا، دبًّا بلا رأس. يوما ما سأصبح نارًا. استطاعت أن تسمع صوت تساقط الشمع الذائب على الصينية المعدنية قربها. كان مهندس الألغام قد ذهب عبر البلدة إلى مكان ما في التلّ حيث حدث الانفجار، وصمته غير الضروري ما زال يغضبها.

لم تستطع أن تقرأ. جلستْ في الغرفة مع رجلها الذي يموت بشكل أبديّ. مُسْتَدَقّ

ظهرها يؤلمها لاصطدامِها عرَضيًّا بالجدار أثناء رقصها مع كارافاجيو.

إذا تحرّك نحوها الآن، ستحدق إليه حتى يتضايق، وتعامله بصمت مشابه. ليخمّن، ليقُم بمبادرة. لقد اقترب منها جنودٌ من قبل. لكن ما يفعله هو هذا: إنه في منتصف الغرفة، يده غائصة في الحقيبة التي ما زالت تتدلى من كتفه، مشيته صامتة، يستدير ويتوقّف قرب السرير، وبينما يُكمل المريض الإنجليزي إحدى زفراته، يقصّ سلك مساعده السمعي بالمِقْطَعة ويضعها في حقيبته. يستدير ويبتسم لها.

«سوف أوصل السّلك صباحًا».

يضع يده اليسرى على كتفها.

ديفد كارافاجيو... إنه اسمٌ سخيف لك، بالطبع...

على الأقل أحمل اسمًا.

أجل.

يجلس كارافاجيو على كرسي هانا. تملأ شمس العصْر الغرفة كاشفة الذرّات السابحة. يحمل وجه المريض الإنجليزي الأسود الهزيل بأنفه القائم مظهرَ صَقر هادئ مقمّط بالأغطية. يفكّر كارافاجيو أنه كفن صقر.

يستدير الإنجليزي نحوه.

«ثمّة لوحة رسمها كارافاجيو[75] في أواخر حياته. داود مع رأس جالوت[76]. يحمل فيها المحارب الشاب في نهاية ذراعه الممدودة رأس جالوت، مُتْلَفًا وطاعنا في السن. لكن هذا ليس الحزن الحقيقي في اللوحة. يُعتقد أن وجه داود هو صورة لكارافاجيو الشاب، فيما رأس جالوت هو صورته كرجل عجوز، كما بدا حين رسم اللوحة. الشباب يحاكم العمر في نهاية ذراعه الممدودة. الحكم على الفناء الشخصي. حين أراه عند قدم سريري، أعتقد أنّ كيب هذا هو داوُدي».

يجلس كارافاجيو هناك صامتا، الأفكار ضائعة بين الذرّات العائمة.

أفقدته الحرب توازنه ولا يستطيع أن يعود إلى أيّ عالمٍ كما هو، مُرتديًا تلك الأعضاء المزيّفة التي لا تُطاق دون مورفين. إنه رجل متوسط العمر ولم يعتد قط على العائلات، بل تجنّب طوال حياته العلاقات المستمرّة. إنّه عاشق أفضل

منه زوجًا حتى نشبت الحرب. رجل يهرب بعيدًا بالطريقة التي يترك بها العشّاق الفوضى، بالطريقة التي يترك بها اللصوص البيوت المنهوبة.

يراقب الرجل الذي في السرير. يريد أن يعرف من هو هذا الإنجليزي الذي جاء من الصحراء وأن يكشفه من أجل هانا، أو ربما يبتكر له جلدًا، بالطريقة التي يموّه بها حمض التنيك انسلاخ جلد رجل محروق.

حين اشتغل في القاهرة أيّامَ الحرب الأولى، دُرّب على اختراع عملاء مزدوجين، أو أشباح تكتسي اللحم. ادّعى أمام الأعداء مسؤوليّته عن عَميل خُرافيّ يُدعى «جُبنة»، وأمضى أسابيع يصبغه بحقائقَ ويمنحه صفات شخصيّة، كالجشع، وعدم مقاومته الخمر. ذلك كلّه لكي يبث أسرارًا وشائعات مغلوطة للأعداء. تمامًا كما أن بعض من اشتغل لهم في القاهرة اختلقوا كتائب كاملة في الصحراء. عاش في زمن الحرب عندما كان كلّ شيء يُقدّم للآخرين حوله كذبة. شعر أنّه رجُل في ظُلمة ويصيحُ مُقلّدًا صيحات الطيور.

لكنهم هنا يطْرَحون جلودهم عنهم، وفي فعلهم ذلك لم يستطيعوا أن يستبدلوها بأُخرى، بل إنهم يكشفون أنفسهم. لا يستطيع الواحد منهم الدّفاع عن نفسه سوى بالبحث عن حقيقة الآخرين.

تجذب رواية كيم عن رفّ المكتبة وتبدأ، واقفة قرب البيانو، بالكتابة على الورقة الفارغة آخر الكتاب.

يقول إن المدفع – الزّمزمة، ما زال موجودا خارج المتحف في لاهور. ثمّة مدفعان صُنِعا من الآنية والأكواب المعدنية التي أخذتْ من كلّ بيتٍ هندوسيّ في المدينة كجِزْيَة. صُهِرَتْ تلك الآنية وحُوّلت إلى مدافع استُخدمت في معارك عدّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضدّ السّيخ. فُقد المدفع الآخر أثناء معركة عبور في نهر تشيناب.

تغلق الكتاب، وتقف على كرسي لتُعيده إلى الرفّ المرتفع الخفيّ.

تدخل غرفة النوم المزدانة بالرسوم حاملة كتابا جديدا وتقرأ العنوان.

«أجّلي الكتب الآن، يا هانا».

تنظر إليه. تظن أنه، حتى الآن، يحمل عينين جميلتين. إنّ كل شيء هناك، في نظرته الرماديّة المنبثقة من ظُلمته. تشعر بنظراته تتعدّد وتُشعّ عليها لحظة، وتتبدّل مثل فَنَار.

«لا أريد مزيدًا من الكتب، هاتي كتاب هيرودوتس فقط».

تضع الكتاب السّميك المتّسخ بين يديه.

«لقد شاهدتُ طَبَعات من التواريخ تحمل أغلفتها صورة لمنحوتة له، صورة تمثال عُثر عليه في مُتحف فرنسي. لكنني لا أتخيّل أبدا هيرودوتس بهذه الطريقة. أراه كواحد من رجال الصحراء النادرين الذين يتنقلون من واحة إلى واحة مُتاجرين بالأساطير كأنهم يتبادلون البذار، يستهلكون كل شيء دون ريبة، جامعين قطع السّراب. إنّ تاريخي هذا، يقول هيرودوتس، يُورِد منذ البدء المادة المُعينة لدعم ما يُجادل فيه. ما ستجدينه فيه هو شارع نهايته مسدودة في امتدادات التاريخ – كيف يخون البشر بعضهم بعضًا من أجل أُمَمِهم، كيف يقع البشر في الغرام... كم قلت لي عمرك؟»

«عشرون»

«كنت أكبر منكِ كثيرا حين أحببت»

تتوقّف هانا: «من هي؟»

لكنّ عينيه الآن بعيدتان عنها.

قال كارافاجيو: « تفضّل الطيور الأشجار ذات الأغصان اليابسة، ففيها مساحات أوسع لتحطّ خلالها. وتُمَكّنها أيضًا من الإقلاع إلى أيّ جهة».

قالت هانا: «إذا كنت تتحدث عنّي فأنا لست طائرا، إن الطائر الحقيقي هو الرجل الذي في الطابق العلوي».

حاول كيب أن يتخيلها طائرا.

في اندفاعةٍ مورفينية عدائية، أراد كارافاجيو أن يجادل: «أخبريني، هل من الممكن حُبّ شخص ليس ذكيا مثلك؟ ما انفكّ يعنيني هذا الشيء طوال حياتي الجنسية التي بدأت متأخرة، كما يجب أن أعلن لهذه الرِّفقة المختارة. بالطريقة نفسها عرفت المتعة الجنسية للمحادثة فقط بعد أن تزوّجت. لم أفكر قط أن الكلمات يمكن أن تكون إيروتيكيّة. أحيانا أحب أن أتحدث أكثر ممّا أحب أن أضاجع. الجمل. دِلاءٌ من هذا، ثمّ دِلاءٌ من ذاك، وبعدها دلاء من هذا ثانية. إن المشكلة مع الكلمات هي أنك تستطيع أن تتحدث بها مع نفسك في زاوية، لكنك لا تستطيع أن تضاجع نفسك في الزاوية إيّاها».

غمغمت هانا: «هذا رجلٌ يتحدّث».

تابع كارافاجيو: «حسنًا! لم أفعل ذلك، ربما أنت فعلت يا كيب، حين هبطت إلى بومباي من التلال، حين جئت إلى إنجلترا من أجل التدريب العسكري. هل قام أحد ما، وراود نفسه في زاوية؟ كم عمرك يا كيب؟»

«ستة وعشرون».

«أكبر مني».

«أكبر من هانا. هل سيزال في وسعك أن تحبها إذا لم تكن هي أذكى منك؟ أعني، يمكن أن ألا تكون أذكى منك، لكن أليس مهما بالنسبة إليك الظنّ أنها أذكى منك لكي تقع في غرامها؟ فكّر الآن. ربما كانت مهووسة بالإنجليزيّ لأنه يعرف أكثر. حين نتحدث مع ذلك الشخص ندخل في حقل مجهول. لا نعرف حتى إن كان إنجليزيا. إنه على الأرجح ليس إنجليزيا، أتفهمني؟ أعتقد أنه من الأسهل أن تقع في غرامه من أن تقع في غرامك. لمَ هذا؟ لأننا نريد أن نعرف الأشياء، كيف تتلاءم القطع. إن المتحدثين يُغوون، الكلمات ترشدنا إلى الزوايا، ونريد أكثر من أي شيء آخر أن ننمو ونتغيّر. يا له من عالم جريء وطريف».

قالت هانا: «لا أعتقد ذلك».

«ولا أنا. سأقول لك شيئا عن الأشخاص الذين في عمري. إن الشيء الأسوأ هو أن يفترض الآخرون أنك طوّرت شخصيتك بحلول هذا العُمر، إن المشكلة مع العمر المتوسّط هي أنهم يظنون أنّ شخصيّتك قد اكتملت ونضجت، يا هانا».

هنا رفع كارافاجيو يديه بحيث واجهتا هانا وكيب. نهضتْ ووقفت خلفه، ثم وضعتْ ذراعها حول عنقه.

«لا تفعل هذا يا ديفد، اتفقنا؟»

وضعت يديها على يديه بنعومة.

«يكفي أنّ عندنا متحدّث مجنون واحد في الدور العلوي».

«انظري إلينا، نجلس كالأغنياء القذرين في ڤيلاتهم القذرة على التلال القذرة حين ترتفع حرارة المدينة. إنها التاسعة صباحا، العجوز في الدور العلوي نائم. هانا مهووسة به. أنا مهووس بسلامة عقل هانا، أنا مهووس بتوازني وعلى الأرجح سينفجر كيب في يوم من الأيام، لماذا؟ من أجل من؟ إنه في السادسة والعشرين. يعلّمه الجيش البريطاني المهارات ويعلّمه الأميركيون مهارات إضافية وتُقدّم المحاضرات لفريق مهندسي الألغام، يزيّنون ويُرْسَلون الى تلال الأغنياء. إنك تُسْتَغَل أيها الصبيّ، كما يقول الويلزيون. لن أمكث هنا طويلا. سآخذك إلى

الوطن، اخرجي بحق الجحيم من هنا!».

«توقف يا ديفيد، سينجو».

«ما اسم مهندس الألغام الذي انفجر به اللغم تلك الليلة؟»

لا يجيب كيب.

«ما اسمه؟»

«سام هاردي».

ذهب كيب إلى النافذة ونظر إلى الخارج تاركا محادثتهما.

«إن مشكلتنا جميعا هي أننا في المكان الذي يجب ألا نكون فيه. ماذا نفعل في أفريقيا، في إيطاليا؟ لماذا يُنظف كيب البساتين من الألغام، بحق الله؟ لماذا يخوض معارك إنجليزية؟ إن مزارعا على الجبهة الغربية لا يستطيع أن يقلّم شجرة دون أن تحطّم منشاره، لماذا؟ بسبب كمية الشظايا التي دخلت فيها أثناء الحرب الأخيرة، حتى الأشجار امتلأت بالأمراض التي أحضرناها. تلقّنك الجيوش مبادئها وتتْركك هنا ثم تذهب إلى مكان آخر لتسبّب المشاكل. يجب أن نخرج جميعا من هنا».

«لا تستطيع أن تترك الإنجليزي».

«لقد غادر الإنجليزي منذ شهور يا هانا، إنه مع البدو، أو في حديقة إنجليزيّة من نباتات القبس وغيرها. وإنه على الأرجح لا يستطيع أن يذكر المرأة التي يدور حولها، محاولا أن يتحدث عنها، إنه لا يعرف أين هو».

«تظنين أنني غاضب منك، أليس كذلك؟ لأنك وقعت في الغرام، أليس كذلك؟ عَمّ غيور. أنا خائف عليك، أريد أن أقتل الإنجليزي لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي سينقذك ويخرجك من هنا. لقد بدأت أحبه، اهجري موقعك. كيف يستطيع كيب أن يحبك إذا لم تكوني ذكية بما يكفي لتجعليه يتوقّف عن المجازفة بحياته؟»

«لأنه، لأنه يؤمن بعالم متحضر، إنه رجل متحضر».

«هذا هو الخطأ الأول. إن الحركة الصحيحة هي الصعود في قطار وأن تذهبا وتنجبا أولادًا معا. هل نذهب ونسأل الرجل الإنجليزي، الطّائر، عن رأيه؟»

«لماذا لستِ أكثر ذكاء؟ إن الأغنياء هم فقط الذين لا يستطيعون أن يعودوا أذكياء فحسب، بل إنهم أكثر ذكاءً دومًا. لقد أُفْهِمُوا. لقد حُبسوا طوال أعوام في الامتياز. عليهم أن يحموا ممتلكاتهم».

«لا أحد في العالم أحطّ من الأغنياء، ثقي بي. لكن عليهم أن يتبعوا قواعد عالمهم المأفون المتحضّر. يُعلنون الحرب، يمتلكون الشرف، ولا يستطيعون أن يغادروا. لكن أنتما الاثنان، نحن الثلاثة، نحن أحرار. كم عدد مهندسي الألغام الذين ماتوا؟ لماذا لم تموتي بعد؟ تخلّي عن مسؤوليتك، إن الحظّ ينفد».

هانا كانت تصبُّ حليبًا في كوبها. حين انتهت، رفعت الإبريق فوق يد كيب، وسكبت الحليب على يده السمراء وذراعه حتى معصمه، ثم توقَفت. لم يُبعد يده.

ثمة مستويان لتلك الحديقة الطويلة الضيّقة غربَ المنزل: مساحة مسطّحة أوّلًا، تمتدّ لتنتهي بمصطبةٍ تمتدّ في حديقة مُظلمة، حيث تختفي تقريبا الدرجات الحجرية والتماثيل الإسمنتية تحت طحالب الأمطار الخضراء. نصب مهندس الألغام خيمته هناك. الأمطار تنهمر والضباب يرتفع من الوادي، والمطر الآخر يتساقط من أغصان أشجار السرو والتنوب في هذا الجيب نصف الممشّط على جانب التل.

فقط النيران المشتعلة من يمكنها تجفيف الحديقة العُليا المبلّلة دومًا والمظلّلة. نفايات الألواح الخشبية والرّافدات التي سقطت من القصف السابق والأعشاب التي اقتلعتها هانا عضرًا والأعشاب المحصودة والقُرّاص، كلّها أحضراها إلى هنا وأشعلاها في الغسق. تصدرُ النيران الرطبة بخارا وتشتعل. الدخان الذي تفوح منه رائحة النبات يصعد جانبيا إلى الأجمات وأعالي الأشجار ثم يذوي أمام المنزل فوق المصطبة. يصل إلى نافذة المريض الإنجليزي الذي يستطيع أن يسمع تنقّل الأصوات، وبين فينة وأخرى ضحكة من الحديقة المدخّنة. يُترجم الرائحة مُعيدًا إياها إلى أصلها المحروق. يعتقد أنه حصى البان، والصّقلاب، والأفسنتين، يوجد شيء آخر هناك أيضا بلا عطر، ربما هو البنفسج النايّ أو عبّاد الشّمس المزيّف الذي يحبّ تربة التل هذه قليلة الأحماض.

ينصح المريض الإنجليزي هانا حول ماذا يجب عليها أن تزرع. «اجعلي صديقك الإيطالي يعثر لك على بذار، يبدو أنه قادر على ذلك. ما تحتاجين إليه هو أوراق

الخوخ وأيضا القرنفل الناري والقرنفل الهندي، إذا أردت الاسم اللاتيني لصديقك اللاتيني فهو سيلين فيرجينيكا. إن الزّعتر البرّي جيّد. إذا كنت تريدين العصافير أحضري البندق والكرز».

تسجّل كل شيء ثم تضع قلم الحبر في دُرج الطاولة الصغيرة حيث تضع الكتاب الذي تقرأه له مع شمعتين وعلبة ثقاب من نوع فيستا. لا أدوية في هذه الغرفة. إنها تخبئها في غُرَف أخرى. إذا كان كارافاجيو سيصطاد هذه المواد، فهي لا تريده أن يزعج الإنجليزي. تضع قطعة قائمة أسماء النباتات في جيب ثوبها لتعطيها كارافاجيو.

الآن، بما أن الجاذبية الجسدية هي ما أجبرها على رفع رأسها والنّظر، فإنّها بدأت تشعر بالحرج في رفقة ثلاثة رجال.

إذا كان هذا جاذبية جسدية، إذا كان كل هذا متعلقا بحب كيب، تحب أن تسند رأسها على أعلى ذراعه، ذلك النهر المعتم الأسمر، وأن تستيقظ منغمسة فيه، إزاء نبض شريان خفيّ في جسد إلى جانبها، الشريان الذي يجب عليها أن تحدّد مكانه وتحقنه بمحلول السالين إذا كان يحتضر.

في الثانية صباحًا أو الثالثة، بعد أن تترك الرجل الإنجليزي، تسير عبر الحديقة نحو مصباح مهندس الألغام الذي يتدلى على ذراع القدّيس كريستوفر، ظُلمة مُطلقة بينها وبين الضوء، لكنها تعرف كل شجيرة وأجمة في طريقها، وموقع النار المُشتعلة المنخفضة الورديّة المكتملة التي ستتخطّاها. أحيانا تطوّق قُمع المصباح الزجاجي بيدها وتنفخ لتطفئ لسان اللهب، وأحيانا تتركه مُشتعلًا لتنحني وتعبر تحته، وتدخل عبر الستائر، لتحبو نحو جسده، إلى الذراع التي تُريدها، لسانها بدل الضّماد لجروحه، ضرسها بدل إبرة الدّواء، شفتاها بدل القناع الذي يقطر من سطحه بُخار المنوّم، الذي يجعل دماغه المتكتك الخالد يرتاح. تطوي ثوبها الصوفي وتضعه فوق حذاء التنس. تعرف أن العالم بالنسبة إليه يحترق حولهما فقط ببضع قواعد حاسمة. تستبدل البارود بالبخار، تجففه، تعرف أن كل ذاك يدور

في رأسه حين تنام قُربه نومةً فاضلة، كأنّها أُخته.
تحيط بهما الخيمة والغابة السوداء.
لقد اجتازا، بخطوة واحدة فقط، الراحة التي كانت تقدمها للآخرين في المستشفيات المؤقتة في أورتونا، أو مونتيرشي. تقدّم لهم حُضنَ جسدها من أجل الدفء الأخير، همستها من أجل الرّاحة، إبرتها من أجل النوم. لكن جسد مهندس الألغام لا يسمح لأي شيء يأتي من عالم آخر بالدخول إليه. ولدٌ عاشقٌ لن يأكل الطعام الذي تجمعه، الذي لا يحتاج، أو لا يريد، المخدر في إبرةٍ تستطيع أن تدخلها في ذراعه، كما يفعل كارافاجيو، أو تلك المراهم صحراوية الصنع التي يتوق إليها الإنجليزي، المراهم وغبار الطلع ليستردّ عافيته كما فعل له ذلك البدو من قبل. من أجل راحة النوم فقط.

هناك حِليٌّ يُحيط نفسه بها: وُريقات جافّة قدّتَها له، وعقب شمعة، وفي خيمته الراديو البلّوري، وحقيبة كتف مليئة بأدوات الانضباط. لقد خرج من الصّراع الدائر والسّكينة في داخله، أي النظام، ولو كان زائفًا. يواصل الاحتفاظ بدقته، مُلاحقًا الصّقر في طيرانه فوق الوادي بمنظار بندقيته، يفتح القنبلة، ولا يشيح بعينيه ألبتّة عمّا يبحث عنه حين يجذب مطّارته إليه، ويفتح رأسها ويشرب دون أن ينظر أبدًا إلى الكوب المعدني.
تظن أنّهم جميعًا، بالنسبة إليه، حوافّ مجال نظره. عيناه فقط على ما هو خطير، وأذنه تصغي لأحداث هلسنكي أو برلين التي تصله عبر الموجة القصيرة، حتى حين يكون عاشقا رقيقا ويدها اليسرى تمسكه فوق الكارا[77]، حيث عضلات رسغه مشدودة، تشعر أنها خفيّة إزاء تلك النظرة الضائعة حتى يتأوّه ويُسقط رأسه على عنقها. كل شيء آخر، ما عدا الخطر، يقع في حوافّ مجال رؤيته. علّمَته أن يتأوّه، ورغبت ذلك منه بشدّة. وإذا كان على أيّ حال قد قرّر الاسترخاء منذ بدء الصّراع، فإنّ ذلك لم يحدث قط سوى الآن، حين أقَرّ بوجود النّاس في مجال رؤيته رغم الظلام، وأخيرًا أرسل إشارة مُتعةٍ لوجود صوت بشريّ قُربَه.

لا نعرف كم تحبّه وكم يحبها، أو إذا كانت المسألة لعبة أسرار، كلّما زادت مودّتهما ازدادت المسافة بينهما أثناء النهار. تحبُّ المسافة التي يتركها لها، الفضاء الذي يُفترض أنه من حقّهما، يمنح هذا لكلّ منهما طاقة خاصّة، شيفرة هوائية بينهما حين يمرّ تحت نافذتها دون كلمة، ويقطع نصف ميلٍ ليجتمع مع مهندسي الألغام الآخرين في البلدة. يضع بين يديها صحنًا أو بعض الطعام. تضع وُريقة على رسغه الأسمر، أو يعملان وكارافاجيو بينهما يُسَوّون جدارًا مهدّمًا. يغني مهندس الألغام أغانيه الغربية التي يستمتع بها كارافاجيو لكنه لا يُظهر ذلك.

يشهق الجنديّ الشاب، «بنسلفانيا سيكس فايف أو أو أو...[78]»

تتعلّم طبقات سُمرته كلّها: لون ساعده إزاء لون عنقه، لون راحة كفّه، خدّه، الجلد تحت العمامة. سُمرة الأصابع التي تفصل السلك الأحمر عن الأسود، أو على الخبز الذي يلتقطه من الصحن المصنوع من معدن المدفع الذي ما زال يستخدمه للطعام. بدتْ كفايته الذاتية وقحة لهم، رغم أنه دون شك يشعر أنها احترام مفرط.

تحبّ مُعظم الألوان المبلّلة لعنقه حين يستحم، وصدره المتعرّق الذي تلمسه أصابعها حين يكون فوقها، والذراعين السمراوين القويتين في ظُلمة خيمته، أو مرّةً في غرفتها حين أشرق الضوء الذي جاء من مدينة الوادي التي تحرّرت أخيرا من حَظر التجوّل، فمرّ بينهما كالبرق مُضيئا لون جسده.

تدرك فيما بعد أنه لم يسمح لنفسه قط أن يدين لها بشيء، أو تدين له بشيء. ستحدّق إلى الكلمة في رواية، تأخذها من الكتاب وتحملها إلى القاموس، الدَّين، أن تكون مُلزمًا، وهي تعرف أنه لن يسمح بهذا أبدًا. إذا عبرتْ المئتي ياردة عبر الحديقة المظلمة إليه سيكون هذا خيارها وقد تعثر عليه نائمًا، ليس من قلّة الحب، بل للضرورة، ليغدو متوقّد الذّهن إزاء أشياء اليوم التالي الخائنة.

يعتقد أنها رائعة، يستيقظ ويراها في ضوء المصباح، أكثر ما يحبه فيها هو نظرة

وجهها الذكية، أو في المساءات يحب صوتها وهي تجادل كارافاجيو بسبب حماقة ما. يحبّ الطريقة التي تزحف بها على جسده كقديسة.

يتحدثان، النغم الرتيب الضئيل لصوته في الرائحة القماشية لخيمتهما، التي امتلكها طوال الحملة الإيطالية، التي يلمسها بأصابعه النحيلة كأنها جزء من جسده، جناحٌ خاكيّ يطويه فوق نفسه في الليل. إنها عالمه، تشعر أنها مشرّدة من كندا أثناء تلك الليالي، يسألها لماذا لا تستطيع أن تنام، تستلقي هناك متضايقة من اكتفائه الذاتي، ومن قدرته على الابتعاد بسهولة عن العالم. تريد سقفًا صفيحيًّا يقي من المطر، شجرتَيْ حور ترتجفان خارج نافذتها، ضجة تستطيع أن تنام إزاءها، أشجارا نائمة وسقوفا غافية كبُرتْ معها في الطرف الشرقي لتورنتو، ثم لمدة عامين مع باتريك وكلارا على ضفة نهر سكوتاماتا، وفيما بعد في الشّاطئ الجيورجيّ. لم تعثر على شجرةٍ نائمة، حتى في كثافة هذه الحديقة.

«قبّلني. إنّه فمُك أكثر ما أنا واقعة في حِباله، أسنانك». وبعد لحظات عدّة، حين هوى رأسه على كتفه، نحو الهواء الداخل من فُتحة خيمته، همستْ في عُلُوّ، لكن لم يسمع ذلك أحد سواها: «ربما يجب أن نسأل كارافاجيو. أخبرني أبي مرّة أن كارافاجيو رجلٌ مُحبّ دائما، ليس مُحبّا فحسب بل دائما يغوص في الحب، دائما مشوّش، دائما سعيد. كيب؟ هل تسمعني؟ أنا سعيدة جدا معك، أن أكون هكذا معك».

إنّ أكثر ما تمنّته هو نهرٌ يستطيعان أن يسبحا فيه. هناك نظامٌ في السّباحة افترضت أنه موجود كما في قاعة رقص، لكنه يحمل إحساسًا مختلفا إزاء الأنهار، دخل نَهْر مورو في صَمْت، وسحب عدّة حبال مربوطة إلى جسر بِيلي القابل للطّيّ، وقضبانه المعدنية الملولبة تنزلق خلفه في الماء كمثل كائن، وعندئذ أُضيئت السماء بنيران القذائف، وكان أحدٌ ما يغوص إلى جانبه وسط النهر. مرّة بعد أخرى، غاص مهندسو الألغام بحثًا عن البكرات الضائعة، ممسكين علّاقات في الماء بينهم، وكان الطين والسطح والوجوه مضاءين بمشاعل فوسفورية في السماء حولهم.

يبكون ويصيحون طوال الليل، كان عليهم أن يوقفوا بعضهم عن الجنون، ملابسهم مليئة بنهر الشتاء، ينطبق جُزْءا الجسر فوق رؤوسهم مُستحيلًا مرّة أخرى إلى طريق سالِك، وبعد يومين نهرٌ آخر. إذا جاؤوا نهرًا ووجدوه دون جسر، فكأن اسمه مُحيَ، كأنّه سماء دون نجوم، أو منزلًا دون أبواب. تنزلق وحدات مهندسي الألغام بالحبال، حاملين أسلاكهم على أكتافهم، مثبّتين الرتاجات وقد زيّتوها ليُصْمِتوا المعدن، فيتقدّم الجيش، منطلقًا فوق جسر اصطنعوه سابقًا فوق النهر، فيما مهندسو الألغام في الماء.

وغالبا ما كانوا يُحبسون في منتصف التيار حين تجيء القذائف مشتعلة على وحل الضفاف، محوّلة الفولاذ والحديد إلى حجارة. لا شيء سيحميهم عندئذ، النهر البني رقيق كالحرير إزاء المعادن التي تشقّه.

استيقظَ من ذلك مُديرًا رأسه، كان يعرف خدعة النوم السريع ضد هذه التي يتوسّدها نائمًا ولها أنهارها الخاصّة التي فقدتها.

نعم، كارافاجيو سيشرح لها كيف تغوص في الحب، حتى كيف تغوص في حُبٍّ حَذِر. قالت: «أريد أن آخذك إلى نهر سكوتاماتا يا كيب. أريد أن أريك بحيرة الدخان. المرأة التي أحبّها والدي تعيش قرب البحيرات، ركوب القوارب أسهل عليها من صعود السيارات. أفتقد الرّعد الذي يجعل الكهرباء تطرُف، أريدك أن تقابل كلارا القوارب، آخر شخص في عائلتي، لا يوجد آخرون الآن، هجرها أبي من أجل الحرب».

تمشي نحو خيمته الليلية دون خطوة مزيفة أو أقلّ تردّد. تصنع الأشجار منخلًا قمريًا، كأنها حبيسة ضوء مصباح قاعة رقص. تدخل خيمته وتضع أذنًا على صدره النائم، وتصغي إلى نبضات قلبه بالطريقة التي يُصغي بها إلى ساعة لغمٍ. الثانية بعد منتصف الليل، الجميع نائمون، إلا هي.

١٧

جنوب القاهرة (1930-1938)

بعد هيرودوتس، قلّ اهتمام العالم الغربي بالصحراء مئات الأعوام. منذ عام 425 قبل الميلاد حتى بداية القرن العشرين، لا شيء سوى طرفة عين. صمت. القرن التاسع عشر هو عصر الباحثين عن الأنهار، ثم في العشرينيات عُثر على حاشية تاريخية عذبة حول هذا الجَيْب الأرضي، أعدتها بعثات تمويلها خاصّ، تبعتها محاضرات متواضعة أُلقيتْ في الجمعيّة الجغرافية في لندن في شارع كينسينغتون غور. ألقى تلك المحاضرات رجال مُنهكون أحرقتهم الشمس، مثل بحّارة كونراد، لا يريحهم إتيكيت عربات الأُجرة والبديهة السريعة عديمة النكهة لجامعي التّذاكر في الباصات.

حين يسافرون في القطارات المحلية من الضواحي إلى منطقة نايتسبريدج، في طريقهم إلى اجتماعات الجمعية، غالبا ما يفقدون بطاقاتهم ويتمسّكون بخرائطهم القديمة. يحملون أوراق محاضراتهم فقط، التي تُكتب في بطء وألم، في حقائب ظهورهم الحاضرة دائما والتي هي دائما جزء من أجسادهم. أولئك الرّجال من جميع البلدان يسافرون في ساعة مبكرة من المساء، في السادسة، حين يوجد ضوء المنعزلين. إنه وقت غُفل يعودُ فيه مُعظم سكّان المدينة إلى بيوتهم. يصل المستكشفون باكرا جدا إلى شارع كينسينغتون غور، يأكلون في مطعم ليونز كورنر هاوس، ثم يدخلون الى مبنى الجمعية الجغرافية حيث يجلسون في صالة الدور العلوي قرب قارب موري الضخم، ويراجعون في دقّة أوراقهم. يبدأ إلقاء المحاضرات في الثامنة.

تُقدَم محاضرة كل أسبوع. شخص ما يقدّم المحاضرة وشخص آخر يقدّم الشّكر. أمّا المتحدث الأخير فيناقش أو يختبر المحاضرة من أجل العُملة الصّعبة، قائلا إنها مُهمّة لكنها غير وثيقة الصّلة بموضوع البحث على الإطلاق، ويفترض الجميع أن المتحدثين الرئيسيين يبقون قريبين من الحقائق، وحتى الافتراضات الهوسيّة تُقدّم بتواضع.

إن رحلتي عبر الصحراء الليبية من سوكم في البحر المتوسط إلى العُبَيد في السودان جرَت في أحد المسارات القليلة لسطح الأرض والتي تقدّم عددا متنوعا من المشاكل الجغرافية المثيرة للاهتمام.

لا تُذكر أبدا أعوام التحضير والبحث وتأمين التمويل في هذه الغرفة المكسوة بخشب البلوط. وسجّلت محاضر الأسبوع الماضي فقدان ثلاثين شخصا في الجليد في القارة القطبية الجنوبية، وأعلن خلال خطاب تأبينيّ قصير عن حالات ضياع مشابهة في الحرارة الشديدة أو العواصف. إن السلوك البشري والمالي كلّه يكمن في الجانب البعيد من المسألة التي نوقشتْ، والتي هي سطح الأرض ومشاكل جغرافية مهمّة.

أيمكن أن تُعتَبر منخفضات أخرى في هذا الإقليم، بالإضافة إلى وادي الريّان[79] الذي نوقش كثيرا، نافعة في ما يتعلق بريّ أو تصريف دلتا النيل؟ هل يتناقص تدريجيا احتياطي الواحات من المياه الإرتوازية؟ أين يجب أن نبحث عن واحة الزّرزورة الغامضة؟ أتوجد واحاتٌ أخرى مفقودة تنتظر الاكتشاف؟ أين مستنقعات سلاحف بطليموس؟

طرح جون بيل مُدير المسح الصحراوي في مصر، هذه الأسئلة عام 1927، وفي

الثلاثينيات أصبحت الأوراق أكثر تواضعا: أحبُّ أن أضيف بعض الملاحظات حول بعض النقاط التي أثيرت في النقاش الممتع حول الجغرافية القديمة لواحة الخارجة[80]. وفي منتصف الثلاثينات عثر لازلو ألماسي ورفاقه[81] على واحة الزّرزورة المفقودة. وفي أواسط الثلاثينيات انتهى العقد العظيم لبعثات الصحراء الليبية وأصبح جيب الأرض الصامت الشاسع مسرحًا للحرب.

غرفة النوم المزدانة برسوم العرائش، يُطلّ منها المريض المحروق على مسافات كبيرة، مثل الفارس الميت في راڤينا الذي يبدو جسده الرخامي حيا ومائعا تقريبا، الذي رُفع رأسه على مخدة حجرية كي يستطيع النظر وراء قدميه إلى الأفق، إلى أبعدَ من مطر أفريقيا المُشتهى، نحو حياتهم جميعا في القاهرة، أعمالهم وأيامهم.

بدأنا عام 1930 رَسم خريطة الجزء الأكبر لنجد الجلف الكبير، باحثين عن الواحة الضائعة التي تُسمّى الزّرزورة، مدينة أشجار السّنط.

كنّا أوروبيّي الصحراء. شاهد جون بيل واحة الجلف الكبير عام 1917 ثم كمال الدين[82]، ثم باغنولد[83]، الذي عثر على طريقه جنوبا إلى بحر الرّمال الأعظم. مادوكس، والبول من فريق المسح الصحراوي، صاحب السمو وصفي بيك، المصوّر كاسباريوس، عالم الجيولوجيا الدكتور قادر، وبيرمان. وكان الجلف الكبير (النجد الكبير الذي يقع في الصحراء الليبية، ويعادل مساحة سويسرا، كما أحب مادوكس أن يقول) قلبَنا. جروفه شديدة التحدّر إلى الشرق والغرب، وينحدر النجد تدريجيا إلى الشمال، ويرتفع في الصحراء على بعد أربعمئة مِيل من نهر النيل.

بالنسبة إلى المصريين الأوائل، لم يكن يوجد على ما يبدو ماء إلى الغرب من بلدات الواحة، العالم ينتهي هناك، الداخل كان بلا ماء، لكن دائما يحيطك تاريخ ضائع في فراغ الصحاري. طافَتْ قبائل التّبو[84] والسنوسي[85] هناك وملكت الآبار التي

كانتْ تُحرس بسرية كبيرة. راجتْ شائعات عن أرضٍ خصبة تعشعش داخل الصحراء. تحدث الكتاب العرب في القرن الثالث عشر عن الزّرزورة، «واحة العصافير الصغيرة»، «مدينة أشجار السنط». وصُوِّرت الزرزورة في كتاب الكنوز كمدينة بيضاء، بيضاء كحمامة.

انظر إلى خريطة للصحراء الليبية وسترى أسماء. عام 1925 قام كمال الدين بالبعثة الأولى الحديثة العظيمة، مرتحلًا وحده تقريبًا، ثم باغنولد بين عامَي 1930 و1932، ثمّ ألماسي ومادوكس بين عامَي 1931 و1937، تماما إلى الشمال من مدار السرطان.

كنا مجموعة صغيرة بين الحروب، نرسم الخرائط ونعاود الاستكشاف. اجتمعنا في واحة الداخلة وواحة الكُفرة[86] كأنهما حانتان أو قهوتان، كنّا مجتمع واحة كما دعاه باغنولد، عرفنا دواخل كلّ منّا، مهاراته ونقاط ضعفه. غفرنا لباغنولد كل شيء بسبب الطريقة التي كتب فيها عن الكثبان الرمليّة: «أخاديد الرّمال وتغضّنها تشبه سقف حلق كلب». كان هذا باغنولد الحقيقيّ، الرجل الذي سيضع يده المتفحّصة في فك كلب.

عام 1930 انطلقت رحلتنا الأولى، اتجهنا جنوبا من الجغبوب[87] إلى الصحراء في محميّات قبائل الزّويّة والمجابرة[88]. استمرت رحلتنا سبعة أيام إلى التاج[89]. مادوكس وبيرمان وأربعة آخرون، بعض الجمال، كلب وحصان. حين غادرنا أخبرونا النكتة القديمة: إن بدء رحلة في عاصفة رملية يجلب الحظ الجيد. خيّمنا في الليلة الأولى على بعد عشرين ميلا إلى الجنوب. استيقظنا في الصباح التالي وخرجنا من خيامنا في الخامسة. كان الجوّ باردا جدا يمنع النوم. خطونا نحو النيران وجلسنا في ضوئها في الظلمة الأشمل، كانت فوقنا النجوم الأخيرة. لن تشرق الشمس إلا بعد ساعتين. مرّرنا لبعضنا كؤوس شاي ساخنة، عُلِفتْ الجمال وكانت تمضغ، نصف نائمة، التمرَ بنواته. تناولنا فطورنا وشربنا ثلاثة كؤوس شاي إضافية.

بعد ساعات هبّت علينا عاصفة رملية من صفاء الصباح قادمة من لا مكان. النسيم الذي كان عذبا راح يقوى تدريجيا. نظرنا إلى الأسفل أخيرا فرأينا أن سطح الصحراء تبدّل. هاتي الكتاب...هُنا. هذه قصة حسنين بيك الرائعة عن عواصف كهذه:

> كأنّ السّطح مبطن بأنابيب بخارية فيها آلاف الثقوب تخرج منها دفقات من البخار. يقفز الرمل في انبجاسات قليلة ويلتف، إنشا بعد إنش يرتفع الإزعاج والرياح تزداد قوّتها. يبدو كأن سطح الصحراء كلّه ينهض مطيعا قوة تندفع من الأسفل، حصيّات أكبر تضرب قصبات الأرجل والركب والأفخاذ. تتسلّق حبيبات الرمل الجسد حتى تضرب الوجه وتصعد إلى الرأس. تختفي السماء. يغيب كل شيء عن البصر ما عدا الأشياء الأكثر قربا، يمتلئ العالم.

توجّب علينا أن نتابع الحركة، إذا توقّفتَ فإنّ الرمل يتكوّم على أيّ شيء ثابت، هكذا يسجنك فتضيع إلى الأبد. يمكن أن تستمر العاصفة الرمليّة خمس ساعات. حتى حين كنّا داخل شاحناتنا، خلال الأعوام التالية، كان علينا متابعة القيادة دون رؤية. الأحوال الأسوأ تأتي ليلًا. مرّة، شمال واحة الكُفرة، هبّت علينا عاصفة في الظلام، في الثالثة صباحا. انتزعت العاصفة الخيام من أمراسها وتدحرجنا معها منجرفين في الرّمال كقارب غائص يمتلئ ماءً، وازداد علينا الثقل واختنقنا إلى أن حرّرَنا حاديُ عِيس.

هبّت علينا ثلاث عواصف خلال تسعة أيام، ضيّعنا البلدات الصحراوية الصغيرة حيث توقّعنا أن نعثر على مزيدٍ من المؤَن. اختفى الحصان ونفقت ثلاثة جمال ولم يكن لدينا طعام في اليومين الأخيرين، إلّا الشّاي. اتصالنا الأخير مع أي عالم آخر هو صلصلة إبريق الشاي الذي سوّدته النار والملعقة الطويلة والكأس التي كنا نسمعها في ظلمة الصباحات. توقّفنا عن الكلام بعد الليلة الثالثة. كل ما همّنا هو

النار والحد الأدنى من السائل البني.
أدْخَلنا الحَظّ إلى قرية التاج الصحراوية. سرتُ عبر السوق، زقاق الساعات التي تدق، إلى شارع مقاييس الضغط الجوي، عابرا أكشاك ذخائر البنادق، أكشاك العصير الإيطالي وطعام آخر معلّب من بنغازي، وقماش قطنيّ من مصر، وزخارف ذيول النعام، وأطباء أسنان الشارع، وتُجّار الكتب. كنّا لا نزال صامتين، كل واحد منّا مشتّت في الطريق الذي يسلكه. تلقّينا هذا العالم الجديد في بُطء كأننا ناجون من الغرق. جلسنا في الحيّ الرئيسي للتاج وأكلنا لحم الخروف والأرز والكعك البدوي، وشربنا الحليب مع لبّ اللوز المطحون. كلّ هذا بعد الانتظار الطويل لكؤوس الشاي الاحتفالية المنكّهة بالكهرمان والنعناع.

مرّة عام 1931 انضممت إلى قافلة بدويّة قيل لي إن واحدا منّا فيها. تبيّن أنه فينيلون بارنز. ذهبتُ إلى خيمته، لكنّه قد ذهب ذلك اليوم في بعثة قصيرة لتصنيف الأشجار الأحفوريّة. نظرتُ في خيمته إلى حزمة خرائط وصور عائلته التي يحملها دائما... إلخ. وبينما كنت مغادرا رأيت مرآة معلقة عاليا على جدار من الجلد، وحين نظرت فيها رأيت انعكاس السرير. رأيت كتلة صغيرة، ربما هي كلب، تحت الأغطية، رفعتُ العباءة فرأيت فتاة عربية صغيرة مقيّدة تنام هناك.

بحلول عام 1932، انتهى باغنولد، فيما كان مادوكس وبقيّتنا منتشرين في كل مكان، نبحث عن جيش قمبيز الضائع[90]، عن الزّرزورة، في أعوام 1932 و1933 و1934. لم نر بعضنا لشهور، فقط البدو ونحن، نجتاز جيئة وذهابا طريق الأربعين يومًا. وجدنا أنهارًا من القبائل الصحراوية، أجمل بشرٍ رأيتهم في حياتي. كنّا ألمانا وإنجليزا وهنغارًا وأفارقة، وكنا جميعنا غير مهمّين لهم، وبالتدريج أصبحنا دون أُمّة. بدأتُ أكره الأمم. كم شوّهتنا الدول القوميّة... لقد مات مادوكس بسبب الأمم.
لا يمكن أن تُضَمّ الصحراء أوتُمْتلَك. كانت قطعة قماشٍ تحملها الريح، لا يمكن

أن تثبتها الأحجار أبدا، ومُنِحَتْ مئة اسم متبدّل قبل وقت طويل من وجود كانتربيري[91]، قبل وقت طويل من الحروب والاتفاقيات التي خاطَت أوروبا بالشّرق فاجتمعا. قوافلها، تلك الثقافات والأعياد الغريبة المتنقّلة، لا تترك شيئا خلفها ولو جمرة. جميعنا، حتى أولئك الذين ابتنوا لهو بيوتًا وأنجبوا أطفالًا وراء البحار، أردنا أن نخلع ملابس بلداننا عنّا. كانت مكانًا للإيمان. نختفي في امتداد الطبيعة. نارٌ ورَمْلٌ. تركنا مرافئ الواحة، الأمكنة التي جاء إليها الماء ولمسها... العين، البئر، الوادي، الفوارة، القطارة، شادوف، لم أحب اسمي أمام أسماء جميلة كهذه. امْحِ اسم العائلة! امْح الأمم! لقد علّمتني الصحراء أشياء كهذه.

مع ذلك، أراد البعض وضع علامتهم هناك، في ذلك المجرى المائي الجاف، في هذه الهضبة المتداخلة. تفاهات لا معنى لها في بقعة الأرض هذه في الشمال الغربي من السودان، إلى الجنوب من برقة. أراد فينيلون بارنز أن تحمل الأشجار الأحفوريّة التي اكتشفها اسمه، وأمضى عاما في المفاوضات، بعدئذ بزّه بوتشان بعد أن أسْمَى نمطًا من الكثبان الرمليّة باسمه. لكنني أردتُ أن أمحو اسمي والمكان الذي جئت منه. في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب، بعد عشرة أعوام في الصحراء، كان سهلا بالنسبة إليّ أن أنزلق عبر الحدود، أن لا أنتمي لأي مكان، لأيّ أمّة.

عام 1933، أو 1934، نسيت أيّهما. مادوكس، وكاسباريوس، وبيرمان، وأنا، وسائقان سودانيّان، وطباخ، كنّا مسافرين في سيارات فورد مُصَنْدَقَة، ونستخدم لأوّل مرّة إطارات بالونيّة ضخمة تُدعى العجلات الهوائيّة. كانت تسير بشكل أفضل على الرّمال، لكن الرّهان هو أن تحتمل حقول الحصى والصّخور المتشقّقة.

نغادر واحة الخارجة في 22 آذار. افترضتُ أنا وبيرمان أن ثلاثة أودية كتب عنها ويليامسون عام 1838، تشكّل جميعها الزّرزورة.

تقع إلى الجنوب الغربي من الجلف الكبير ثلاث كُتَل غرانيتيّة هائلة تعلو السّهل، مثل سلسلة جبال أركنو[92] وجبل العوينات[93]، وجبل كيسو[94]. يبعد كل منهم خمسة عشر ميلا عن الآخر. ثمة مياه صالحة في عددٍ من الوهاد، رغم أن مياه

الآبار في جبل أركنو مُرّة، غير صالحة للشرب إلا في حالة الطوارئ. قال ويليامسون إن ثلاثة أودية شكّلت زرزورة لكنه لم يحدّد أمكنتها قط، وهذا يُعتبر خُرافة. مع ذلك، إن وجود واحة واحدة مَطَريّة في هذه التلال التي تشبه فوهات البراكين ستحل لغزَ كيف استطاع قمبيز وجيشه أن يحاولوا عبور صحراء كهذه، والغارات السنوسيّة أثناء الحرب العظمى، حين عبر الغزاة السُّود العمالقة صحراء كان من المفترض أنها تخلو من المرعى والماء. هذا عالمٌ حُضِّرَ طُوال قرون، شقّه ألف ممر وطريق.

عثرنا على قوارير في أبو بالاس[95] على شكل القارورة اليونانية الضيقة الكلاسيكية، ولقد تحدث هيرودوتس عن جرار كهذه.

تحدّثتُ وبيرمان مع عجوز غامض يشبه الأفعى، في حِصن الجوف، في الصالة الحجرية التي كانتْ مرّة مكتبة الشيخ السنوسي الأكبر. عجوز من قبيلة التّبو، دلّال قوافل بالمهنة، يتحدث لغة عربية ركيكة، وصفها فيما بعد بيرمان مقتبسا هيرودوتس: «مثل صُراخ الخفافيش». تحدّثنا معه طوال النهار والليل، ولم يبح لنا بشيء. إن المبدأ الأول في العقيدة السنوسية هو أن لا يكشفوا أسرار الصحراء للغرباء.

في وادي الملك[96]، رأينا طيورًا من فصائل مجهولة.

في 5 أيار تسلقت جرفا صخريا واقتربتُ من جبل العوينات من جهة أخرى. وجدتُ نفسي في وادٍ واسع مليء بأشجار السنط.

مرّ وقتٌ سَمّى فيه راسمو الخرائط الأماكنَ التي تنقّلوا فيها بأسماء عشيقات غير عشيقاتهم. شوهِدتْ امرأة تستحمّ في قافلة صحراوية رافعة قطعة نسيجٍ قطني بإحدى ذراعيها أمامها. كانت حبيبة شاعر عربي قديم جعله بياض كتفيها

يسمّي واحةً باسمها. الدّلو الجلدي يسكبُ الماء عليها، تلفّ نفسها بقطعة قماش، فيتحوّل الشاعر القديم من وصفها إلى وصف الزّرزورة.

هكذا يستطيع الإنسان في الصّحراء أن يدخُل في اسمٍ ما، كما يدخل بئرا مكتشفة فتُغريه برودتها المظلّلة بأن لا يغادر مكانا كهذا أبدا. كانت رغبتي العظيمة هي أن أبقى هناك بين أشجار السنط تلك. لم أكن أمشي في مكان لم يدخله أحد من قبل، بل في مكان كان يوجد فيه سُكّان مدهشون لفترة قصيرة عبر القرون، جيش من القرن الرابع عشر، قافلة لقبيلة التبو، المُغيرون السنوسيون عام 1915. وفي الفترات التي تتخلّل هذه الأوقات لا يكون هناك أي شيء. لا تتساقط الأمطار، تذوي أشجار السنط وتجف الأودية.... إلى أن يعاود الماء الظهور فجأة بعد خمسين عامًا أو مئة، ظُهُورات واختفاءات متقطعة، كالأساطير والشائعات عبر التاريخ.

في الصحراء تُحمل المياه التي تُحَبّ أكثر من أي شيء كاسم العاشقة، زرقاء بين يديك وتدخل حنجرتك. يَبْلعُ المرءُ الغياب.

ترفع امرأة في القاهرة جسدها الأبيض الطويل فوق فراشها وتمد جسمها من النافذة إلى العاصفة المطرية لتسمح لعُريها بتلقيها.

تنحني هانا إلى الأمام، شاعرة بذهنه الشّارد المتنقّل، تراقبه ولا تتفوّه بكلمة. من هي تلك المرأة؟

إن نهايات الأرض ليست أبدا تلك النقاط على الخريطة التي يدفعها المستعمرون موسعين دائرة نفوذهم. في جانب واحد خَدَم وعبيد ومدّ القوة والمراسلات مع الجمعية الجغرافية. في الجانب الآخر الخطوة الأولى التي يقوم بها رجل أبيض عبر نهر كبير، الرؤية الأولى للعين المجردة لجبل كان هناك دوما.

حين نكون شبّانا لا ننظُر في المرايا. ننظر حين نشيخ ونهتم باسمنا وأسطورتنا وماذا ستعني حيواتنا للمستقبل. نُصبح مغرورين بالأسماء التي نمتلكها، بادّعاءاتنا بأننا كُنّا الأعين الأولى، والجيش الأقوى، والتاجر الأذكى. إن نرسيس

طلب صورة منحوتة لنفسه حين شاخ.
لكننا كنّا مهتمين في كيف تستطيع حيواتنا أن تعني شيئًا للماضي، أبحرنا إلى الماضي، كُنّا شُبّانا. عرفنا أن القوّة والمال الكثير أشياء عابرة. فهمنا جميعنا ما عناه هيرودوتس: إن تلك المدن التي كانت عظيمة في الأزمنة الأولى لابدّ أنها صارت ضعيفة الآن وتلك التي كانت عظيمة في زمني كانت ضعيفة في الزمن السابق... إن ثروة الإنسان الجيدة لا تمكث أبدا في المكان نفسه.

عام 1936، قابل شاب يُدعى جيوفري كليفتون صديقا في أوكسفورد ذكَر له ما كنا نقوم به. اتصل بي، تزوّج في اليوم التالي، وبعد أسبوعين طارَ مع زوجته إلى القاهرة.
دخل الزوجان عالمنا نحن الأربعة، الأمير كمال الدين، بيل، ألماسي ومادوكس. كان الاسم الذي ما زال يملأ أفواهنا هو الجلف الكبير. في مكانٍ من الجلف، تقع الزّرزورة، التي يرِد اسمها في الكتابات العربية التي تعود إلى القرن الثالث عشر. حين تسافرين بعيدا هكذا في الزمن، تحتاجين إلى طائرة، وكان الشاب كليفتون غنيًّا ويمتلك طائرة ويستطيع أن يسافر فيها.
قابلنا كليفتون في حِصن الجوف شمال جبل العوينات. جلس في طائرته ذات المقعدين وسرنا نحوه من مخيّم القاعدة. وقفَ في ركن الطيار وسكبَ كأس نبيذ من دورقه. كانت زوجته الجديدة تجلس قربه. ثمّ صاحَ:
«أسمّي هذا المكان النادي الريفي بير مَسَاحة!»
راقبت الشكّ الودّي المبعثر على وجه زوجته، وشعرها الذي يشبه لمّة الأسد حين نزعتْ الخوذة. كانا شابّين وشَعَرنا أنهما أولادنا. خرجا من الطائرة وصافحانا.
إنّه العام 1936، بداية قصّتنا...
قفزا عن جناح الموث[97]. سار كليفتون نحونا حاملا الدورق وشربنا جميعا النبيذ الساخن. كان شخصا مناسبا للحفلات. سمّى طائرته الدُبّ روبرت[98]. لا أعتقد أنه أحب الصحراء، لكنه يمتلك عاطفة تجاهها نجمت عن نظامنا الصارم الذي

أراد أن يلائم نفسه فيه، كطالب غير متخرجٍ، يحترم الصمت في المكتبة. لم نتوقّع أن يحضر زوجته، لكننا كنا، كما أعتقد، وديّين معها، وقفتُ هناك بينما يتجمّع الرّمل في عُرف شعرها.

ماذا كنا بالنسبة إلى ذينك الزوجين الشابين؟ ألّفَ بعضُنا كتبًا عن تشكّل الكثيب، عن اختفاء الواحات وظهورها، عن ثقافات الصحاري المفقودة، بدا علينا اهتمامنا فقط بالأشياء التي لا تُشترى أو تُباع، التي لا تهمّ العالم الخارجي. تجادلنا حول الارتفاعات أوعن واقعةٍ حدثت منذ سبعمئة عام. نظريات الاستكشاف. عبد الملك إبراهيم الزوايا، ذاك الذي عاش في واحة الزّوك، يرعى الجمال. إنّه الرجل الأول بين رجال القبائل الذي استطاع أن يفهمَ الصّوَر الفوتوغرافية.

كليفتون وزوجته في الأيام الأخيرة من شهر عسلهما. تركتهما مع الآخرين وذهبت لأنضم إلى رجل في الكُفرة، وأمضيت أياما معه محاولا أن أحلل نظريات لم أُفشِ سرها لبقية البعثة.

عدت إلى مخيّم القاعدة في حِصن الجوف بعد ثلاث ليال.

نار الصحراء بيننا: كليفتون وزوجته، مادوكس، بيل وأنا. لو استند رجل إلى الخلف بضعة إنشاتٍ فسيختفي في الظُّلمة. بدأت كاثرين كليفتون تقرأ شيئا ولم يعد رأسي في هالة النار الحطبيّة للمعسكر.

ثمّة دماء أكاديميّة كلاسيكيّة في وجهها: والداها معروفان في عالم تاريخ القانون. وأنا رجل لم يستمتع بالشِّعر إلى أن سمع امرأة تلقيه.

في الصحراء، جلبت حياتها الجامعية وسطنا لكي تصف النجوم – كما علّمَ آدم المرأة، بكثير من الرقّة، المجازات المَجيدة:

هذه إذن – رغم أننا لا نراها في جنح الليل –
لا تسطع عبثًا! ولا تظنّ أنه لو تلاشى الإنسان فسوف
تفتقر السماء إلى الناظرين، أو يفتقر الله إلى الحامدين!
إن ملايين الكائنات الروحية تذرع الأرض

خفية، في صَحونا وسباتنا،
وكلّ يتأمل بدائعه فلا يني يسبح بحمده
نهارًا وليلًا. كم مرّة تصاعدت الأصوات من أعماق
التلال ذات الأصداء، أو من الأدغال فتناهت إلى أسماعنا
أصوات سماوية تغشى هواء الليل البهيم
إما منفردة أو يتجاوب بعضها مع بعض
وهي تتغنى بعظمة الخالق[99]

تلك الليلة عشقتُ صوتًا، فقط صوتا، لم أرد أن أسمع أي شيء آخر. نهضتُ، وسرتُ مبتعدا.

لقد كانت صفصافة. كيف ستبدو في شتاء الحياة، في مثل عمري؟ ما زلت أراها، دومًا، بعينَي آدم. تلك التي نزلت من الطائرة بأطراف مرتبكة، انحنت وسطنا تحتَّ النار بكَوع مرفوع مُستدقّ يُشير إليّ، كأنها تشرب من قِرْبة.
بعد بضعة شهور رقصت الفالس معي حين رقصنا جميعًا في القاهرة. ورغم أنها كانتْ سكرى قليلا، فإنّها حافظت على وجهها دون تعابير. حتى الآن أعتقد أن الوجه الذي كشفها أكثر هو ذلك الذي كان دون تعابير حين كنّا معًا نصف سكارى، لا عاشقين.
حاولتُ في تلك الأعوام كلها أن أكتشف ماذا كانت تمنحني مع تلك النظرة، بدا أنه الاحتقار، هكذا بدا الأمر لي. أعتقد الآن أنها كانت تدرسني. بريئة، مندهشة من شيء ما فيّ. أتصرف بالطريقة التي أتصرّف فيها عادة في الحانات، لكن في هذا الوقت مع الرّفقة الخطأ. أنا رجل يُبقي قواعد سلوكه منفصلة، كنت أنسى أنّها أصغر مني.
كانت تدرسني، أو شيئا من ذاك القبيل، وكنت أراقب حركة واحدة خاطئة في تحديقتها التي تشبه تحديقة التمثال، شيء سيجعلها تستسلم.

أعطني خريطة وسأبني لك مدينة، أعطني قلمَ رصاص وسأرسم لك غرفة في جنوب القاهرة، بمخطّطات صحراوية على الجدار. الصحراء بيننا دائما، وكنت أستيقظ وأرفع عينيّ إلى خريطة المستوطنات القديمة على ساحل المتوسط – غزالة، طبرق، مرسى مطروح – وإلى الجنوب منها تلك الأودية المرسومة باليد، تُحيط بها ظلال الصُّفرة التي غزوناها، التي حاولنا أن نضيع فيها.

إن مهمّتي هي أن أصف باختصار البعثات العديدة التي غزَت الجلف الكبير. سيعيدنا الدكتور بيرمان فيما بعد إلى الصحراء كما وُجدت منذ آلاف السنين....

هكذا يتحدث مادوكس مع الجغرافيّين الآخرين في كينسينغتون غور. لكنك لا تعثرين على ممارسة الزنا، مثلًا، في محاضر الجمعية الجغرافية. لا تظهر غرفتنا أبدا في التقارير المفصّلة التي ترسم مخطّط كلّ عُقدة وحادث في التاريخ.

في شارع الببغاوات المستوردة في القاهرة، تُهيمن الطيور الناطقة على المرء، الطيور تُصدر أصواتا مرتفعة وتصفّر في صفوف كشارعٍ مُرَيَّش، كنت أعرف أي قبيلة ارتحلت، أيّ طريق حرير أو جِمال حملها في محفاتها الصغيرة عبر الصحراء، رحلات تستمر أربعين يوما، بعد أن يصطاد العبيد الطيور أو يقطفوها كالأزهار من الحدائق الاستوائية ويضعوها في أقفاص خيزرانية لتدخل النهر الذي هو التجارة، تظهر كالعروس في خطبة قروسطية.

وقفنا بينها، كنت أريها مدينة جديدة عليها.

لمسّت رسغي.

«إذا حمّلتُكَ حياتي، فسوف تُسقطها، أليس كذلك؟»

لم أقلْ شيئا.

٧

کاترین

أوّل مرّة رأته في أحلامها، استيقظت قرب زوجها وهي تصرخ في غرفة نومهما. حدّقت إلى الملاءة وفمها مفتوح. وضع زوجها يده على ظهرها.

«إنه كابوس، لا تقلقي».

«نعم».

لم تتحرك، لم تعاود الاستلقاء كما كانا.

حدث الحلم في هذه الغرفة، يده على عنقها (تلمسها الآن). أحسّت بغضبه منها في المرّات الأولى التي قابلته فيها. لا، ليس غضبًا، بل قِلّة اهتمام. الانزعاج من امرأة متزوّجة بينهم. لقد أُحْنيا كحيوانين، وشُدّ عنقها بنَيْر فأصبحت غير قادرة على التنفّس أثناء استيقاظها.

أحضر لها زوجها كأس ماء في صحن، لكنها لم تقدر أن ترفع ذراعيها، إنهما ترتجفان وترتخيان. وضع الكأس بارتباك عند فمها بحيث تستطيع أن تتجرع الماء المطهّر بالكلور، يندلق بعضه على ذقنها ويسقط على معدتها، حين استلقت لم تمتلك الوقت لتفكّر بما شاهدت، وغرقتْ في نومٍ سريعٍ وعميق.

كان هذا هو التعرّف الأول، تذكّرته في أحد الأوقات في اليوم التالي، لكنها كانتْ مشغولة آنذاك ورفضت أن تفكّر في مغزاه طويلا وطردته. كان اصطداما عرضيا في ليلة مزدحمة لا أكثر.

بعد عام جاءت الأحلام الأخرى الأكثر راحة وخطرا. وحتى في الحلم الأول تذكّرت اليدين على عنقها وانتظرت أن يتحوّل مزاج الهدوء بينهما إلى عُنْف.

من يضع فُتات الطعام الذي يغويك، يشدّك نحو شخص لم تُفكّر فيه قط؟ حلمٌ، ثم، فيما بعد، سلسلة أخرى من الأحلام.

قال فيما بعد إنه القرب الزماني والمكاني، قُربٌ في الصحراء. قال، إنه يفعل هذا هنا، أحبَّ الكلمات: قرب الماء، قرب جسدين أو ثلاثة في سيارة تعبر بحر الرّمال الأعظم ستّ ساعات، ركْبتها المتعرقة قُربْ علبة الشاحنة، تنحرف الركبة، ترتفع مع الارتطامات. تمتلك في الصحراء الوقت كي تنظر إلى جميع الأمكنة، كي تنظر إلى رقص جميع الأشياء حولك.

حين تحدث هكذا كرهته، وبقيتْ عيناها مهذّبتين، أمّا ذهنها فأراد أن يصفعه، وأدركت أن هذا كان جنسيًّا، بالنسبة إليه تدخل جميع العلاقات في نماذج. تقع في القرب أو البعد، كما وضّح تاريخ هيرودوتس بالنسبة إليه جميع المجتمعات. افترض أنه خبيرٌ بطرق العالم الذي غادره منذ أعوام مصارعًا منذ ذلك الوقت ليستكشف عالما صحراويا نصف مُخْتَرع.

t.me/ktabpdf t.me/ktabrwaya

في مهْبَط الطائرات في القاهرة، حمّلوا العدّة في عربات، وبقيَ زوجها ليفحص أنابيب الوقود في طائرة الموث قبل أن يغادر الرجال الثلاثة في الصباح التالي. ذهبَ مادوكس إلى إحدى السفارات ليرسل برقية، وسيذهب إلى البلدة ليشرب الكحول، المساء الأخير المعتاد في القاهرة، أوّلا في كازينو دار الأوبرا للمدام يادين، وفيما بعد يختفي في الشوارع خلف فندق الباشا. سيحزم حقائبه قبل أن يبدأ المساء بحيث يصعد إلى الشاحنة في الصباح التالي متعبا فقط.

وهكذا ساقَ بها إلى البلدة، الهواء رطب، حركة المرور سيئة وبطيئة في هذه الساعة.

«إن الحرارة خانقة، أريد جُعَة، هل تريد واحدة؟»

«لا، أريد أن أرتب أشياء كثيرة في الساعتين القادمتين، يجب أن تعذريني».

قالت:» حسنا لا أريد أن أتدخّل».

«سأتناول واحدة معك حين أعود».

«بعد ثلاثة أسابيع، حسنا؟»

«تقريبا».

«أتمنى لو أذهب أيضا».

لم يقل شيئا ليجيبَ عن هذا. عبرا جسر بولاق وأصبح الازدحام المروري أكثر سوءا. عربات كثيرة، مُشاة كُثُر امتلكوا الشارع. انعطف جنوبا على طول النيل نحو فندق سميراميس، حيث كانت تمكث تماما وراء الثكنات.

«ستعثر على الزّرزورة هذه المرة، أليس كذلك؟»

«سأجدها هذه المرة».

لم يغيّر عاداته، نادرا ما نظر إليها وهو يسوق، حتى حين توقفا خمس دقائق في إحدى النقاط.

عندما وصلا الفندق، كان مهذبا معها بإفراط. حُبّها له يقلّ حين يتصرف بهذه الطريقة، على الجميع أن يتظاهروا أن هذه الوضعية مجاملة وكياسة. ذكّرها هذا بكلب يرتدي ثيابا. ليذهب إلى الجحيم. لو لم يكن يجب على زوجها أن يعمل معه، لفضّلتْ ألّا تشاهده مرة أخرى.

أنزل حقيبتها من العربة وكان على وشك أن يأخذها إلى رواق الفندق.

«أستطيع أن أحمل هذه».

كان قميصها مبللا من الخلف حين نزلت من مقعدها.

عرض البوّابُ أن يأخذ الحقيبة، لكنه قال: «لا، إنها تريد أن تحملها». وغضبت ثانية من افتراضه. غادرَ البوّاب، استدارت إليه وسلّمها الحقيبة بحيث كانت تواجهه وكلتا يديها تحملان بارتباك الحقيبة الثقيلة أمامها.

«إذن، وداعا، حظا سعيدا!»

«سأعتني بهم جميعا، سيكونون آمنين».

هزّت رأسها، كانت في الظلّ، وهو، كأنه غير واعٍ لضوء الشمس القاسي الذي وقف تحته.

ثم اقترب منها وفكّرتْ لحظة أنه كان سيعانقها، وبدلا من ذلك مدّ ذراعه اليمنى

إلى الأمام ومرّرها في إيماءة على عنقها العاري، وهكذا لمسَ جلدها بطول ساعده الرطب كلّه.

«وداعا».

عاد إلى الشاحنة. استطاعت أن تشعر بعرقه الآن، مثل دماء تركَتْها شَفْرةٌ بدا أن إيماءة ذراعه حاكتها.

تلتقط مخدة وتضعها في حضنها كدرع ضدّه. «إذا مارست معي الجنس لن أكذب حول ذلك. إذا مارستُ معك الجنس فلن أكذب في ذلك».

تضع المخدة على قلبها وكأنها ستخنق ذلك الجزء من نفسها الذي تحرّر.

يسألها: «ما الذي تكرهينه أكثر من أي شيء آخر؟»

«الكذبة، وأنت؟»

«الملكيّة، إذا تركتِني، انسيني».

تنطلق قبضتها نحوه وتضرب بقوةِ العظم تحت عينه تماما، ترتدي ثيابها وتغادر.

سيعود كل يومٍ إلى المنزل وينظر إلى الكدمة السوداء في المرآة. أصبح فضوليا ليس حيال الكدمة بل حيال شكل وجهه. الحاجبان الطويلان اللذان لم يلحظهما قط، بداية الشيب في شعره الرملي. لم ينظر إلى نفسه هكذا في مرآة منذ أعوام. كان ذلك حاجبا طويلا.

لا شيء يمكن أن يبعده عنها.

حين لا يكون في الصحراء مع مادوكس، أو مع بيرمان في المكتبات العربية، يقابلها في حديقة جروبّي، قُرب أشجار الخوخ المرويّة بإفراط. تكون أكثر سعادة هناك. إنها امرأة تشتاق للنداوة، أحبّت دائما الأسيجة الشجرية المنخفضة والسرخس. أما بالنسبة إليه فتبدو هذه الخضرة الكثيرة مثل كرنفال.

ينعطفان من حديقة جروبي إلى المدينة القديمة جنوب القاهرة، حيث الأسواق

التي يذهب إليها الأوروبيون. في غرفته تغطي الخرائط الجدران، ورغم محاولاته تأثيثها، فإنّها ما زالت تحمل إحساس خيمة.
يتعانقان، نبضُ المروحة وظلّها عليهما، اشتغل هو وبيرمان طيلة الصباح في المتحف الأثري واضعين النصوص العربية والتواريخ الأوروبية بعضها قُرب بعض في محاولة للتعرّف على الصدى، على التزامن وتبدّل الأسماء، عابرين هيرودوتس إلى كتاب الكنوز حيث سُمّيتْ الزّرزورة باسم امرأة كانت تستحمّ في قافلة صحراوية. يوجد أيضا الدّوران البطيء لظلّ مروحة. وهناك أيضا التبادل الحميمي وصدى تاريخ طفولة، نَدْبة، أسلوب قُبْلة.

«لا أعرف ماذا أفعل، لا أعرف ماذا أفعل! كيف يمكن أن أكون عشيقتك؟ سيصيبه الجنون»

قائمة جراح.
الألوان المتنوعة للكدمة، لون خمريّ متألّق يقود إلى السُّمرة. الصحن الذي حملته عابرة الغرفة انقذفت محتوياته جانبا وتكسّر على رأسه، صعد الدم في الشّعر القشّي. الشوكة التي دخلتْ قفا كتفه وتركت طعنتها عَلاماتٍ اشتبه الطبيب أن ثَعْلَبا سبّبها.
يدخل في عناقٍ معها محدّقا أوّلا ليرى إن كانت توجد أشياء قابلة للتحريك حولهما. سيقابلها مع آخرين علنًا بكدماتٍ أو رأس مُضَمَّد ويشرح أن التاكسي توقف بشكل مفاجئ فاصطدم بالنافذة الجانبية المفتوحة. أو يظهر واليود على ساعده يغطّي آثار الضرب. قلقَ مادوكس عليه، لأنّه أصبح فجأة ميّالا للتعرّض إلى الحوادث. سخرت بهدوء من ضعف شرحه. ربما هو سنّه، ربما يحتاج إلى نظّارات، كما قال زوجها، لاكزًا مادوكس. قالتْ ربما السبب امرأة قابلها. «انظر، أليست هذه عضة أو خدش امرأة؟»
قال إنها عقرب. عقرب أبو جنزير.

بطاقة بريدية. كتابة يدوية أنيقة تملأ المستطيل:

لا أحتمل نصفَ أيّامي دون أن ألمسك،
وأشعر في النصف الآخر أنّه لا يهمّني
إذا لم أرك مرّة أخرى. ليس ذلك بسبب الأخلاقيّات
بل كم يستطيع المرء أن يحتمل.

لا تاريخ، ولا اسم.

أحيانا حين تتمكّن من قضاء الليل معه، توقظهما ثلاث مآذن في المدينة تبدأ أذانها قبل الفجر. يسير معها عبر أسواق النّيل التي تقع بين جنوب القاهرة ومنزلها. تدخل أناشيد الإيمان الجميلة الهواءَ مثل سِهام. مئذنة تجيب أخرى كأنها تبث إشاعة عنها، وهما يسيران عبر هواء الصباح البارد، بعد أن تكون رائحة الفحم وأكياس الخيش قد جعلت الهواء ثقيلا. مُذْنِبان في مدينة مقدّسة.
حين يكون دونها، يدفع يده عبر الصحون والكؤوس على طاولة مطعم بحيث يمكن أن تنظر إلى مكان آخر في المدينة كي تعرف سبب الضجّة. هو، الذي لم يشعر قط بالوحدة في الأميال الطوال بين البلدات الصحراوية. يستطيع الإنسان في الصحراء أن يمسك الغياب بين كفَّين مكوّبتَين عارفا أنه شيء ما يغذّيه أكثر من الماء. يعرف عن نبتةٍ قرب قرية التاج، إذا شقّ المرء قلبها يخرج سائل له مذاق عطريّ. كل صباح يستطيع المرء أن يشرب السائل الذي بحجم قلبٍ مُفتقَد. تُواصل النبتة الازدهار طوال عامٍ قبل أن تموت بسبب افتقاد مادّة مُغذية أو أخرى.
يستلقي في غرفته محاطا بخرائط شاحبة. إنه دون كاثرين. يرغب أن يحرق جوعه جميع القواعد الاجتماعية والكياسات.
لم تعد تهمّه حياتها مع الآخرين. يريد فقط جمالها الشامخ، مسرح تعبيراتها، يريد

الانعكاس الدقيق والسرّي بينهما، عمق الحد الأدنى للمجال البصري، غرابتهما الحميمية كصفحتين في كتاب مُغلق.

لقد فكَّكَتْهُ.
وإذا كانتْ قد سبّبت هذا له، فما الذي سبّبه لها؟

حين تكون وراء جدار طبقتها الاجتماعيّة، فيما هو إلى جانبها، وسط مجموعة أكبر من الناس، يروي نكاتٍ لا يضحك هو نفسها لها. وبإلحاحٍ غريب، يهاجم تاريخ الاستكشاف. حين لا يكون سعيدا يفعل هذا. مادوكس فقط هو من يعرف هذه العادة فيه. لكنها لن تجعل بصرها يلتقي ببصره. تبتسم للجميع، للأشياء في الغرفة، تمتدح ترتيب زهرةٍ، أشياء شخصية لا قيمة لها، تُسيء تفسير سلوكه، مفترضة أن هذا هو ما يريده، فتُضاعف حجم الجدار لتحمي نفسها.
لكنه الآن لا يستطيع أن يتحمّل هذا الجدار فيها. تقول له: «لقد بنيتَ جدرانك أيضا وهكذا لدي جداري». تقول ذلك متوهجة في جمالٍ لا يستطيع أن يقاومه. هي بثيابها الجميلة، بوجهها الشاحب الذي يضحك لكل من يبتسم لها، بابتسامة غير مؤكدة لنكاته الغاضبة، يتابع تصريحاته المروّعة حول هذا وذاك في بعثةٍ ما يعرفها الجميع.

في اللحظة التي تستدير فيها كي تغادره في رواق حانة جرويّ، بعد أن يودعها، يفقد عقله. يعرف الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن يقبل فقدانها، وهي إذا كان يستطيع أن يحتفظ بها أو تحتفظ هي به. إذا كان بوسعهما نوعا ما أن يساعدا بعضهما على الخروج من هذا، وليس جدارا.
تغمر أشعة الشمس غرفته القاهرية. يده واهنة فوق يوميّات هيرودوتس، والتوتر يحتلّ بقية جسمه، وهكذا يكتب كلمات خاطئة، القلم يدبّ وكأنه دون عامود فقري. بالكاد يستطيع أن يكتب ضوء الشمس، أو واقع في الحبّ.

في الشقة يجيء الضوء فقط من النهر والصحراء التي خلفه. يسقط على عنقها وقدميها وندبة اللقاح على ذراعها اليُمنى التي يحبها. تجلس في السرير عارية. تنزلق راحة كفه المفتوحة على عرق كتفها. هذه كتفي، يفكّر، ليست كتف زوجها، هذه كتفي. كعاشقين قدّما أجزاء جسديهما لبعضهما هكذا. في هذه الغرفة التي هي في محيط نهر.

في الساعات القليلة التي يمتلكانها، يعتم الضوء إلى هذا القدر، ضوء نهر وصحراء فقط. حين تحدث الصدمة النادرة للمطر يتجهان إلى النافذة ويمدان ذراعيهما ويتمدّدان ليستحمّا قدر الإمكان تحته. الصرخات التي تبتهج بالمطر الذي لم يستمر طويلا تملأ الشوارع.

«لن نحب أبدا بعضنا ثانية. لا نستطيع أن نلتقي أبدا».

يقول: «أعرف».

ليلة إصرارها على الفراق.

تجلس مطوّقة نفسها بدرع ضميرها المريع، لا يقدر أن يدخل عبره، فقط جسمه قريبٌ إليها.

«لن نلتقي أبدا، مهما حدث».

«نعم».

«أعتقد أنه سيجنّ، أتفهم؟»

لا يقول شيئا ويتوقف عن محاولة جذبها إليه.

بعد ساعة يسيران في ليلٍ جاف. يستطيعان سماع أغاني الفونوغراف في المسافة من سينما الموسيقا للجميع ذات النوافذ المفتوحة بسبب الحرارة. يجب أن يفترقا قبل أن تُغلق ويخرج منها بشرٌ يمكن أن يتعرّفوها.

يدخلان إلى الحديقة النباتية، قرب كاتدرائية جميع القدّيسين. تشاهد دمعة وتنحني إلى الأمام وتلعقها وتضعها في فمها. كما امتصّت دمَ يده حين جرحها وهو يطبخ لها. دمٌ ودمعٌ. يشعر أن كل شيء يضيع من جسمه. يشعر أنه يحتوي دخانا. إنّ الحياة هي الرغبة في معرفة المستقبل وإرادته. ما يودّ أن يقوله لا يقدر أن

يتفوّه به لهذه المرأة التي انفتاحها كجرحٍ، التي شبابها غير فانٍ بعد. لا يستطيع أن يبدّل ما يحبه فيها أكثر من أي شيء، وهو افتقارها للمرونة، خاصة أن مضامين القصائد التي تحبها ما تزال تتجلى في العالم الواقعي. خارج هذه الصفات يعرف أنه لا يوجد نظامٌ في العالم.

في ليلة إصرارها هذه، 28 أيلول، جفّف القمر الحار المطر في الأشجار. لم تبق قطرة واحدة لتسقط عليه كدمعة. حدث هذا الفراق في حديقة جروبّي. لم يسأل إن كان زوجها في المنزل، في مربع الضوء المرتفع ذاك، في الجهة الأخرى من الشارع. يشاهد الصف الطويل لأكفّ المسافرين فوقهما، يرى أرساغهم الممدودة، الطريقة التي ارتفع بها شعرها ورأسها فوقه، حين كانت عشيقته.

الآن لا قبلة. عناق واحدٌ فقط. يحرّر نفسه منها ويبتعد ثم يلتفت. كانت ما تزال هناك. يقترب منها بضع ياردات وترتفع إصبع لتقوم بإشارة.

«أريدك فقط أن تعرفي أني لم أشتق إليك بعد».

كان وجهه مريعا بالنسبة إليها وهو يحاول أن يبتسم. ينحرف رأسها عنه ويضرب جانب عمود البوابة، يرى أن هذا يؤلمها، يلاحظ إجفالتها، لكنهما كانا قد انفصلا في أعماقهما، وارتفعت الجدران بسبب إصرارها. إجفالها وألمها عَرَضيّان، مقصودان، يدها قُرْب صدغها.

«ستفعل» تقول له.

همست له من قبل: «من هذه النقطة فصاعدا في حياتنا إما سنعثر على روحينا، أو سنفقدهما».

كيف حدث هذا؟ أن تقع في الحب وتتفكّك. كنتُ بين ذراعيها. رفعت كمّ قميصها إلى الكتف لأرى ندبة اللقاح. قلتُ لها أحبُّ هذه الهالة الشاحبة على ذراعها. أرى الإبرة تخدش ثم تحقنها بالمصل وتحرّر نفسها من جلدها، منذ أعوام، حين كان عمرها تسعة أعوام في غرفة رياضية في مدرسة.

٢١

طائرة مدفونة

يحملق إلى نهاية الفراش الطويل، حيث هانا. بعد أن حمّمَته، كسرت سُدادة زجاجة واستدارت نحوه بالمورفين. تِمثال. فِراش. يركب قارب المورفين. ينطلق به مسرعًا مفجّرًا الزّمن والجغرافيا كما تضغط الخرائط العالمَ على ورقة برسمة ذات بُعدَين.

مساءات القاهرة الطويلة. بحر السماء الليلية. صقورٌ في صفوف، إلى أن تتحرّر عند الغسق وتدور نحو اللون الأخير للصحراء. تناسقٌ في الأداء كحفنة بذارٍ نُثِرَتْ. كان في وسعك أن تشتري كل شيء في تلك المدينة عام 1936 من الكلب إلى الطائر الذي يجيء بصوتٍ خافتٍ أو صفرةٍ، إلى تلك الأرسان المربعة التي تدخل في أصغر إصبع للمرأة بحيث تبقى مقيدة إليك في سوقٍ مزدحم.
هناك في القسم الشمالي الشرقي من القاهرة، الساحة الكبيرة لطلاب الدّين، ووراءها يمتدّ سوق خان الخليلي. نظرنا فوق الشوارع الضيقة إلى القطط على السقوف الصفيحية المتغضّنة، التي كانت تنظر أيضا إلى الياردات العشرة التالية من الشارع وأكشاكه. كانت غرفتنا فوق كل هذا. نوافذ مفتوحة على مآذن وفلوكات وقطط وضجة كبيرة. حدّثَتْني عن طفولتها في الحدائق. حين لم تقدر على النوم رسمتْ لي حديقة أمّها، كلمة كلمة، مسكبةً مسكبة، جليد كانون الأول في بركة السمك، صرير شبكة تعريشة الورد. ستمسك رسغي عند التقاء الشرايين وتقودني إلى الانبعاج المجوّف في عنقها.

آذار عام 1937، جبل العوينات، مادوكس مستاء من رقّة الجوّ، ألف وخمسمئة قَدَم فوق سطح البحر، ليس مرتاحا في هذا لارتفاع. إنه رجل صحراء قبل كل شيء، فبعد أن غادر عائلته في قرية مارستون ماغنا، مقاطعة سمرست من إنجلترا، بدّل جميع الأعراف والعادات لكي يستطيع أن يقترب من سطح البحر والجفاف المنتظم.

«مادوكس، ما اسم ذلك الانبعاج في قاعدة عنق المرأة؟ في المقدمة؟ ذلك التجويف الذي بحجم أثر إبهامك؟».

يراقبني مادوكس لحظة عبر وهج الظهيرة.

«تماسَكْ» يهمهم.

يوقظ كارافاجيو هانا: «دعيني أروي عليك قصّة. كان هناك هنغاريٌّ يُدعى ألماسي، اشتغل لدى الألمان أثناء الحرب، طارَ قليلا مع الفيالق الأفريقية، لكنه أكثر قيمة من هذا، فهو في الثلاثينيات واحدا من عظماء الاستكشاف الصحراوي. عرفَ جميع آبار الماء وساعدَ في رسم خريطة بحر الرّمال الأعظم. عرفَ كلّ شيء عن الصحراء ولهجات أهلها. هل يبدو هذا مألوفا؟ خلال الفترة بين الحربَين، دائما تواجد في البعثات خارج القاهرة، وإحداها تبتغي العثور على الزّرزورة، الواحة الضائعة. ثم حين اندلعت الحرب انضمَّ إلى الألمان. عام 1941 أصبح دليلا للجواسيس كي يساعدهم في عبور الصحراء إلى القاهرة. ما أريد أن أقوله لك هو أنني أعتقد أن المريض الإنجليزي ليس إنجليزيا.

«بالطبع هو إنجليزي، ماذا عن مساكب الأزهار في كلوسيسترشر».

«بالضبط، كل هذا خلفية تامّة. منذ ليلتين، حين كنا نحاول أن نسمّي الكلب، أتذكرين؟»

«نعم».

«ماذا كانت اقتراحاته؟»

«كان غريبا تلك الليلة»

«كان غريبا جدا لأني أعطيته جرعة إضافية من المورفين. هل تذكرين الأسماء؟ لقد ذكر حوالي ثمانية أسماء. خمسة منها لا معنى لها، وبقيت ثلاثة أسماء: شيشرون، الزرزورة، الدليلة».

«ماذا تعني؟»

« شيشرون هو اسم شفرة لجاسوس، اكتشفه البريطانيون. عميل مزدوج، ثم ثلاثيّ، لقد هربَ. الزّرزورة أكثر تعقيدا».

«أعرف عن الزّرزورة. لقد تحدّث عنها، تحدث أيضا عن الحدائق».

«لكنه يتحدث أكثر عن الصحراء الآن. إن الحديقة الإنجليزية تنحل. إنه يحتضر. أعتقد أن لديك مساعد الجواسيس ألماسي في الدور العلوي».

يجلسان على السلال القصبيّة القديمة في غرفة الستائر الكتّانية ناظرين إلى بعضهما. يهزّ كارافاجيو كتفيه دون مبالاة: «أهذا ممكن؟»

تقول: «أعتقد أنه إنجليزي». وهي تمصّ خدّيها كما تفعل دائما حين تفكّر أو تتأمّل شيئا يخصّها.

«أعرف أنك تحبين الرجل، لكنه ليس إنجليزيا. في الجزء الأول من الحرب كنتُ أعمل في القاهرة، محور طرابلس. جاسوس رومل، ربيكا».

«ماذا تعني بجاسوس ربيكا؟»

«عام 1942 أرسلَ الألمان جاسوسا يُدعى إبلر إلى القاهرة قبل معركة العلمَين. استخدم نسخة من رواية ربيكا لدافن دي مورييه ككتاب شفرة ليرسل رسائل إلى رومل حول تحركات القوات. اسمعي، أصبح الكتاب رفيق نوم الاستخبارات الإنجليزية. حتى أنا قرأته».

«قرأت كتابا؟»

«شكرا لك. إن الرجل الذي قادَ إبلر عبر الصحراء إلى القاهرة بأوامر شخصية من رومل، من طرابلس إلى القاهرة، كان الكونت لازلو دي ألماسي. وكانت تلك بُقعة صحراوية افتُرِضَ أنّ لا أحد يستطيع عبورها».

«كان لألماسي أصدقاء إنجليزا بين الحربين، مستكشفين عظيمين. لكن حين نشبت الحرب صفّ مع الألمان. طلبَ منه رومل أن يأخذ إبلر عبر الصحراء إلى القاهرة لأنه سيُكتشف إذا ذهب بالطائرة أو هبط بالمظلّة. عَبَرَ الصحراء معه وأوصله إلى دلتا النيل».

«أنت تعرف الكثير عن هذا؟».

«كنت متمركزا في القاهرة. كنا نتعقّبهما. قادَ مجموعة من ثمانية رجال من جالو إلى الصحراء. كان عليهم أن يحفروا لينتشلوا الشاحنات من التلال الرملية. وجّههم نحو العوينات وجبلها الغرانيتي لكي يؤمّنوا الماء ويعثروا على مأوى في الكهوف. كانت نقطة متوسطة. اكتشف في الثلاثينيات كهوفا تحتوي على رسوم صخرية هناك. لكن الجبل كان يغصُّ بالحلفاء ولم يقدر على استخدام الآبار هناك. انطلق إلى صحراء الرّمل ثانية، أغاروا على مستودعات البنزين البريطانية وعلّقوا لوحاتٍ عسكرية بريطانية على عرباتهم. حين حُدّد موقعهم من الجو اختبأوا في الأودية طوال ثلاثة أيام هادئين بشكل تام، مخبوزين حتى الموت في الرمل.

استغرقوا ثلاث أسابيع للوصول إلى القاهرة. صافح ألماسي إبلر وغادر. هنا فقدنا أثره. استدار وعادَ إلى الصحراء وحيدا. اعتقدنا أنه عبرها ثانية نحو طرابلس. كانت هذه المرة الأخيرة التي شوهدَ فيها. قبض البريطانيون على إبلر أخيرا واستخدموا شفرة ربيكا ليزوّدوا رومل بمعلومات مزيّفة عن العلمَين».

«ما أزال لا أصدق ذلك يا ديفد».

«كان الرجل الذي ساعد في القبض على إبلر في القاهرة يُدعى شمشون».

«دليلة».

«بالضبط»

«ربما هو شمشون».

«ظننتُ ذلك في البداية. كان يشبه ألماسي كثيرا وعاشقا للصحراء أيضا. أمضى حياته في المشرق وتعرّف على البدو. لكن الأمر بالنسبة لألماسي هو أنه استطاع أن يهرب. نحن نتحدث عن شخص تحطّمتْ طائرته. هذا الرجل هو هُنا، محروق بحيث لا يمكن التعرف عليه، الذي بشكل ما انتهى به الأمر إلى ذراعي الإنجليز في بيزا، لكنه ينجو أيضا متظاهرا أنه إنجليزي. درس ألماسي في انجلترا. كان يشار إليه في القاهرة بالجاسوس الإنجليزي».

جلستْ على السلة مراقبة كارافاجيو، قالت: «أعتقد أنه يجب أن نتركه يعيش. لا يهم مع أي جانب كان، أليس كذلك؟»

قال كارافاجيو: «أحب أن أتحدث معه أكثر بعد أن يُحقن بالمزيد من المورفين، لأجعله يتحدث. نتحدث كلانا معه، أتفهمين؟ لنعرف كل شيء. دليلة، زرزورة. عليك أن تعطيه الجرعة البديلة».

«لا يا ديفد، أنت مهووس جدا، لا يهم من هو. لقد انتهت الحرب».

«سأفعل ذلك إذن، سأطبخ كوكتيل برومبتون، المورفين مع الكحول. ابتكروا هذا في مشفى برمبتون في لندن من أجل مرضى السرطان، لا تقلقي لن يقتله هذا، سيمتصّه جسده بسرعة. أستطيع أن أصنعه ممّا لدينا. قدمي له كأسا ثم احقنيه بالمورفين».

راقبته وهو يجلس على السلّة، حادَّ البصر، مبتسما. أصبح كارافاجيو أثناء المراحل الأخيرة للحرب أحد لصوص المورفين العديدين. شمّ رائحة موادها الطبيّة خلال ساعات من وصوله. أصبحت عبوات المورفين مصدرا له الآن، كعبوّات المعجون لصناعة الدمى، هذا ما ظنّته حين شاهدتها أوّل مرّة ووجدتها جذّابة بشكل كبير. كان كارافاجيو يحمل اثنتين منها أو ثلاثا في جيبه طوال النهار مُدخلًا السائل في لحمه. عثرت عليه مرة وهو يتقيّأ من زيادته، منحنيا ومرتجفا في إحدى زوايا الفيلا المظلمة، نظر إلى الأعلى وتعرّف عليها بصعوبة. حاولتْ أن تتحدّث معه لكنه حدّق إلى الخلف. عثر على الصندوق الحديدي للمواد الطبية، وفتحه بقوة لا يعرف مداها إلا الله. مرة حين جرح مهندس الألغام كفه على حديد البوابة، كسر كارافاجيو السدادة الزجاجية بأسنانه ثم امتص وبصق المورفين على اليد السمراء قبل أن يعرف كيب ما هي المادة. ثم دفعه كيب وهو يحدّق غاضبا.

«اتركه وحده. إنه مريضي».

«لن أؤذيه، إن المورفين والكحول يزيلان الألم».

(كوكتيل برومبتون، الثالثة عصْرًا)

أخذ كارافاجيو الكتاب من بين يدي الرجل.

«من أين أقلعت حين تحطّمت طائرتك في الصحراء؟»

«كنت أغادر الجلف الكبير، ذهبت إلى هناك لأحضر شخصا، أواخر آب 1942»

«أثناء الحرب؟ كان لابدّ أن الجميع غادروا»

«نعم، توجد جيوش فقط»

«الجلف الكبير»

«نعم»

«أين هي؟»

«أعطني كتاب كبلينغ، هنا...»

على الصورة المواجهة لصفحة عنوان كيم كانت خريطة بخطّ مُنقَّط للممرّ الذي سلكه الصبيّ والرجل المقدّس. أظهر جزءا من الهند فقط، أفغانستان داكنة مظلمة، وكشمير في حضن الجبال.

يمرر يده السوداء على طول نهر نومي إلى أن تدخل البحر على ارتفاع $23^{o}30$، يتابع تمرير إصبعه سبعة إنشاتٍ غربا ثم عن الصفحة إلى صدره ويلمس ضلعه.

«هنا، الجلف الكبير، تماما إلى شمال مدار السرطان، على الحدود المصرية الليبية».

«ماذا حدث عام 1942 ؟»

«قمتُ بالرحلة إلى القاهرة وكنت عائدا من هناك. انزلقتُ بين الأعداء متذكرا الخرائط القديمة، عاثرا على مخابئ الماء والوقود التي تعود إلى ما قبل الحرب، سائقا نحو العوينات. كان الأمر أكثر سهولة لأنني وحدي. على بعد أميال من الجلف الكبير انفجرت الشاحنة وانقلبت وتدحرجت آليا في الرمل دون أن تمسّني شرارة. دائما يخاف المرء في الصحراء من النار».

كان انفجار الشاحنة مدبرا على الأرجح. هناك جواسيس بين البدو الذين استمرّت قوافلهم في التنقّل كالمدن حاملة البهارات، والهوادج ومستشاري الحكومات أينما ذهبتْ. يوجد في أيّ لحظة بين البدو في تلك الأيام من الحرب إنجليز وألمان أيضا. تركت الشاحنة وبدأت أسير نحو العوينات، حيث كنت أعرف أن هناك طائرة مدفونة».

انتظرْ. ماذا تعني بطائرة مدفونة؟

امتلك مادوكس طائرة في الأيام الأولى، ترك فيها القطع الضرورية فقط، والشيء الوحيد الزائد هو غطاء حجرة الطيار الحاسم في الطيران الصحراوي. علّمني أن أقود الطائرة أثناء الأوقات التي قضيناها في الصحراء وكنا نمشي حول الكائن المغطّى وننتظر كيف يعلق أو يميل مع الريح.

حين طارت طائرة كليفتون التي تُدعى روبرت وسطنا تُركت طائرة مادوكس الكهلة حيث كانت مغطاة بقماش مشمّع وحُشِرَتْ في أحد تجويفات العوينات الشمالية الشرقية، تجمّع الرمل تدريجيا فوقها في السنوات القليلة التالية. لم يعتقد أحدٌ منّا أننا سنراها ثانية. كانتْ ضحية أخرى للصحراء، خلال بضعة أشهر سنعبر الأخدود الشمالي ولا نلمح لها أثرا. كانت طائرة كليفتون التي تصغرها بعشرة أعوام قد دخلتْ إلى قصّتنا.

إذن، كنتَ تسير نحوها؟

نعم، أربع ليالٍ من السير. تركت الرجل في القاهرة وعدتُ إلى الصحراء، كانتْ الحرب في كل مكان. فجأة ظهرت فِرَق البيرمانز والباغنولدز والذين يحملون اسم

سلطان باشا، الذين أنقذوا في أوقات مختلفة حيوات بعضهم بعضا انشقوا الآن إلى معسكرات.
سرتُ نحو العوينات، ووصلت إلى هناك حوالي الظهر وصعدت إلى كهوف الجبل.
فوق البئر التي سُميت عين دوا.
قالت هانا: «يظن كارافاجيو أنه يعرف من أنت».
لم يقل الرجل في السرير شيئا.
«يقول إنك لستَ إنجليزيا. عمل مع الاستخبارات في القاهرة وإيطاليا فترة، إلى أن أُسِرَ. كانت أسرتي تعرف كارافاجيو قبل الحرب، كان لصا، آمن بحركة الأشياء، بعض اللصوص يحبون الامتلاك، مثل بعض المستكشفين الذين تزدريهم، مثل بعض الرجال مع النساء أو بعض النساء مع الرجال. لكن كارافاجيو لم يكن هكذا. كان فضوليا جدا وكريما ومؤهلا ليكون لصا ناجحا. لم تأت أبدا إلى المنزل نصف الأشياء التي كان يسرقها، يعتقد أنك لستَ إنجليزيا».
راقبتْ هدوءه حين تكلّمت. تبين أنه لم يكن يسمع بانتباه ما كانت تقوله، كان غارقا في تفكيره البعيد فقط، بالطريقة التي نظر فيها الدوق إيلنغتون وفكّر حين مثّل في «العزلة».
توقّفتْ عن الكلام.

وصل البئرَ الضّحلة التي تُدعى عين دوا. نزع ثيابه كلها وبلّلها في البئر، وضع رأسه ثم جسمه النحيل في المياه الزرقاء. أُنهكَتْ أعضاؤه من ليالي السير الأربع. نشرَ ثيابه على الصخور وتسلّق عاليا إلى الجلاميد الدائرية خارجا من الصحراء، التي أصبحت الآن عام 1943 ساحة معركة شاسعة، ودخلَ عاريا إلى ظلمة الكهف.
الرجل ذو الذراعين المرفوعتين وغطاء الرأس المريّش، أشكال عديدة في الوضعيّة الصحيحة للسباحين. كان بيرمان مصيبا حين تحدث عن وجود بحيرةٍ قديمة، تابع الدخول إلى البرودة، إلى كهف السبّاحين حيث كانَ قد تركها. كانتْ ما تزال هناك. جرّت نفسها إلى زاوية ولفت جسدها بقماش المظلّة.

لقد وعد أن يعود إليها.

سيكون أكثر سعادة إذا مات في كهفٍ معزولٍ والسباحون على الصخور حولهما. قال له بيرمان إنه في الحدائق الآسيوية تستطيع أن تنظر إلى صخرةٍ وتتخيل الماء. في وسعك أن تحدق إلى الماء في بركة هادئة وتعتقد أن له صلابة الصخر. لكنها امرأة نَمَت مع الحدائق، في النداوة، مع كلماتٍ مثل تعريشة الورد والقنفذ. كان ولعها بالصحراء مؤقتا، بدأت تحبّ قسوتها بسببه وأرادت أن تفهم راحته في عزلتها. كانت دائما أكثر سعادة تحت المطر، في الحمامات المبخرة بهواءٍ رطبٍ، في الرطوبة النائمة. متسلقة من نافذته في تلك الليلة الماطرة في القاهرة مرتدية ثيابها وهي ما تزال مبلّلة لتحضنه كلّه. تماما كما أحبّتْ التقاليد والحفلات الممتعة والقصائد القديمة التي حفظتها غيبا. ستكره أن تموت بلا اسم. بالنسبة إليها كان خطًّا ملموسًا يقود إلى أسلافها وحسب، بينما محا هو الممرّ الذي بزغ منه. اندهش أنها أحبّته رغم صفاتٍ غُفْلٍ كهذه في شخصيته.

وجدها مستلقية على ظهرها، في الوضعية التي يُمدّد فيها ميت في القرون الوسطى. اقتربتُ منها عاريا كما كنت أفعل في غرفتنا في جنوب القاهرة راغبا في تعريتها وما أزال أحبها.

ما الشيء المريع في ما فعلته؟ ألّا نغفر لنعاشق كل شيء؟ نغفر له أنانيته ورغبته ورياءه. طالما نحن باعث ذلك. في وسعك أن تمارس الحب مع امرأة بذراع مكسورة أو مع امرأةٍ مصابة بالحمّى. مرة مصَّتْ الدمَ من جُرحٍ في يدي كما تذوَقْتُ وابتلعت دم طمثها. توجد بعض الكلمات الأوروبية التي لا تستطيع أن تترجمها أبدا بشكل ملائم إلى لغة أخرى. فيلهومالي، غسق القبور. مع المعنى المرافق للحميمية هناك بين الموتى والأحياء.

رفعتها إلى ذراعيّ عن رفّ النوم. نزعت عنها كسوتها كما لو أنها بيت عنكبوت.

حملتُها إلى الشمس، ارتديتُ ملابسي التي جفّت وأصبحتْ هشّة من حرارة الأحجار.

صنعت يداي المتصلتان سرجا لها لتستريح عليه. وحالما وصلت إلى الرمل، رفعتها

بحيث أصبح وجهها فوق كتفي. كنتُ واعيا لخفّة وزنها. اعتدت عليها هكذا بين ذراعيّ، ولقد دارتْ حولي في غرفتي مثل انعكاس بشريّ للمروحة، بذراعين ممدودتين، وأصابع كقنديل بحر.

تحركنا هكذا إلى الأخدود الشمالي الشرقي حيث دُفِنَتْ الطائرة. لم أكن بحاجةٍ إلى خريطة. كان معي وعاء البنزين الذي حملته طول الطريق من الشاحنة المنقلبة، لأنه منذ ثلاث أعوام كنّا عاجزين بدون هذا البنزين.

«ماذا حدث منذ ثلاث أعوام؟».

«لقد أُصيبت. عام 1939، حطّم زوجها طائرته، خطّط زوجها ذلك كجريمة انتحار كانتْ ستشمل ثلاثتنا. لم نكن عاشقين في ذلك الوقت. أعتقد أن معلومات عن العلاقة وصلتْ إليه بطريقةٍ ما».

«إذن كانت مجروحة جدا بحيث لم تستطع أن تذهب معك».

«نعم. الفرصة الوحيدة لإنقاذها هي أن أحاول البحث عن النجدة وحدي».

في الكهف، بعد كل شهور الفراق تلك والغضب، اجتمعا وتحدثا مع بعضهما مرة أخرى كعاشقين. هادمين الجدار الذي شيّداه بينهما بسبب قانونٍ اجتماعي لم يؤمن أيّ منهما به.

في الحديقة النباتية ضربتْ رأسها بعمود البوابة بتصميم وعنف، مبتكرة ردا على أن تكون عاشقة سرية. لن يكون هناك مقصورات في حياتهما، استدار نحوها رافعا ذراعه: «أريدك فقط أن تعرفي أني لم أشتق إليك بعد».

«ستفعل».

أصبح أثناء أشهر فراقهما متهورا ومغرورا. تجنّب رفقتها. لم يستطع أن يحتمل هدوءها حين كانتْ تشاهده. هاتفَ منزلها وتحدّث مع زوجها وسمع ضحكها في الخلفية. كانت فيها فتنة عَلَنيّة تُغري الجميع، وهذا أمرٌ أحبّه فيها. لم يعد يثق

بأي شيء.
شكّ أنها استبدلته بعشيق آخر. فسّر كلّ إيماءة منها لأيّ أحد آخر على أنها شَفْرة وَغْد. أمسكت مرّة مقدّمة سُترة راوندل بخفّة وهزّتها ضاحكة عليه حين غمغم بشيء، وراقبَ المساعد الحكوميّ البريء يومين كي يتأكد إن كان هناك شيء آخر بينهما. لم يعد يثق بتربيتاتها التحبّبيّة له. كانت معه أو ضدّه. كانتْ ضدّه، لم يتحمّل حتى ابتسامتها الحذرة له. إذا ناولته كأسا لن يشرب منها، إذا أشارت أثناء العشاء إلى وعاء فيه زنبقة نِيليّة تعوم، فلن ينظر إليه. زهرة أخرى لعينة فقط. شكّلَت حولها مجموعة جديدة من المقرّبين عزلوه هو وزوجها. لا أحد منهم من دائرة زوجها. يعرف كثيرًا عن الحبّ والطبيعة البشريّة.
اشترى أوراقا بنية شاحبة للفّ السجائر، وألصقها فوق مقاطع من كتب التواريخ تحدّثت عن حروب لم تكن تعنيه في شيء. كتب عليها جميع حُججها ضده. وضعها في الكتاب واهبًا نفسه صوت المراقب، المصُغي، الـ «هُوَ»، فقط.

أثناء الأيام الأخيرة، قبل الحرب، ذهب لآخر مرّة إلى الجلف الكبير كي يُخلي مخيّم القاعدة. من المفترض أن يجلبه زوجها من هناك، الزوج الذي أحبّاهُ كلاهما إلى أن تحابّا.
طارَ كليفتون إلى العوينات ومعه زوجته، ليُحضره في اليوم المحدّد، وانخفض بطائرته فوق الواحة الرائعة جدًّا بحيث أن أوراق شجيرات السنط سقطت إثر ذلك. انزلقت طائرة الموث منخفضة بينما وقف على القمّة المرتفعة وأشار بقماش مشمّع أزرق، ثم دارتْ على محور إلى الأسفل واتجهتْ نحوه مباشرة ثم تحطّمت على الأرض على بُعد خمسين ياردة. خيط دخان أزرق خرج مُلتفًّا من عجلات الهبوط، لم يكن هناك نار.
زوجٌ جُنّ. قتلهم جميعًا، قتل نفسه وزوجته وقتله هو أيضًا، لأنه لا طريقة للخروج من الصحراء الآن.
لكنّها لم تكن ميتة. حرّر الجسد وسحبه من القبضة المغضّنة، قبضة زوجها.

كيف جازَ لك أن تكرهني؟ تهمسُ في كهف السباحين، تتحدث خلال وجعها وجراحها. رسغٌ مفتّت. لقد آلَمْتَني. فعلتُ ما فعلتُ عندما اشتبه بك زوجي. ما أزال أكره هذه العادة فيك، الاختفاء في الصحاري أو الحانات.

لقد تركتِني في حديقة جروبّي.

لأنك لم ترغب فيّ، كأيّ شخص آخر.

لأنَكِ قُلتِ إن زوجك سيُجَنّ. حسنًا، لقد فقد عقله.

ليس لوقتٍ طويل. لقد جُنِنْتَ قَبْله، قَتَلْتَ كلّ شيء فيّ. هلّا قبّلْتني؟ توقّف عن الدّفاع عن نفسك. قبّلني، وناديني باسمي.

التقى جسداهما في العطور، في التعرّق، ليدخُل كلّ واحدٍ منهما تحت ذاك الغشاء الرّقيق المسعور الذي يُسمّى «شخصيّة» وبمصّة لسان، أو عضّة سِنّ، يستطيع كلّ منهما أن يجذب شخصيّة الآخر فينتزعها أثناء ممارسة الحب من جسد الآخر. الآن، في لقاءهما هذا بعد الحادث مباشرة، لا مساحيق تجميل تمسحها عَرَضًا بذراعها، ولا ماء وردٍ يُعطّر فخذيها.

تعتقد أنّك متمرّد على المعتقدات، لكنّك لستَ كذلك. أنت فقط تتحرّك أو تبدّل ما لا تستطيع الحصول عليه. إذا فشلتَ في شيء تنسحب إلى شيءٍ آخر، لا شيء يغيّرك. كم عدد النساء اللواتي حصلت عليهن؟ لقد تركتك لأنني أعرف أنني لن أقدر على تغييرك أبدًا. ستقف في الغرفة هادئا أحيانا، صامتا أحيانا أخرى، وكأن الخيانة العظمى لنفسك هي أن تكشف قطعةً صغيرة أُخرى من شخصيّتك.

تحدّثنا في كهف السباحين. لم نكن بعيدين جدًّا عن الكُفرة الآمنة.

يتوقّف ويرفع يده. يضع كارافاجيو قُرصَ مورفين في الكفّ السوداء ليختفي في فم الرّجل الأسود.

عبرتُ حوض البحيرة الجاف نحو واحة الكُفرة، لا أحمل شيئا سوى الحبال لتقيني من الحرارة وبرد الليل، وتركت كتاب هيرودوتس معها في الكهف. بعد

ثلاثة أعوام، في 1942، سرتُ معها نحو الطائرة المدفونة حاملًا جسدها كأنّه درع فارس.

أدوات البقاء على الحياة في الصحراء مدفونة تحت الأرض: الكهوف، والماء النائم في نبتة مدفونة، والأسلحة، والطائرة. وفي خطّ طول 25، وخطّ عرض 23، حفرت نحو الغطاء المشمّع فظهرَت طائرة مادوكس القديمة تدريجيًّا. الوقت ليل، وحتى في الهواء البارد كنتُ أتعرّق. حملت مصباح الزّيت فوقها وجلست لحظة قُرب الصورة الظلّية لانحناء رأسها. عاشقان وصحراء، ولم أذكر إن كان الضوء من النجوم أو من القمر. الحرب تدور رحاها في الأمكنة الأخرى كلّها.
خرجت الطائرة من الرّمل. لم يكن يوجد طعام، وكنتُ ضعيفا. القماش المشمّع ثقيل جدا. لم أستطع إخراجه فكان عليّ أن أقطعه.
في الصباح، بعد ساعتين من النوم، حملتُها إلى حجرة الطيّار، أدرت المحرك فدار. تحركنا ثم ارتفعنا، متأخرين أعوامًا، إلى السماء.

يتوقف الصوت، ينظر الرجل المحروق مباشرة أمامه في تركيزه المورفيني.
الطائرة الآن أمام عينيه. يحملها صوت المحرّك البطيء بجهد فوق الأرض، لكنّه ينتع مفوّتًا قوّة الدوران، كأنّ إبرةً فوّتَتْ غُرزَةً في نسيج تحيكه. ينفلت غطاؤها منتشرًا في الهواء الصاخب لحُجرة الطيار، صخب مريع بعد أيّام مسيرته في الصمت. ينظر إلى الأسفل فيرى الوقود ينسكب على ركبتيه. يطفُر غُصنٌ من قميصها: غُصن سَنط وعظم. كم يبلغ ارتفاعه فوق الأرض؟ كم هو منخفض في السماء؟
يلمس بطن الطائرة رأس نخلة، ثمّ يدور على محور إلى أعلى فيندلق الوقود على المقعد الذي ينزلق جسمها فيه. تندلع شرارة من عُطْلٍ فتشتعل أغصان ركبتها. يسحبها إلى المقعد قُربَه. يدفع بيديه على زجاج الحجرة لكنها لا تتزحزح، ويدوران في كلّ مكان. كم هو منخفض في السماء؟ تنهار أغصان السّنط، والأوراق تتفتّت،

تبدأ الأعضاء بالاختفاء في امتصاص الهواء. رائحة المورفين على لسانه، كارافاجيو منعكسًا في البحيرة السوداء لعينيه. يعلو وينخفض مثل دَلْو بئر. وجهه ملطّخ بالدماء. إنه يطير بطائرة متعفّنة، تتمزّق الستائر القماشية على الجناحين أثناء السرعة. إنهما جثّة، كم كانت النخلة بعيدة؟ منذ متى؟ يرفع رجليه عن الوقود، لكنهما ثقيلتان، لا طريقة لرفعهما ثانية. إنه عجوز. فجأة، متعبا من العيش دونها وغير قادر أن يستند إلى ذراعيها وأن يثق بها لتحرسه ليلا ونهارا حين ينام، لا يملك أحدا. إنه منهك، لا من الصحراء، بل من العزلة. ذهب مادوكس. صارت المرأة أغصانا وأوراقا، والزجاج المحطم في الأعلى مثل فَكّ فوقه.

ينسلّ إلى عُدّة المظلّة ويدور رأسا على عقب، يتحرّر من الزجاج وتقذف الريح جسده إلى الخلف، ثم تتحرّر ساقاه من كلّ شيء، ويكون في الجوّ، متوهّجًا ولا يعرف لماذا هو متوهّج حتى يُدرك أنه يحترق.

تستطيع هانا أن تسمع الأصوات في غرفة المريض الإنجليزي وتقف في الصالة محاولة أن تعرف ماذا يقولان.

كيف هي؟

رائعة.

الآن دوري.

آه! رائع! رائع!

إنها أعظم الابتكارات

اكتشافٌ هامّ أيّها الشاب.

حين دخلت الغرفة، رأت كيب والمريض الإنجليزي يتبادلان عُلبة حليب مكثّف. يمتصّ الإنجليزي من العُلبة ثم يبعدها عن وجهه ليمضغ السائل الكثيف. مُبتهجًا أمام كيب الذي يبدو منزعجًا لأنّه لا يشعر بمثل تلك البهجة إزاء شُرب الحليب المكثّف. ينظر مهندس الألغام إلى هانا ويحوم حول السرير مفرقعا أصابعه مرتين، ثم ينجح أخيرا في سحب العلبة بعيدا عن الوجه الأسود.

«لقد اكتشفت أنا والصبي مُتعة متبادلة. بالنسبة إليّ رحلاتي في مصر، وبالنسبة إليه رحلاته في الهند».

يسأل مهندس الألغام:» هل حدث وتناولت فطيرة حليبٍ مكثّف؟»

تنقل هانا عينيها بينهما.

يحدّق كيب إلى العلبة، يقول: «سأحضر واحدة أخرى»، ويغادر الغرفة.

تنظر هانا إلى الرّجل الذي في السرير.

«أنا وكيب لَقيطان عالميّان! وُلدنا في مكان، واخترنا العيش في مكانٍ آخر. عاركنا لنعود إلى أوطاننا أو نخرج منها طوال حياتنا، رغم أن كيب لا يعرف هذا بعد. لهذا السبب علاقتنا جيّدة».

يثقب كيب في المطبخ علبة حليب مكثّف جديدة ثقبين بحربته التي يبدو أنها تُستخدم الآن لهذا الغرف فقط. ثم يصعد راكضا إلى غرفة النوم.

قال مهندس الألغام: «لابدّ أنك رُبّيت في مكانٍ آخر، إن الإنجليز لا يمتصّون بهذه الطريقة».

«عشتُ بعض الأعوام في الصحراء. تعلّمتُ كل شيء أعرفه هناك. إن كل ما هو هام بالنسبة إليّ حدثَ في الصحراء».

يبتسم لهانا.

«شخص يغذّيني بالمورفين، آخر يطعمني الحليب المكثّف، ربما اكتشفنا غذاء متوازنا».

يستدير إلى كيب.

«منذ متى وأنت تعمل مهندسَ ألغام؟»

«خمسة أعوام. معظمها في لندن، ثم إيطاليا، مع وحدات القنابل غير المنفجرة».

«من هو أستاذك؟»

«رجل إنجليزي في وولويتش. لقد اعتُبر غريب الأطوار».

«إنه أفضل المدرسين. لابدّ أنه اللورد سفولك؟ هل قابلتَ الآنسة موردن؟»

«نعم».

لا يحاول أي منهما في أي نقطة من حديثهما أن يجعلا هانا مرتاحة. لكنها تريد أن تعرف عن أستاذه وكيف سيصفه.

«وكيف كان أستاذك يا كيب؟»

«عملَ في البحث العلمي، رئيسَ وحدة تجريبية. سكرتيرته الآنسة موردن دائمًا معه تسجّل ملاحظات يُمليها حين يشتغل على قنبلة، بينما يساعده السيد هارتز

في الأدوات. إنّه رجل متألّق. لقد أطلق عليهم لقب الثالوث المقدّس. انفجر بهم لغم عام 1941 في إريث».

تنظر إلى مهندس الألغام وهو يستند إلى جدار، رافعا قدما ليكون كعب حذائه على شُجيرة مرسومة. لم يرتسم الحزن على وجهه، لا شيء للتأويل.
بعض الرّجال حلّوا عُقْدَةَ حياتهم الأخيرة بين ذراعيها. رفعَتْ في أنغياري رجالًا أحياء لتكتشف أن الديدان قد أتت على مُعظم أجسادهم. وضعت في أورتونا سجائر في فم صبيّ دون ذراعين. لم يوقفها شيء. تابعت واجباتها بينما خبّأت ذاتها الحقيقية. كثيرٌ من الممرضات تحوّلن إلى وصيفاتٍ للحرب، قلِقات، في بذلاتهن الصفراء القرمزية ذات أزرار بلَون العِظام.
تشاهد كيف يسند رأسه إلى الخلف على الجدار وتلتقط النظرة المحايدة لوجهه. تستطيع أن تقرأها.

VII

في الموقع

(ويستبري، إنجلترا، 1940)

وقف كيربال سنغ على ظهر الحصان[100]، حيث كان السرّج ليوضع. في البداية وقف ببساطة على ظهر الحصان، انتصب ولوّح لأولئك الذين لم يستطع أن يشاهدهم في البُعد، لكنه يعرف أنهم يراقبونه. راقبه اللورد سفولك بالمنظار الثنائيّ، وشاهدَ الشاب يلوّح بذراعيه.

ثم هبط داخل الحصان الكِلسيّ الطباشيريّ، حصان ويستبري الأبيض العملاق، نحو بياضه المحفور في التلّ. صار سنغ الآن قامةً سوداء، تزيد الخلفيّة من قتامة جلده وبزّته الخاكيّة. لو كان تركيز لمنظار أدقّ لشاهدَ اللورد سفولك الخطَّ القرمزيّ النّحيل على كتف سنغ، الذي يُشير إلى وحدته العسكريّة، ولبدت له قامته كما لو أنّها تخطو على ورقة قُصّت حوافّها لتغدو على شكل حيوانٍ، لكن سنغ كان واعيا فقط لحذاءه الذي يدوس الطباشير القاسية أثناء هبوطه المنحدر. الآنسة موردن تهبط وراءه التلّ في بُطء، مُعلّقة حقيبة إلى كتفها، داعمة نفسها بمظلة مطويّة. وقفت على بُعد عشرة أقدامٍ فوق الحصان، فتحتْ المظلّة وجلستْ في ظلها. ثم فتحت دَفْتَر ملاحظاتها.

سألته: «هل يمكنك سماعي؟»

«نعم، هذا رائع».

مسحتْ أثر الطباشير عن يديها بتنورتها، وأصلحت نظارتها. نظرتْ إلى أعلى في

المسافة، وكما فعل سنغ، لوّحَت لأولئك الذين لم تستطع أن تشاهدهم.

أحبّها سنغ. هي أوّل امرأة إنجليزية تحدّثَ معها فِعليًّا منذ وصوله إنجلترا. قضى معظم وقته في الثكنات في مُقاطعة وولويتش. خلال شهوره الثلاثة هناك التقى هنودا آخرين وضباطا إنجليزا فقط. قد تُجيبه امرأة على سؤال ما في مقصف الطعام. لكنّ محادثاته مع النساء لا تمتدّ لأكثر من جملتين أو ثلاثة فقط.

إنّه الولد الثاني في أُسرته. يُفترض بالإبن الأكبر الذهاب إلى الجيش، وبالأخ التالي أن يُصبح طبيبا، وبالأخ الآخر أن يغدو رجل أعمال. هذا تقليد قديم في عائلته. لكن ذلك تغيّر بقدوم الحرب. انضمّ إلى فَوْج للسّيخ ونُقل بحرا إلى إنجلترا. بعد الأشهر الأولى في لندن تطوّع في وحدة مهندسين شُكّلت لتعالج العمل المتأخر والقنابل غير المنفجرة. اعتُبر ذلك عملًا ساذجًا عام 1939:

«تُعتبر القنابل غير المنفجرة من مسؤولية وزارة الداخليّة، التي وافقت أن يجمعها مراقبون من منظّمة الوقاية من الغارات الجوية والشرطة، ويرسلوها إلى مستودعات مناسبة، حيث يقوم أعضاء من القوات المسلحة بتفجيرها في الوقت المناسب»

لم تتولّ وزارة الحرب مسؤولية التخلص من القنابل قبل عام 1940، ثمّ سلّمَتها بدورها إلى المهندسين الملكيّين. شُكّلت خمسٌ وعشرون وحدة للتخلّص من القنابل. افتقرت التجهيزات التقنية المناسبة، ما عدا مطارق ومعازق وأدوات تصليح طُرُق، فقط. لم لا مُختصُّون.

تتألف القنبلة من الأجزاء التالية:

1. حاوية القنبلة، أو عُلبتها.

2. صمّام.

3. حشوة خارجية أوّليّة.

4. حشوة رئيسيّة.

5. تجهيزات فوقيّة: زعانف وعروات وحلقات رأسيّة.

ثمانون بالمئة من القنابل التي أسقطتها الطائرات فوق بريطانيا هي رقيقة الغلاف، ولا يميّزها شيء. تَزِنُ عادة من مئة إلى ألف رطل. القنبلة التي تزن ألفَي رطل تُدعى هيرمان، أو إيسو، أما التي تزن أربعة آلاف رطل فتُدعى الشيطان.

بعد أيّام طوال من التدريب، ينام سينغ فيما الصّوَر البيانيّة والخرائط ما تزال في يده. دخلَ، نصف حالِم، إلى متاهة أسطوانة مع حامض بكريك، والشُّحنة الابتدائيّة، ومُكثِّفات، حتى وصل إلى الصّمّام عميقًا داخل الجُرْم الرئيسيّ.
حين تصيب القنبلة هدفا، تجعل المقاومةُ الرعّاشَ يعمل ويقدح الشعلة في الصمّام. يقفز الانفجار الصغير إلى الشُّحنة الابتدائيّة مسبّبًا انفجار البنتوريت، وهذا يشغّل حامض البكريك الذي يجعل الحشوة الرئيسية المؤلفة من الـ ت.ن.ت والأماتول والبارود المغلّف بالألمنيوم، ينفجر. وتستغرق الرحلة من الرعّاش إلى الانفجار جزءًا من مليون من الثانية.
إن أخطر القنابل هي تلك التي تُرمى من ارتفاعات منخفضة والتي لا تعمل إلا بعد أن تهبط. تدفن هذه القنابل غير المتفجرة نفسها في المدن والحقول وتبقى هاجعة إلى أن تُزْعَجَ موصّلات الرعّاش بعصا مُزارع أو لكزة عجلة سيارة، أو ضربة كرة تِنِس على الغلاف، ثم تنفجر.
نُقل سنغ بالشاحنة مع المتطوعين الآخرين إلى قسم الأبحاث في وولويتش، فتلك فترة صعدت فيه أعداد أعضاء وحدات تفكيك القنابل بشكل مرعب، نظرًا لعدد القنابل القليلة غير المنفجرة الموجودة. عام 1940، بعد أن سقطتْ فرنسا، وحوصرت إنجلترا، ازدادت الأمور سوءا.
بدأت الغارات الجوية في آب، وخلال شهر واحد أصبح عدد القنابل غير المنفجرة التي يجب تعطيلها 2500 قنبلة.
أُغلِقَتْ الطرقات وهُجِرَتْ المعامل. وصل عدد القنابل الخطيرة في أيلول إلى 3700. شُكّلتْ مئة فرقة قنابل جديدة، لكن عدم فهم آلية عمل القنابل ما زال سائدا حينئذ. فترة استمرار الأعضاء على قيد الحياة في تلك الوحدات، وبالتالي

بقاء الوحدة حيّة، قُدّر بأنّها عشرة أسابيع.

«إنّه عصْرٌ بطوليٌ للتخلّص من القنابل، فترة شجاعةٍ فرديّة: حيث قادَت خطورةُ الوضع وغيابُ المعرفة والعتاد الرّجالَ إلى الإقدام على مجازفات خطيرة مُذهلة. إنّه، على أيّ حال، عصرٌ بطوليّ بقي أبطاله غامضين، بما أن أعمالهم حُجِبَتْ عن الجمهور العام لأسباب أمنيّة. واضح أنه من غير المرغوب نشر تقارير يمكن أن تساعد العدو على تخمين القدرات التي تتصدّى للقنابل».

في السيّارة المتوجّهة إلى ويستبري، جلس سنغ في المقدمة مع السيد هارتز، بينما جلستْ الآنسة موردن في المؤخرة مع اللورد سفولك. كانت سيارة همبر المطلية باللون الخاكي مشهورة، الرفارف مدهونة بأحمر الشّارات المُشعّ – كما كانت عربات نقل وتفكيك القنابل جميعها – وفي الليل تضع مُرَشّحًا أزرق على الضوء اليساري الجانبي. منذ يومين انفجر رجل كان يمشي قرب الحصان الطباشيريّ المشهور. حين وصل المهندسون إلى الموقع اكتشفوا أن قنبلة أخرى رُميت وسط الموقع التاريخي، في معدة حصان ويستبري الأبيض العملاق المنحوت على التلال الكِلسيّة المتدرّجة عام 1778. بعد هذا الحدث بوقتٍ قصيرٍ وُضعت شِباك تمويهية فوق جميع الأحصنة الكِلسيّة الأخرى، عددها سبعة، ولم يكن ذلك من أجل حمايتها بقدر ما كانت لأجل إخفاءها، فلا تكون علامات واضحة للغارات الجوية على إنجلترا.

اللورد سفولك يثرثر في المقعد الخلفي عن هجرة طيور أبو الحنّاء من مناطق الحرب في أوروبا، وعن تاريخ تفكيك القنابل، وعن قشدة ديفوم. هكذا راح يُعَرّف الشاب السيخيّ على عادات إنجلترا كما لو أنها ثقافة مكتشفة حديثًا. ورغم أنّه اللورد سفولك[101]، فإنه عاش في مقاطعة ديفون حتى اندلاع الحرب، وكان مولعا بدراسة لورنا دون[102]، وكيف كانت الرواية أصيلة تاريخيًّا وجغرافيًّا. وأمضى معظم فصول الشتاء وهو يتسكّع في قُرى براندون وبورلوك، وأقنع السلطات أن إكسمور مكان مثاليّ للتدرّب على تعطيل القنابل. وكان يوجد اثنا عشر رجلا

تحت إمرته وهم خبراء ألغام ومهندسون موهوبون انتُخبوا من وحدات مختلفة، وكان سنغ واحدا منهم. تمركزوا طوال الأسبوع في حديقة ريتشموند في لندن، بعد أن عُلّموا الأساليب الجديدة للعمل على القنابل غير المنفجرة، بينما أيائل الأرض غير المحروثة تتنقّل حولهم، لكنهم ذهبوا في نهاية الأسبوع إلى إكسمور، حيث تابعوا التدرّب أثناء النّهار، وبعد ذلك أخذهم اللورد سفولك بالسيارة إلى الكنيسة حيث أُطْلقتْ النار على لورنا دون نفسها أثناء حفلة خطبتها. «إمّا من هذه النافذة أومن ذاك الباب الخلفي... أُطلق النار عليها عبر الممشى وأصيبت في كتفها. طلقة رائعة، فعلا، رغم أنها تستحقّ الشجبَ بالطبع. طُوردَ الوَغْد إلى المستنقعات وسُلخَت عضلاته عن جسده». بدتْ القصة لسنغ مثل خرافة هندية مألوفة.

صديقة اللورد سفولك المقرّبة في المنطقة هي امرأة طيّارة كرهتْ المجتمع كلّه، لكنها أحبَّتْ اللورد سفولك. اعتادا الذّهاب إلى الصيد معا. عاشت في كوخ صغير في كاونتسبري على جُرف مُطلّ على قناة بريستول المائيّة. لكل قرية يعبرانها بسيارة الهمبر غرائبها التي يصفها اللورد سفولك. هذا هو المكان الأفضل لشراء عكازات مصنوعة من البرقوق، كأنّ سِنغ يفكّر في الدخول إلى دكّان تيودور عند الناصية في بزّته وعمامته كي يُثرثر بشكل عرَضيّ مع المالكين حول العِصِيّ. قال لهانا فيما بعد إن اللورد سفولك أفضل رجل إنجليزي، وإنّه لولا الحرب لما غادرَ أبدًا كاونتسبري ومعتَزَله فيها الذي يُدعى مزرعة المنزل، شاغلًا نفسه بصناعة النبيذ، وهشّ الذباب في حجرة غسل الملابس السوداء في الخلف، يبلغ عمره خمسون عاما، متزوّج لكنه أعزب في شخصيته، يمشي على الجروف كل يوم ليزور صديقته الطيّارة. أحبّ أن يثبّت الأشياء كأنابيب الغسيل القديمة ومولّدات الضخّ والسفافيد التي تديرها عجلة مائية. يساعد الطيّارة الآنسة سويفت على جمع معلومات عن عادات طيور الغُرير.

قيادة السيارة إلى الحصان الكِلسيّ في ويستبري مليئة بالحكايات والمعلومات. يعرف حتى في وقت الحرب المكان الأفضل للتوقّف وتناول الشاي. يدخل إلى غرفة

الشاي في باميلا، يده في عُصابة مدلاة من العنق بسبب حادث حقل القطن الذي انفجر، ترافقه جماعته المؤلّفة من السكرتيرة والسائق ومهندس الألغام، كأنهم أولاده. لم يكن أحد واثقًا كيف أقنع اللورد سفولك لجنة يو.إكس.ب بالسماح له بتشكيل كتيبة تدمير القنابل التجريبية. لكنه، بخلفيته في الابتكارات، من المرجّح أنه يتمتّع بمؤهلات أكثر من الآخرين. كان متعلّمًا ذاتيّا، آمن أن ذهنه يستطيع أن يقرأ البواعث والروح خلف أي اختراع. وابتكر على الفور الجيب القميصي الذي سمحَ للصمّامات والأدوات أن يحملها معه مهندس الألغام بسهولة.

شَرِبوا الشاي وانتظروا الكعك مناقشين تعطيل القنابل في مواضعها.

«أنا أثق بك، أظنّك تعرف ذلك يا سنغ، أليس كذلك؟»

«نعم سيدي». سنغ مُتيّم به، فاللورد سفولك بالنسبة إليه هو أوّل سيّد حقيقي التقى به في إنجلترا.

«أنت تعرف أنني واثق من أنك تفعل ذلك مثلي، ستكون الآنسة موردن معك لتسجّل الملاحظات، سيكون السيد هارتز خلفك على مسافةٍ ما. إذا احتجت مُعدّات أكثر أو مُساعدة، انفخ في الصّافرة وسوف ينضمّ إليك. هو لا يقدّم النصائح لكنّه يفهم تمامًا. إذا لم يساعدك ذاك يعني أنّه يختلف معك، ولو كان الأمر عائدًا إليّ لأخذت بنصيحته حينئذ. لكنّك تملك السّلطة المطلقة في الموقع، خذ مسدّسي. إن الصمّامات الآن أكثر تعقيدا على الأرجح، لكنك لا تعرف ما يحدث، ربما ستكون محظوظا».

كان اللورد سفولك يلمّح إلى حادثة أكسبته الشهرة. اكتشف أسلوبا لتعطيل صمّام ما زال قابلًا للعمل لكنّه عالق، وذلك بإشهار مسدسه الحربيّ وإطلاق طلقة عبر رأس الصمّام، وهكذا عطّل حركة السّاعة. هُجر الأسلوب حين أدخل الألمان صمّامًا جديدًا تتوضع فيه الكبسولة، لا الساعة، في قمّة الصمّام.

عثر كيربال سِنغ على صديق، ولن ينسى ذلك أبدا. انقضى نصف وقته أثناء الحرب في ظلّ هذا اللورد الذي لم يغادر إنجلترا قط، وخطّط ألّا يغادر كاونتسبري

حين تنتهي الحرب. وصل سِنغ إلى إنجلترا دون أن يعرف أحدًا، مُبعَدًا عن عائلته في بلاد البنجاب، بلغَ حينها الواحدة والعشرين من عمره، ولم يقابل إلا الجنود. وهكذا حين قرأ الإعلان الذي يطلب متطوعين في الفرقة التجريبية لتعطيل القنابل، رغم أنه سمع مهندسين آخرين يتحدثون عن اللورد سفولك كمجنون، قرر أن على المرء في الحرب أن يسيطر على نفسه، وهناك فرصة كبيرة لاتّخاذ خيار في الحياة وتكوين شخصيّة متفرّدة.

إنّه الهنديّ الوحيد بين المتقدمين، وكان اللورد سفولك متأخرا عن الحضور إلى المكتب. اقتيد خمسة عشر منهم إلى مكتبة وطلبتْ منهم السكرتيرة أن ينتظروا. بقيتْ على المقعد تنسخ الأسماء بينما الجنود يمزحون حول المقابلة والاختبار. لم يكن يعرف أحدًا. سارَ إلى جدار وحدّق في مقياسٍ للضغط الجويّ وكان على وشك أن يلمسه حين تراجع، مُقَرّبًا وجهه منه فقط. جافٌ جدا إلى معتدل، إلى عاصف. غمغم بالكلمات لنفسه بلفظه الإنجليزي الجديد «ويري دراي، ڤيري دراي». نظر إلى الخلف نحو الآخرين، حدّق حواليه في الغرفة والتقط نظرة السكرتيرة متوسّطة العمر. راقبته بصرامة. صبيٌّ هندي، ابتسم وسارَ نحو رفوف الكتب. ثانية لم يلمس أي شيء. قرّب أنفه من كتاب ريموند، أو الحياة والموت، من تأليف أوليفر هودج[103]. عثر على عنوان آخر مشابه، بيير، أو الغوامض[104]. استدار والتقط عيني المرأة عليه ثانية. شعر بالذنب وكأنه وضع الكتاب في جيبه. ربما لم ترَ عمامة من قبل قط. الإنجليز يريدونك أن تقاتل من أجلهم لكنهم لن يتحدثوا إليك. سِنغ، والغوامض.

قابلوا اللورد سفولك الطيّب جدًّا أثناء وجبة الغداء، وقد سكب النبيذ لكل من رغب به، وضحك بصخب لدى لكلّ نكتة ألقاها متطوّع. أُجْرِيَ لهم امتحان غريب في العصْر، حيث يجب أن تُجمع قِطَع آلة كلّها بعضها مع بعض دون معلومات مسبقة عمّا كانت تُستخدم من أجله. حُدِّدتْ لهم ساعتان لكنهم يستطيعون أن يغادروا حالما تُحَلّ المشكلة. أنهى سِنغ الامتحان بسرعة وأمضى بقيّة الوقت يتكر

أشياء أخرى يمكن أن تُصنع من العناصر المتنوعة. أحسّ أنه سَيُقبَل بسهولة إذا لم يتعلّق الأمر بعِرْقه. جاءَ من بلاد كانت فيها الرياضيات والميكانيكا مهارتين طبيعيتين. لم تكن السيارات تُتْلَف أبدًا، بل إن أجزاء منها تُحمل من قرية إلى أخرى وتُحَوّل إلى آلة خياطة أو مضخّة مياه. ويعاد تنجيد المقعد الخلفي لسيارة الفورد كي يُصبح أريكة. معظم الناس في قريته يحبّذون حمل مفتاح رَبْطٍ أو مفكّ براغٍ بدلا من قلم رصاص. الأجزاء الزائدة تدخل في ساعة حائطيّة أو بكرة رَيّ، أو الآلية الدورانيّة لكُرسيّ مكتَبيّ. يُعْثَر على علاجات للكارثة الآلية بسهولة، وكان المرء يبرّد محرك السيارة مرتفع الحرارة ليس بخراطيم مطاطية جديدة، بل بغَرْف روث البقر ووضعه حول المكثّف، ولقد رأى في إنجلترا كمية كبيرة جدا من القطع تجعل قارة الهند تستمرّ مئتي عام.

كان أحدَ ثلاثة متقدمين اختارهم اللورد سفولك، هذا الرجل الذي لم يتحدّث حتى إليه، ولم يضحك معه، والسبب بكلّ بساطة هو أنه لم يرْوِ النّكات! سار عبر الغرفة ووضع ذراعه حول كتفه، وتبيّن أن السكرتيرة الحادّة هي الآنسة موردن، ودخلت بسرعة حاملة صينية عليها كأسان كبيرتان من نبيذ الشّيري. سلّمتْ واحدا إلى اللورد سفولك، ثمّ قالت «أعرف أنك لا تشرب» وأخذت الأخرى ورفعت كأسها له: «تهانينا، كان امتحانك رائعا، ورغم أنني كنتُ متأكدة أنه سيتمّ اختيارك، حتى قبل أن تقوم بالامتحان».

«إن الآنسة موردن حَكَمٌ رائع على الشخصية، تحمل حاسّة قويّة لالتقاط التألّق والشّخصيّة المتفرّدة».

قالت: «الشخصيّة، سيّدي؟»

«نعم، ليست ضرورية فعلا، لكننا سنعمل سوية، نحن هنا نشبه الأسرة كثيرا، اختارتك الآنسة موردن حتى قبل الغداء».

«وجدت أنه من الصعب أن أغمزك يا سيد سِنغ».

وضع اللورد سفولك ذراعه حول سِنغ ثانية وسار معه إلى النافذة.

«فكّرتُ بما أنه لن نبدأ حتى منتصف الأسبوع التالي أن آخذ قِسمًا من الوحدة إلى المزرعة المنزلية. يمكن أن نتعارف في ديفون، بوسعك أن تذهب معنا في الهمبر».

وهكذا ربح تذكرة عبور، خارج الآلية العمياء للحرب. انضمّ إلى أُسْرَة بعد قضاء عامٍ كامل في الخارج، كأنه الابن الضال الذي عاد. قُدّم له كرسيّ حول طاولة الطعام، وعانقته المحادثات.

الظلام يخيّم حين عبروا الحدود من سومرست إلى ديفون، على الطريق الساحلية التي تطلّ على قناة بريستول. استدار السيد هارتز إلى الممر الضيّق الذي يحاذيه الخلنج ونبات الورديّة، الذي له لون دموي قاتم في هذا الضوء الأخير. طول الطريق ثلاثة أميال.

إلى جانب الثّالوث الذي يشكّله سفولك وموردن وهارتز، ثمّة ستة خبراء ألغام شكّلوا الوحدة. ساروا في المستنقعات حول الكوخ الحجريّ في نهاية الأسبوع. وانضمّ إلى اللورد سفولك وموردن وزوجته الطيّارة لتناول العشاء مساء السبت. أخبرت الآنسة سويفت سِنغَ أنّها رغبت دائما في الطيران إلى الهند. سِنغ، حين نُقل من الثكنة، لم يعرف أيّ شيء عن موقعه من العالم. ثمّة خريطة على بكرة عالية في السقف. وحيدا في أحد الصباحات سحب البكرة إلى الأسفل حتى لامست الأرض. منطقة كاونتسبري وآريا، أعدّ الخريطة ر.فونز ورُسمت نزولًا عند رغبة السيّد جيمس هاليداي.

«رُسِمَتْ نزولا عند رغبة...» بدأ يحبّ اللغة الإنجليزيّة.

كان مع هانا في خيمته الليليّة، حين روى لها عن الانفجار الذي حدث في إريث. انفجرت قنبلة يبلغ وزنها 250 كيلوغراما بينما كان اللورد سفولك يحاول تعطيلها. قتلتْ أيضا السيّد فرِد هرتز والآنسة موردن وأربعة مهندسين عسكريين كان اللورد سفولك يدرّبهم.

أمضى سِنغ عام 1941 في وحدة سفولك، يعمل في لندن ذلك النهار مع الملازم أوّل

بلاكر، في تنظيف منطقة إليفانت وكاسل من قنبلة من نوع الشيطان. عملا معا على تعطيل القنبلة التي يبلغ وزنها أربعة آلاف رطل وكانا يشعران بالإعياء الشديد. تذكر أنه نظر إلى الأعلى ورأى ضابطين من ضباط تفكيك القنابل يسيران نحوه فاستغرب الأمر. على الأرجح عثروا على قنبلة أخرى. كانت الساعة بعد العاشرة ليلا وهو قد أعياه التّعب. هناك واحدة أخرى تنتظره. عاد إلى العمل.

حين انتهوا من الشيطان قرّر أن يدّخر الوقت وسارَ إلى أحد الضابطين، الذي قام بنصف استدارة في البداية وكأنه يريد أن يغادر.

«تفضّل، أين هي؟"

أمسك الرجل يده اليمنى وعرف أن هناك خطأ ما، كان الملازم أول بلاكر خلفه وأخبره الضابط ما حدث، ثم وضع الملازم أوّل بلاكر يديه على كتفي سِنغ وأمسك به.

ساق إلى إريث. خمّن ما كان الضابط يتردّد في طلبه منه، يعرف أن الرجل لن يأتي إلى هنا لينقُل له خبر الموت فقط. إنهم في حرب على أيّ حال، وذاك يعني أن قنبلة ثانية في مكان ما في الجوار لها على الأرجح التصميم نفسه، وهذه الفرصة الوحيدة لمعرفة الخطأ.

أراد أن يقوم بهذا وحيدا. سيبقى الملازم أوّل بلاكر في لندن. إنّهما آخر من تبقّى من الوحدة، وسيكون من الحماقة المجازفة بالاثنين. إذا كان اللورد سفولك فشل فهذا يعني شيئا جديدا. أراد أن يقوم بهذا وحيدا على أيّ حال، حين يشتغل رجلان معا يجب أن تكون هناك قاعدة تجمعهما منطقيًّا، يجب أن يتشاطرا العمل ويتوصلا إلى تفاهم حيال القرارات.

أبعد كلّ شيء عن سطح عواطفه أثناء القيادة في الليل، لكي يُبقي ذهنه صاحيًا، يجب أن يعتبرهم على قيد الحياة. الآنسة موردن تشرب كأس ويسكي كبيرة قبل أن تنتقل إلى نبيذ الشيري. ستكون بهذه الطريقة قادرة أن تشرب ببطء أكبر وتظهر أكثر كسيّدةٍ في بقية المساء. «أنت لا تشرب يا سيد سِنغ، لكن لو كنت تشرب، فستفعل ما أفعله، كأس ويسكي كاملة ثم تستطيع أن ترتشف كمُتودّد

نساءٍ بارع»، يتبع كلامها ذاك ضحكتها الكسولة الجديّة. هي المرأة الوحيدة التي قابلها طوال حياته حاملةً دورقين فضيّين معها. إذن، ما تزال تشرب، فيما اللورد سفولك ما زال يلوك الكعك الذي من نوع كبلنغ.

سقطت القنبلة الأخرى على بعد نصف ميل، تزن 250 كيلوغراما. بدتْ كنوعٍ مألوف. قاموا بتعطيل مئاتٍ منها ومعظمها روتينيّ. هذه هي الطريقة التي تتقدّم بها الحرب، بعد كل ستّة أشهر يبدِّل العدوّ شيئا، تتعلّم الخدعة، النّزوة، اللحن المساير، وتعلّمه بقيّة الوحدات، لكنهم دخلوا مرحلةً جديدة الآن.

لم يأخذ أحدا معه، عليه فقط أن يتذكر الخطوات كلّها. كان الرقيب الذي أوصله بالسيارة يُدعى هاردي، ويجب عليه البقاء في سيّارة الجيب. اقترحَ أن ينتظر إلى الصباح لكنه كان يرعف أنهم يفضّلون أن يقوم بذلك الآن، إنها قنبلة إس.سي وتزن 250 كيلوغراما ومألوفة جدا. إذا كان هناك تبديل فعليهم أن يعرفوا بسرعة. طلب منهم أن يهاتفوا مباشرة من أجل تزويدهم بالأضواء، ما همَّه أن يعمل وهو متعب، لكنه أراد أضواءً ملائمة، لا أضواء سيارَتَي جيب فقط.

حين وصل إلى إريث، كانت بقعة القنبلة مضاءة مُسبقًا. في ضوء النهار، في يوم بريء، لبَدَت البُقعة مجرّد حقل، أسيجة شجريّة، ربما بركة، أما الآن فهي ميدان صراع، حين شعر بالبرد استعار كنزة هاردي وارتداها فوق كنزته. ستدفئه الأضواء على أيّ حال. حين سار إلى القنبلة كانوا ما زالوا أحياء في ذهنه. امتحان.

بزغ لمعان المعدن برّاقًا تحت الضوء المتوهّج. نسي كلّ شيء الآن سوى الارتياب. قال اللورد سفولك يمكن أن تجد لاعب شطرنج متألقا في سن السابعة عشرة، أو حتى الثالثة عشرة، يغلب معلّمًا جليلًا. لكنك لا يمكن أن تجد أبدا لاعب وَرَق متألّق في هذه السن. تعتمد لعبة الوَرَق على الشخصيّة، شخصيتك وشخصيّات خصومك. يجب أن تأخذ في عين الاعتبار شخصيّة عَدوّك. وهذا ينطبق على تدمير القنابل، إنها لعبة وَرَق لكن بين شخصين، لا أربعة. يوجد خصم واحد. ليس لديك شريك. أحيانا أجعلهم يلعبون الورَق لأمتحنهم. يعتقد الناس أن القنبلة شيء آليّ، عدوّ آلي. لكن عليك أن تفكّر أن شخصا ما صنعها.

وجدَ غلاف القنبلة ممزقا بسبب سقوطها على الأرض، واستطاع سِنغ أن يرى المواد المتفجّرة في الداخل. شعر سِنغ أنّ أحدًا يُراقبه، لكنّه لم يحدّد هو هو سفولك أم مبتكر هذه البدعة. أنعَشَتْهُ طَراوة الضوء الصناعيّ. سارَ حول القنبلة وتفحّصها من جميع الزوايا. كان عليه من أجل أن يُزيل الصمام أن يفتح الحُجرة الرئيسية للقذيفة ويعبر المادة المتفجرة. فكّ حقيبته وبمفتاح شامل طوى بحذر الصفيحة المعدنية في قفا هيكل القذيفة. حين نظر إلى الداخل شاهد أن جيب الصمّام حُرِّر من العُلبة. لم يستطع أن يجزم إن كان هذا حظًّا جيّدا أم سيّئا. المشكلة هي أنه لم يعرف إذا كانت الآلية بدأت تعمل. إذا كانت قد انطلقت. انحنى فوقها مستندا إلى ركبتيه سعيدا لأنه وحيد في عالم الخيار الواضح. «استَدِرْ يمينًا أو استَدِرْ يسارًا. اقطعْ هذا أو ذاك». لكنه ما زال مُتعبًا، وما زال يحمل غضبًا داخله. لم يعرف كم يملك من الوقت. يكمُن الخطر الأكبر في التمهُّل طويلًا. ثبّتَ بقوّة أنفَ الأسطوانة بحذاءه، ثم قصّ جيب الصمّام ورفعه عن القنبلة. وحالما فعل هذا بدأ يرتجف، لقد أخرجه. القنبلة غير مؤذية الآن. وضع الصمّام بهدبه المتدلّي من الأسلاك على العشب، بدا واضحا ومتألقا في الضوء.

بدأ يجرّ العلبة الرئيسية نحو الشاحنة على بعد خمسين ياردة، حيث يستطيع الرجال أن يفرغوها من المادة المتفجّرة الخام، وبينما كان يجرّها انفجرت قنبلة ثالثة على بُعد ربع ميل فأُضيئت السماء جاعلة حتى المصابيح القوسيّة تبدو ماكرة وبشريّة.

قدّم له ضابط إبريقًا فيه قليل من الكحول، وعاد وحيدًا إلى الجيب. استنشق الأبخرة الصاعدة من الشّراب.

لم يعد يوجد خطرٌ حقيقيٌ، إذا كان مخطئا، فإن الانفجار سيقطع يده الصغير وحسب. إذا لم تكن المتفجّرة قريبة من قلبه تمامًا لحظة لانفجار، فإنه لن يموت إذا انفجرت. المشكلة الآن ببساطة هي الصمّام، البِدعة الجديدة في القنبلة.

عليه أن يعيد متاهة الأسلاك إلى نموذجها الأصليّ. عاد إلى الضابط وطلبَ منه بقيّة ترمس الشراب الساخن، ثم عادَ وجلس ثانية مع الصمّام. كانت الساعة

الواحدة والنصف صباحًا كما خمّن لأنه لا يرتدي ساعة. نظر إلى الصمام نصفَ ساعة عبر دائرة زجاجية ممغنطة، وهي نظارة أحادية، معلقة في عُروة زرّه. حدق ونظر إلى النحاس من أجل أيّ إشارة إلى خدوش أخرى يمكن أن أداة الكلّابة التي استخدمها قد أحدثته. لا شيء.

لاحقًا سيحتاج إلى ما يُلهيه. فيما بعد، حين عبَرَ ذهنه تاريخٌ شخصيّ كامل من الأحداث واللحظات، احتاج شيئا مثل صوت أزيز متواصل ليُحرق أو يدفن كلّ شيء بينما يفكّر في المشاكل الماثلة أمامه. جاء الراديو، أو الراديو البلّوري، وموسيقاه الصاخبة فيما بعد كقماش مشمّع حَمَاهُ من أمطار الحياة الواقعية. لكنه مُدْرك الآن لشيء ما في المسافة البعيدة كانعكاس للبرق على سحابة. مات هارتز وموردن وسفولك، أصبحوا فجأة مجرّد أسماء. أعادت عيناه التركيز على عُلبة الصمّام.

بدأ يقلّب الصمّام رأسا على عقب في ذهنه مفكرا بالاحتمالات المنطقيّة، ثم أداره أفقيًّا مرّة ثانية. فك الشحنة الابتدائية وانحنى واضعا أذنه عليها بحيث أصبح النحاس المكشوط ملامسا لها. لم يسمع طقطقات خافتة، تفكّكَت بصمت. فَصَل برقّة أقسام آليّة السّاعة عن أنبوب جيب الصمّام ووضعها جانبا. التقط أنبوب جيب الصمّام وحدق فيه مرة ثانية، لم يرَ شيئا. كان على وشك أن يضعه على العشب لكنه تردّد وأعاده إلى الضوء، لم يلاحظ سوى أن الوزن ثقيل. ولن يفكر أبدا بالوزن لو لم يكن يبحث عن البِدعة الجديدة في عالم صناعة الألغام. كل ما كانوا يفعلونه عادة هو الإصغاء والنظر. غطّى الأنبوب بحذر وانزلق الثّقل نحو الفتحة. هناك شُحنة ابتدائية ثانية، أداة كاملة منفصلة، تهدف إلى إحباط أيّ محاولة لتعطيل القنبلة.

قرّب الأداة نحوه وفكّ الشحنة الابتدائية. صدرت لمعة بيضاء مُخْضَرّة وصوتَ سَوْط من الأداة. تلاشى المفجّر الثاني، سحبه ووضعه قرب الأجزاء الأخرى على العشب وعاد إلى سيارة الجيب.

غمغم: «توجد شحنة ثانية. كنتُ محظوظًا فاستطعت سحب تلك الأسلاك،

اتّصِل بمقرّ القيادة واسألهم إن كانت توجد قنابل أخرى».
أبعدَ الجنودَ عن سيارة الجيب، ووضع مقعدا أمام أضواءها وطلب أن تُسَلّط أضواء المصابيح القوسيّة عليه، انحنى والتقط العناصر الثلاثة ووضع كلًّا منها على بُعد قدم عن المقعد المؤقت. كان يشعر بالبرد الآن، ونفخَ ريشةً عن جسده الدافئ، نظر إلى الأعلى فشاهد جنودًا ما زالوا يُفرغون المتفجّر الرئيسي. كتب بعض الملاحظات بسرعة وسلّم حَلّ القنبلة الجديدة إلى ضابط، لم يفهم ذلك بشكل كاملٍ بالطبع، لكنهم يجب أن يحصلوا على هذه المعلومات.
حين يدخل ضوء الشمس إلى غرفة فيها نار، تتلاشى النار. لقد أحب اللورد سفولك ومعلوماته الغريبة، لكن غيابه هنا يعني أن كل شيءٍ يعتمد الآن على سِنغ، يعني أن فهمَ سِنغ شَمِل جميع القنابل التي من هذا النوع في مدينة لندن. لقد حصل فجأة على خريطة مسؤولية، على شيء أدرك أن اللورد سفولك حمله في شخصيّته كلّ الأوقات. هذا هو الوعي الذي خلق فيه فيما بعد الحاجة إلى إبعاد أيّ شيء حين يعمل على قنبلة. باتَ من أولئك الذين لم يهتموا أبدا بمراتب السُّلطة. كان مرتاحا في الانتقال بين الخطط والحلول. شعر أنه قادر على الوصول إلى حلّ.
حين جاءت إليه واقعيّة موت اللورد سفولك أنهى العمل الذي أوكل إليه وتطوّع من جديد في الآلة الغُفل للجيش. كان على ظهر السفينة العسكرية ماكدونالد التي كانت تنقل مئة مهندس ألغام آخر إلى الحملة الإيطالية. استُخدموا هناك ليس من أجل القنابل فحسب، بل من أجل بناء الجسور وإزالة الأنقاض، ونصب السكك الحديدية للعربات المصفّحة. اختبأ هناك بقيّة الحرب. قليلون هم الذين تذكّروا السيخيّ الذي كان في وحدة سفولك. سُرّحتْ الوحدة كلها خلال عامٍ ونُسِيَتْ، ما عدا الملازم الأوّل بلاكر، الوحيد الذي رُفّعَ بسبب موهبته.
لكن في تلك الليلة حين كان سِنغ في السيارة عابرا لويزهام وبلاكهيز نحو إريث، عرف أنه يحمل أكثر ممّا يحمله أيّ مهندس عسكريّ آخر من معارف اللورد سفولك، ومن المتوقع أن يكون هو الرؤية البديلة.
ما زال واقفا عند الشاحنة حين سمع الصافرة التي تعني أنهم سيطفئون المصابيح

القوسية، في غضون ثلاثين ثانية استبدلت المصابيح المعدنية بالخراطيش الكبريتية في مؤخرة الشاحنة، غارة قنابل أخرى، يمكن أن تُطفئ هذه الأضواء الأضعف إذا سمعوا الطائرات. جلس على صفيحة الوقود الفارغة مواجها العناصر الثلاثة التي أزالها من قنبلة إس.سي التي تزن 250 كيلوغراما وكان هسيس الخراطيش حوله صاخبا بعد صمت المصابيح القوسية.

جلس مصغيا منتظرا أن تطقطق، فيما الرجال الآخرون صامتين على بعد خمسين ياردة. يعرف أنّه المَلِك الآن، سيّد مسرح العرائس ومُحرّك الدُّمى، يستطيع أن يطلب أيّ شيء: دلوَ رمل، فطيرة فاكهة، وهؤلاء الرجال الذين لن يتكلّف الواحد منهم عبور حانة فارغة ليُلقي عليه التحيّة بمجرّد الانتهاء من عمله هنا، سيفعل ما يرغب فيه الآن. كان هذا غريبا بالنسبة إليه، كأنّه سُلّم بدلةً ضخمة يستطيع أن يلفّها حوله، وستتجرجر خلفه، رغم أنّه اعتاد وجوده الخفيّ. لقد واجه التجاهل في إنجلترا، في ثكنات مختلفة، حتى أصبح يُفضّلها. إن الاكتفاء الذاتي والعزلة اللتين رأتهما هانا فيه لم يسبّبهما كونه مهندس ألغام في الحملة الإيطالية فقط. بل كانا نتيجة كونه العضوَ الغُفل لعِرْقٍ آخر، جزءًا من العالم الخفيّ. لقد خلق له شخصيّة دفاعيّة ضدّ ذاك العالم كلّه، واثقًا فقط في أولئك الذين صادَقوه حقًّا. لكن في تلك الليلة في إريث عرف أن أصابعه تقبض على خيوط تحرّك كلّ من حوله من الذين لا يتمتعون بموهبته.

هرب إلى إيطاليا بعد بضعة شهور، حزمَ ظلّ معلّمه في حقيبته بالطريقة التي شاهد فيها الصبيّ الذي يرتدي ملابس خضراء في مضمار سباق الخيل يفعل ذلك في إجازته الأولى في عيد الميلاد. عرض عليه اللورد سفولك والآنسة موردن أن يأخذاه لحضور مسرحية إنجليزية. اختار بيتر بان، وأذعنا دون كلامٍ وذهبا معه إلى عرضٍ مليء بصراخ الأطفال. كان يسترجع ظلالا وذكرياتٍ كهذه حين يستلقي مع هانا في خيمته في البلدة التلّية الصغيرة في إيطاليا.

إن كشفَ ماضيه أو مواصفات شخصيته سيكون لفتة كبيرة، مثلما أنه لا يستطيع أن يتحقق منها أي دافع عميق سبّب هذه العلاقة. أحبها بقوة الحب

الذي شعر به تجاه أولئك الإنجليز الثلاثة الغريبين الذين أكل على طاولة واحدة معهم، الذين راقبوا سروره وضحكه وتعجبه حين رفع فتى بملابس خضراء ذراعيه وطار في ظُلمة خشبة المسرح عاليًا، ليعود كي يروي على مسامع الفتاة الشابّة في العائلة الأرضيّة عجائب ما رأى.

في ظُلمة إريث المضاءة بالمشاعل الكبريتية، يتوقّف أينما سمع صوت طائرات، وتغوص مشاعل الكبريت واحدا بعد الآخر منطفئة في دلاء الرمل. يجلس في الظلمة الطينية مُحرّكًا المقعدَ بحيث يستطيع أن يتّكئ إلى الأمام ويضع أذنه قريبا من الآليات المتكتكة التي ما زال يُحصي مرور الوقت وفقها، محاولًا سماعها تحت ارتجاف القاذفات الألمانية فوقه.

ثم حصل ما كان ينتظره، بعد ساعةٍ بالضبط، تحرّر المؤقت وانفجرت كبسولة القدح. لقد حرّرت إزالة الشحنة الابتدائية الرئيسية مطرقة غير مرئية أدت إلى تشغيل الشحنة الثانية المخبأة. كانت مؤقتة لتنفجر بعد ستين دقيقة، بعد وقت طويل من الافتراض الطبيعي لمهندس الألغام بأن القنبلة ستُعطَّل بشكل آمن. ستغيّر هذه الأداة الجديدة اتجاه وحدات الحلفاء لتعطيل القنابل كله. من الآن فصاعدا كل قنبلة عملها متأخر ستحمل تهديد شحنة ابتدائية ثانية. لن يعود ممكنا لخبراء الألغام أن يعطلوا قنبلة عن طريق إزالة الصمّام فقط، يجب أن تُحيّد القنابل مع بقاء الصمّام سليما نوعا ما، ويجب سحب الصمّام الثاني المقصوص من شرك الغفلة بسرعة. في الظّلمة الكبريتية تحت غارة القصف شهد الومض الأبيض المخضرّ الذي بحجم يده، تأخُّر ساعة واحدة. لقد بقي على قيد الحياة بسبب الحظّ فقط. عاد إلى الضابط وقال: «أحتاج إلى صمام آخر كي أتأكد».

أضاءوا المشاعل حوله ثانية، مرّة أخرى انسكب الضوء في دائرة ظلمته. تابع اختبار الصمّامات الجديدة لمدة ساعتين إضافيتين تلك الليلة، برْهَنَ تأخّر الستّين دقيقة أنّه متساوق.

أمضى في إريث معظم الليل، استيقظ في الصباح ليجد نفسه في لندن، ولم يستطع تذكر أنه عاد بالسيارة. استيقظ، وذهب إلى الطاولة وبدأ يرسم رسما تخطيطيا لمظهر القنبلة: الشحنات الابتدائية، المفجرات، مشكلة الصمّام الجديد، وحَلَقات الإقفال، تصميم لُغم زوس40- كاملًا، ثم غطّى الرسم الأساسي بكلّ خطوط الهجوم المحتملة لتعطيله. رسمَ كلّ سهم بدقّة وكتب النّصّ بطريقة واضحة كما علّموه.

ما كان قد اكتشفه في الليلة الماضية بدا صحيحا، لقد نجا بفعل الحظ فقط. لم تكن توجد طريقة ممكنة لتعطيل هذه القنبلة في موضعها دون تفجيرها. رسم وكتب كل شيء يعرفه على ورقة. برامج العمل الكبيرة، كتب في أسفلها: رُسِمتْ نزولا عند رغبة اللورد سفولك، بقلم طالبه الملازم أوّل كيربال سِنغ، *10 أيار 1941.*

عمل باجتهاد وجنون بعد موت سفولك. القنابل تتبدّل بسرعة، بتقنيات وأدوات جديدة. ومقرّ ثكنته في حديقة ريجنت مع الملازم أول بلاكر، وثلاثة أخصائيين آخرين يشتغلون على الحلول، يضعون مخطّطات جميع القنابل الجديدة حين تأتي.

بعد اثني عشر يومًا من العمل في مُديريّة البحث العلمي، عثروا على الجواب: تجاهَلْ الصمّام تمّامًا، تجاهل المبدأ الأوّل، الذي كان حتى ذلك الوقت «عطّلوا القنبلة». كان عملا متألقا، جميعهم يضحكون ويصفّقون ويضمّ بعضهم بعضًا في مطعم الضباط. لم يعرفوا ما هو البديل، لكنهم عرفوا أنهم على صواب نظريًّا. «لن تُحلّ المشكلة بتبنيها»، هذا ما كتبه الملازم أوّل بلاكر. «إذا كنت في غرفة مع مشكلة، فلا تتحدّث إليها»، ملاحظة مُرتجلة. جاء سِنغ نحوه وعالج المقولة من زاوية مختلفة: «يجب أن لا نلمس الصمّام أبدا».

بعد أن توصلوا إلى هذه النتيجة، توصل أحدهم إلى الحلّ في غضون أسبوع، المعقّم البخاري. يستطيع المرء أن يفتح ثقبا في العلبة الرئيسية للقنبلة ثم يُستحلب المتفجّر الرئيسيّ ويُسحَب بحقن البخار. هذا حلّ المشكلة مؤقتا. لكنه وقتئذ كان على ظهر سفينة متجهة إلى إيطاليا.

«توجد دائمًا خطوط طباشيريّة صفراء عُلِّمَ بها على جانب القنابل، هل لاحظت ذلك؟ تماما كما عُلّمت أجسادنا بالطباشير الصفراء حين اصطففنا في ساحة لاهور».

«كان صفّ منا يمشي بتثاقل وببطء إلى الأمام من الشارع إلى المبنى الطبّي ثم إلى الساحة حين تطوّعنا. نسجّل أسماءنا، والطبيب يقبل أو يرفض أجسادنا بأدواته ويستكشف أعناقنا بيديه. الملاقِط تخرج من المعقّم، وتلتقط أجزاء من جلدنا. ملأ الذين قُبلوا الساحة وكُتِبَت النتائج المشفّرة على جلودنا بطباشير صفراء. فيما بعد، في الصفّ، بعد مقابلة قصيرة، كتبَ ضابط هندي بالطباشير الصفراء مزيدًا على الألواح المربوطة حول أعناقنا. وزننا، عمرنا، مقاطعتنا، مستوى تعليمنا، حالة أسناننا، وأيّ وحدة نصلح لها».

«لم أشعر بالإهانة من وراء ذلك، أنا واثق أن أخي سيغضب، سيتجه غاضبا إلى البئر، يرفع السطل ويغسل عنه العلامات الصفراء. لم أكن مثله، رغم أنني أحببته، وأعجبت به. لقد امتلكتُ جانبا من طبيعتي يرى سببًا في جميع الأشياء، كنت الشخص الذي يمتلك جديّة في المدرسة كان يحاكيها ويسخر منها. أنتِ تفهمين طبعا، كنت أقل جدية منه، المسألة أنني أكره المواجهة فقط، لم يوقفني هذا عن القيام بما أرغب فيه أو التصرّف بالطريقة التي أريدها. اكتشفت باكرا الفضاء المهمل المفتوح لنا نحن الذين نحيا حياة صامتة. لم أتجادل مع رجل الشرطة الذي قال لي إنني لا أستطيع أن أركب الدراجة فوق جسر محدّد، أو عبور بوابة معيّنة في الحصن. وقفت هناك فقط، هادئا حتى أصبحت خفيًّا ثم تابعت كجُندبٍ، ككأسِ ماءٍ مخبّأة. أتفهمين؟ هذا ما علّمتني إياه معارك أخي العلنيّة».

«لكن أخي كان دائما بطل الأسرة بالنسبة إليّ، كنت في الهواء المُزَاحِ لموقعه مثل رمادٍ متطاير. شهدتُ إعياءه الذي يجيء بعد كل احتجاج، جسمَه الذي يتهيّأ ليستجيب لتلك الإهانة أو ذاك القانون. لقد حطّم تقاليد عائلتنا ورفض رغم كونه الأخ الأكبر، أن يتطوع في الجيش، رفض أن يوافق على أي موقف يكون

مكتبة

فيه الإنجليز سلطة، ولهذا زجوا به في السجن، في سجن لاهور المركزي، ثم في سجن جاتناكار. يستلقي في سريره ليلا، يده مرفوعة إلى عنقه داخل ضُماد، بعد أن كسرها أصدقاؤه ليحموه، لمنعه من محاولة الهرب، أصبح في السجن هادئا ومخادعا، مثلي، لم يشعر بالإهانة حين سمع أنني تطوّعت لأحلّ مكانه وتخلّيت عن دراسة الطب. ضحك فقط وأرسل رسالة مع والدنا أوصاني فيها بالحذر، لن يعارض أبدا ما فعلت أو يعارضني، كان واثقا أنني أمتلك الذكاء للبقاء على قيد الحياة، أنني قادر على الاختباء في الأمكنة الصامتة».

يجلس على طاولة المطبخ يتحدث مع هانا. ينطلق كارافاجيو بسرعة في طريقه إلى الخارج حاملا حبالا ثقيلة على كتفيه والتي هي شيء خاصّ به كما أجاب حين سألوه عنها، يجرها خلفه وحين يخرج من الباب يقول: «يريد المريض الإنجليزي أن يراك أيها الفتى».

«حسنا أيها الفتى»، ويقفز المهندس وتختلط لكنته بلكنة كارافاجيو الويلزيّة المزيّفة.

«يحمل أبي طائرًا يُبقيه قربه دومًا، أظنّه طائر سمامة صغير، كأنه ضروري لراحته، مثل نظارة أو كأس ماء أثناء تناول الطعام، حتى وإن دخل إلى غرفة نومه في المنزل يحمله معه، وحين يذهب إلى العمل يعلّق القفص الصغير على مقود دراجته».

«هل ما يزال والدك حيا؟»

«آه! نعم، أظن ذلك، لم أتلق رسائل منذ بعض الوقت، ومن المرجّح أن يكون أخي ما زال في السجن».

ما زال يتذكر أمرًا واحدًا. الحصان الأبيض. يشعر بالحرارة على الهضبة الكِلسيّة، غبارها الأبيض يدوّم حوله، إنه يعمل على تعطيل البِدعة الغريبة، التي هي واضحة تماما، لكنه لأوّل مرّة يعمل وحيدا. تجلس الآنسة موردن على بُعد عشرين ياردة فوقه، فوق المنحدر تسجّل ملاحظات عمّا يفعله، يعرف أنه في أسفل الوادي وعبره يراقبه اللورد سفولك بالمنظار.

يعمل ببطء، يرتفع غبار الطباشير ثم يستقر على كل شيء، على يديه وعلى البِدعة في اللغم، فكان عليه أن ينفخه عن أغطية الصمّام والأسلاك باستمرار كي يشاهد التفاصيل. يشعر بالحرارة في سترته القصيرة الضيّقة، يتابع وضع رسغيه المتعرّقين خلفه ليمسحهما بقفا قميصه، جميع الأجزاء المفكوكة والمزالة تملأ الجيوب المختلفة على صدره. إنه متعب، ويُكرّر تفحّص الأشياء باستمرار. يسمع صوتَ الآنسة موردن: «كيب». «نعم؟». «توقّف عمّا تفعله بعض الوقت، سوف أنزل إليك». «من الأفضل ألّا تفعل، آنسة موردن». «أنا قادرة على ذلك بالطّبع». يزرّر قميصه ويضع قماشة على البندقية، تهبط بارتباك إلى الحصان الأبيض ثم تجلس إلى جانبه وتفتح حقيبتها. تفتح منديلا مخرّما فيه محتويات زجاجة كولونيا صغيرة وتمرّرها إليه. «امسح وجهك بهذه، يستخدمه اللورد سفولك لينعش نفسه». يأخذه بحذر، يمسح جبهته وعنقه ورسغيه. تفتح الترمس وتسكب شايًا لكلّ منهما. تفتح أوراقا مبلّلة بالزيت وتُخرج شرائح من كعكة كبلنغ.

بدت مستعجلة للعودة إلى أعلى المنحدر، إلى الأمان، وسيكون من الوقاحة تذكيرها أنها يجب أن تعود. تتحدث ببساطةٍ عن الحرارة البائسة وحقيقة أنهم على الأقل حجزوا غرفا في البلدة فيها حمّامات يمنّون النفس بالعودة إليها. تبدأ قصة صاخبة عن كيفية لقائها مع اللورد سفولك ولا تذكر أبدا القنبلة الموجودة إلى جانبهما. كان يُبطئ أكثر وأكثر من عمله، بالطريقة التي يعاود فيها المرء قراءة الفقرة نفسها إذا غزاه النوم، محاولا أن يجد صلة بين الجُمَل. لقد أخرجته من دوّامة المشكلة. تحزم حقيبتها بحذر، تضع يدا على كتفه اليمنى وتعود إلى موقعها على الملاءة فوق حصان ويستبري، تترك له نظارات شمسية لكنه لا يستطيع أن يرى بوضوح عبرها فيضعها جانبا ويعود إلى العمل. عطر كولونيا، يتذكّر أنه شمّه مرة حين كان طفلا، حين أصابته الحمّى ومسح شخصٌ ما جسمه به.

VIII

الغابة المقدّسة

يسير كيب خارجًا من الحقل الذي كان يحفر فيه، يده اليسرى مرفوعة أمامه كأنه لواها.

ينقل الفزّاعة إلى حديقة هانا، الصّليب الذي تتدلى عليه عُلَب سردين، ثم يصعد نحو الفيلا. يغطي اليد المرفوعة أمامه بالأخرى كأنه يحمي لهبَ شمعة. تقابله هانا في الدكّة، يمسك يدها ويضعها على يده. الخنفساء التي تدور على ظفر إصبعه الصغير، تعبر بسرعةٍ إلى رسغها.

تستدير نحو المنزل. يدها مرفوعة أمامها الآن. تسير عبر المطبخ وتصعد الدرج.

يستدير المريض ليواجهها حين تدخل، تلمس قدمه باليد التي تحمل الدعسوقة. تتركها تتحرّك على الجلد الأسمر، متجنبة بحر الملاءة الأبيض، تبدأ مسارها الطويل نحو بقيّة جسده، وتبدو لونًا أحمرَ متألّقا على ما يبدو كمثلِ حمم بركانية.

تنقذف في المكتبة علبة الصمّام في الجو، بعد دفعها كارافاجيو دون قصد حين استدار إلى صرخة هانا المبتهجة في الرّدهة. وقبل وصولها الأرض، ينزلق جسد كيب تحتها ويلتقطها بيده.

يحدق كارافاجيو نحو الأسفل فيرى وجه الشاب ينفخ هواء رئتيه كلّه بوجنتين منفوختين.

يفكر بسرعة أنّه مَدين له بحياته.

يضحك كيب فاقدًا خجله أمام الرجل الأكبر سنا، حاملا عُلبة الصمّام.

سيتذكر كارافاجيو تلك الانزلاقة. يستطيع الرّحيل الآن، ألّا يراه ثانية، لكنّه لن ينساه أبدًا. فبعد أعوام من الآن، في أحد شوارع تورنتو، يخرج كارافاجيو من تاكسي ويُبقي الباب مُشرعًا لهنديّ شرقيّ كان على وشك الدخول إليها، فيفكّر بكيب تلك اللحظة.

الآن يضحك مهندس الألغام إلى الأعلى، إلى وجه كارافاجيو، ومنه إلى السّقف.

قال كارافاجيو فيما يلوّح بيده نحو كيب وهانا: «أعرف شيئًا عن راد الوِزْرَة، لقد قابلت أولئك الهنود الذين يعيشون في الطرف الشرقي من تورنتو. كنت أسرق منزلًا حينها وتبيّن أنه لعائلة هندية، نهضوا من أسرّتهم وكان كلّ واحد منهم يرتدي وِزْرَةً للنوم، وقد فتنتْني. تبادلنا الأحاديث مطوّلًا، وفي النهاية أقنعوني أن أرتديه. نزعت ثيابي وارتديت واحدا، ثمّ قضوا عليّ، إذ راحوا بعدها يطاردونني وأنا نصف

عـارٍ في الليل».

ابتسمَت هانا: «هل هذه قصة حقيقية؟»

«واحدة من كثيرات».

كانت تعرف عنه ما يكفي لتصدّقه. لطالما سَرّ كارافاجيو العنصرَ البشريّ أثناء السرقات، إذا دخل منزلًا في عيد ميلاد فإنّه يتضايق إذا لاحظ أن تقويم الأيّام مفتوح على التاريخ الخطأ. وغالبا ما كان يتبادل الأحاديث مع الحيوانات العديدة التي تُتْرَك وحيدة في المنازل، ويناقش معها الوجبات ويقدّم لها حصص طعام ضخمة، وكانت غالبًا تحيّيه بمُتعةٍ إذا عاد إلى مسرح الجريمة.

تسيرُ أمام رفوف المكتبة، عيناها مغمضتان، وتسحب كتابا بشكل عشوائيّ. تعثر على مكان فارغٍ بين قسمين في الكتاب الشّعريّ وتبدأ بالكتابة هناك:

يقول إنّ لاهور مدينة عريقة، وإنّ لندن بلدة حديثة مُقارنةً بها. فأقول، حسنًا، أنا من بلادٍ أحدث. يقول إنهم لطالما عرفوا البارود، فلوحات الطبقة النبيلة في القرن السابع عشر سجّلت عروضَ ألعاب ناريّة.

إنه صغير، وليس أطول مني كثيراً. يحمل ابتسامة وديّة تستطيع أن تفتن أي شيء حين يبتسم. في طبيعته فظاظة لا يُظهرها. يقول الإنجليزي إنه واحدٌ من أولئك المحاربين القدّيسين، لكنه يحمل حسّ فُكاهة لا يوحي به أسلوبه. تذكّري «سوف أوصل السّلك صباحًا» أوه لا لا!

يقول إن في لاهور ثلاث عشرة بوابة تُفضي إليها، مُسمّاة بأسماء القدّيسين والأباطرة، أو المناطق التي تُفضي إليها.

كلمة بُنْغل (بيت من القشّ)، جاءت من اللغة البنغالية[105].

الرّابعة عصْرًا، أنزلوا كيب إلى الحفرة مع المعدّات إلى أن وصل إلى خصره في المياه الموحلة، ثنى جسمه حول جُرْم قنبلة من نوع إيسو. ارتفاع هيكلها من الزعنفة إلى الرأس عشرة أقدام، ومقدّمتها غائصة في الوحل عند قدميه. أمسكَ بين بفخذيه الغلافَ المعدني تحت المياه البنيّة، كما رأى الجنود يمسكون النساء في زاوية قاعة رَقص، حين تعبت يداه أسندهما إلى الدعامات الخشبية على مستوى الكتف التي نُصبتْ هناك لمنع الوحل من الانهيار حوله. حفرَ مهندسو الألغام الحفرة حول القنبلة إيسو ونصبوا الأعمدة الخشبية قبل أن يصل إلى الموقع. عام 1941 بدأت تسقط عليهم قنابل إيسو بصمّامات جديدة على شكل حرف (Y)، وهذه قنبلته الثانية.

قُرِّر أثناء جلسات التخطيط أن الطريقة الوحيدة حيال الصمّام الجديد هي تركه سليمًا. القنبلة ضخمة وفي وضعيّة حيوان النّعامة. نزل حافيا وبدأ يغوص في بُطء بعد أن أمسكه الوحل، غير قادر على أن يجد موطئا صلبًا في المياه الباردة. لم يكن يرتدي حذاءه، كان سيعلق في الوحل ويُمكن أن يكسر كاحليه حين يُرفع بالبكرة فيما بعد.

وضع خده الأيسر على الغطاء المعدني محاولا أن يفكّر في الدفء، أن يركّز على لمسة الشّمس الصغيرة السّاقطة على قفا عنقه، التي وصلت إلى الحفرة التي يبلغ عمقها عشرون قدمًا. ما يعانقه يمكن أن ينفجر في أيّ لحظة حالما ترتعش آلات القدح، وتنفجرُ الشحنة الأولية. لم يكن يوجد سحرٌ أو أشعة سينيّة تُخبر أي

شخص أين تحطمت الكبسولة الصغيرة في الداخل، أو أيّ سِلك سيتوقف عن التذبذب. تلك الإشارات الميكانيكية الصغيرة مثل لعثمة قلب، أو سكتة قلبية تحدث لرجل يعبر الشارع ببراءة أمامك.

في أي بلدة هو؟ لم يستطيع أن يتذكر. سمع صوتا ونظر إلى الأعلى، أنزل إليه هاردي العدّة في حقيبة مربوطة بحبل، وتعلّقَتْ أعلاهُ هناك بينما كان كيب يحاول أن يُدخل المقصّات والأدوات في جيوب سترته الكثيرة، يُدندن بالأغنية التي كان يغنيها هاردي في سيارة الجيب في طريق العودة إلى الموقع:

إنهم يغيّرون الحرّاس في قصر بكنغهام -
ومع آليس رحلَ كريستوفر روبن المُستهام.

جفّف منطقة رأس الصمّام وبدأ يضع كوب طينٍ حوله. ثم فتح زجاجة وسكب سائل الأوكسجين في الكوب. شدّ الكوب بشكل آمن على المعدن، الآن عليه أن ينتظر ثانية.

بينه وبين القنبلة مسافة قليلة بحيث شعر بتغيّر درجة الحرارة مسبقا. لو كان على أرضٍ جافة لاستطاع أن يسير بعيدا ويعود بعد عشر دقائق. عليه أن يقف الآن قرب القنبلة. كانا مخلوقَين مشبوهَين في مكان مغلق. النّقيب كارليل يعمل على تعطيل قذيفة بالأوكسجين المتجمّد، وفجأة اشتعلتْ الحفرة كلها، أخرجوه بسرعة، فاقدًا الوعي بطقم عدّته.

أين كان هو؟ في ليسون غروف؟ في أولد كينت رود؟

غمس كيب قطعة صوف قطنيّ في المياه الموحلة تحته ثم ألصقها بالغطاء على بعد اثني عشر إنشًا من الصمّام. لكنّها سقطت. وهذا يعني أن عليه أن ينتظر فترة أطول. لو التصق الصّوف القطني، فإنّه يعني أن منطقة كافية حول الصّمام قد تجمّدت، ويستطيع أن يتابع عمله. سكبَ مزيدًا من الأوكسجين في الكوب. نصفُ قُطر دائرة التجمّد المتنامية بلغت قَدَمًا الآن، نظر إلى القصاصة التي ثبّتها

أحدهم على القنبلة. قرأوها وهم يضحكون كثيرا في ذلك الصباح على عُلبة الأدوات والعدّة الحديثة التي أُرسلت إلى جميع وحدات تدمير القنابل.

متى يكون الانفجار جائزًا منطقيًا؟

إذا رُمْـزَ إلى حيـاة الإنسـان بحـرف «أ» وإلى المجازفـة «ب» وإلى الأذى المقـدّر مـن الانفجـار «ت» إذًا يسـتطيع المنطـق أن يقـول إنـه إذا كان "ت" أصغـر مـن «أ» تقسـيم «ب» فإنّـه يجـب أن تُفجّـر القنبلـة، لكـن إذا كان «ت» تقسـيم «ب» أكـبر مـن «أ» فتجـب محاولـة تجنّـب الانفجـار في الموقـع.

من كتبَ أشياء كهذه؟
مرّتْ ساعة على بقائه مع القنبلة في الحفرة، واصل سكب الأوكسجين السّائل، كان على ارتفاع ذراعه إلى اليمين أنبوب يضخ إلى الأسفل هواء طبيعيًا لكي لا يصاب بالدوار من الأوكسجين، (شاهدً جنودا متعبين من الشراب يستخدمون الأوكسجين ليعالجوا صداعهم)، جرّب الصّوف القطنيّ مرّة ثانية والتصق متجمّدًا هذه المرة. أمامه حوالي عشرين دقيقة، بعد ذلك سترتفع درجة حرارة بطارية القنبلة ثانية، لكن الآن تجمّد الصمّام ويستطيع أن يبدأ بإزالته.
مرّر يده أعلى علبة القنبلة وأسفلها ليفحص أيّ تمزّق في المعدن، سيكون الجزء المغمور آمنًا، لكن الأوكسجين يمكن أن يشتعل إذا اتّصل مع متفجّر مكشوف. هذا ما حدث مع كارليل. «أ» تقسيم «ب». إذا كان المتفجّر متمزّقًا، فإن عليهم إذًا استخدام النيتروجين السائل.
جاء صوت هاردي من أعلى الحفرة الطينية: «إنها قنبلة إيسو، وزنها ألفا رطلٍ يا سيدي، من نمط خمسين، في دائرة على شكل «B»، وتحوي جيْبَين للصمّام على الأرجح، لكن نعتقد أن الجيب الثاني غير مسلّح، حسنًا؟»

ناقشا هذا من قبل، لكن الأشياء تؤكَّد، تُذكَر مرّةً أخيرة.

«ضعني الآن على ميكروفون وتراجع».

«حسنًا سيدي».

ابتسم كيب. كان يصغُر هاردي بعشرة أعوام، وليس إنجليزيًّا، لكن هاردي كان أكثر سعادة تحت الغطاء الواقي للنظام العسكري. الجنود يترددون دائما في مناداته بسيّدي، لكن هاردي نبحها بصوتٍ مرتفع وحماس.

كان يعمل بسرعةٍ الآن لإخراج الصمّام، بما أن البطاريات تعطّلت بعد تجمّدها مؤقّتًا.

«هل تسمعني؟ صفّر إذا كان جوابك نعم... حسنًا، سمعتها، سأسكب غطاءً أخيرًا من الأوكسجين، ونتركه يرغي لمدة ثلاثين ثانية، لكي أعزّز الجليد المتكوّن أكثر، حسنا سأزيل الحاجز... أزلته».

كان هاردي يصغي إلى كل شيء ويسجّله خَشية أن يكون هناك حركة خاطئة، شرارة واحدة وسيكون كيب في حفرة من اللهب، أو ربما توجد بِدعة في القنبلة، على الشخص التالي أن يفكر بالبدائل.

«أنا أستخدم مفتاح كيلتر». أخرجَه من جيب صدره، وكان باردا وعليه أن يدلكه ليدفئه. أزال حلقة القُفل وحلقة الحصْر. أخبر هاردي بذلك.

«إنهم يغيّرون الحرّاس في قصر بكنغهام» يهمس كيب. جذبَ حلقة القُفل وحلقة الحصْر وجعْلهما تغوصان في الماء. شعر بهما تتدحرجان ببطء عند قدميه، سيستغرق كل شيء أربع دقائق أخرى.

«آليس تتزوج أحد الحراس. قالت: إنّ حياة جنديّ ما ستكون بائسة!».

كان يغني بصوتٍ مرتفع محاولا أن يدخل بُعض الدفء إلى جسده. صدره يؤلمه من البرد. تابع محاولة الاستناد إلى الخلف للابتعاد بما يكفي عن المعدن المتجمّد أمامه. وكان عليه أن يتابع تحريك يديه إلى الأعلى حتى قفا عنقه حيث كانت الشمس ما تزال هناك، ثم يدلّكهما ليحرّرهما من الطين والسخام والتجمّد. كان من الصعب جعل الطوق المعدني يمسك الرأس، وارتعب حين تحطم رأس

الصمّام بشكل كامل.

«هناك خطأ يا هاردي، رأس الصمام كله تحطم، تحدّث معي، اتفقنا؟ الجسم الرئيسي للصمّام مثبّت هنا، لا أستطيع أن أصل إليه، لا يوجد شيء مكشوف أستطيع أن أمسكه لأجذبه خارجًا».

«إلى أين وصل التجمد الآن؟» هاردي فوقه، انتباهه إلى أمر التجمّد هو الأصْوَب. لقد تأكّد من الأمر قبل بضع ثوانٍ لكنّه أسرع يتلمّس المعدن.

«نحتاج إلى ست دقائق أخرى من التجمّد».

«أُخرج وسنفجرها».

«لا، أعطني مزيدا من الأوكسجين».

رفع يده اليمنى وشعر أن عُلبةً جليدية وضعت فيها.

«سوف أصبّ الأوكسجين في منطقة الصّمام المكشوفة، حيث انفصل الرأس، ثم سأشقّ المعدن إلى أن أمسك بشيء. تراجع الآن، سأتحدث معك».

استطاع أن يكظم غيظه بصعوبة حيال ما حدث. الرّوَث، الاسم الذي يطلقونه على الأوكسجين، كان يندلق على ثيابه كلّها ويهسهس حين يلامس الماء. انتظر ظهور التجمّد وبدأ يقصّ المعدن بمعزق، سكب المزيد، انتظر وقصّ عميقًا. حين لم يظهر شيء اقتطع قطعة من قميصه ووضعها بين المعدن والمعزق ثم بدأ يدقّ المعزق بشكل خطير بمطرقة خشبية مُزيلًا القطع. كانت قطعة قميصه درْعَه الوحيد من أيّ شرارة، والمشكلة الكبرى هي برودة أصابعه. لم تعُد رشيقة، بل معطّلة متجمّدة مثل بطاريّات القنبلة. تابع القصّ جانبيًا في المعدن حول رأس الصمام المفقود، قاصًّا إياه في طبقات، آملا أنّ التجمّد سيقبل هذا النوع من الجراحة. إذا قطع إلى الأسفل بشكل مباشر فإنّه قد يضرب كبسولة القدح التي تُشعل الشحنة الأولية.

استغرقت العملية خمس دقائق أخرى، لم يتحرك هاردي من فوق الحفرة، وبدلًا من ذلك كان يعطيه الوقت التقريبيّ المتبقّي للتجمد. لكن في الحقيقة لم يكن أيّ منهما متأكّدًا. منذ أن حطّم رأس الصمام، كانوا يجمّدون منطقة مختلفة. باتت

درجة حرارة الماء أبْرَد من درجة حرارة المعدن.
عندئذٍ شاهد شيئا ما. لم يجرُؤ على توسيع الثقب. كان موصِّل الدائرة يتذبذب مثل حلق فضّي. لو يستطيع الوصول إليها. حاول أن يدلّك يديه ليدفئهما.
تنفّس وبقي هادئا بضع ثوانٍ وقطعَ بالكماشة الإبريّة الموصّل إلى اثنين قبل أن يزفر مرة ثانية. شهق حين حرق التجمّد جزءا من يده حين سحبها خارج الدّارات، عُطّلت القنبلة.
«أزيلت الصمامة. أزيلت الشحنة الابتدائية، قبّلني». كان هاردي قد بدأ بتشغيل الرافعة، فيما كيب يحاول أن يمسك الحبل، بالكاد استطاع أن يفعل ذلك بسبب الحرق والبرد، جميع عضلاته باردة. سمع البكرة تدور وأمسك فقط بشدّة القطَع الجليديّة التي كانت ما تزال نصف مثبّته حوله. بدأ يشعر أن قدميه السمراوين تُسحبان من قبضة الوحل، تُنتشلان كجثة غريق من مستنقع. قدماه الصغيرتان تنهضان من الماء. بزغ. رُفع من الحفرة إلى ضوء الشمس، أوّلًا الرأس ثم الجذع.
تعلّق هناك، يستدير في بُطء تحت الخيمة المخروطية التي تشكّلها حاملات بكرة الرّافعة. عانقه هاردي وفكّه في الوقت نفسه وحرّره. فجأة شاهد حشدًا ضخمًا يُراقبه على بُعد عشرين ياردة. كانوا جريئين جدا وقريبين بما يكفي لإصابتهم، وبالطبع لم يكن هاردي هناك ليُبعدهم.
راقبوه في صمت، الهنديّ معلّق بكتف هاردي، غير قادر على السّير إلى الجيب بعتاده كله: الأدوات والعلب والبطانيات، وآلات التسجيل ما زالت تدور، لا يصغي إلى أي شيء هناك في المهوى.
«لا أستطيع أن أسير».
«فقط إلى الجيب، بضع ياردات فقط يا سيدي، سأحمل البقيّة».
تابعا التوقف ثم السير ببطء، كان عليهما أن يعبرا الوجوه المحدّقة التي كانت تراقب الرّجل الصغير الأسمر حافي القدمين الذي يرتدي سُترة مبلّلة، الوجوه التي كانت تراقب الوجه المرسوم الذي لم يتعرّف أو يميّز أيًّا منها. كانوا جميعا صامتين، يخطون إلى الخلف فقط ليفسحوا الطريق له ولهاردي. بدأ يرتجف في

الجيب. لم تستطع عيناه أن تتحمّلا الوهج على الحاجب الزجاجي للسيارة. كان على هاردي أن يرفعه على مراحل إلى مقعد الراكب.

حين غادر هاردي، نزع كيب ببطء بنطاله المبلل ولف نفسه ببطانية، ثم جلس هناك، غير قادر حتى على فتح ترمس الشاي الساخن الموضوع على المقعد الى جانبه بسبب التعب والبرد. فكّر: لم أكن خائفا هناك في الحفرة، كنت غاضبا فقط من خطأي، أو من إمكانية وجود بِدعة جديدة. كنت كالحيوان الذي يحاول أن يحمي نفسه.

أدْرَكَ أن هاردي هو الوحيد الذي أبقاه بشريًّا.

حين يحلّ يومٌ حارّ على ڤيلا سان جيرولامو، يغسل الجميع شعرهم في البداية بالكيروسين لإزالة احتمال وجود القمل ثم بالماء. مستلقيًا، رادًّا شعره إلى الخلف، مُغمضًا عينيه إزاء الشمس، يبدو كيب فجأة سريع التأثّر. يخجل حين يتّخذ هذه الوضعية الهشّة ويبدو أشبه بجثّة من عالم الأساطير، أكثر منه أيّ شيء حيّ أو بشريّ. تجلس هانا إلى جانبه، جفّ شعرها البُنيّ الدّاكن. هذه هي الأوقات التي يتحدث فيها عن الأسرة وعن شقيقه في السجن.

سوف يجلس ويدفع شعره إلى الأمام ويبدأ بتدليكه بمنشفة. تتخيّل آسيا كلها عبر إيماءات هذا الرّجل، والطريقة التي يتحرّك بها في كسل، وحضارته الهادئة. يتحدّث عن قدّيسين محاربين وتشعر الآن أنه واحدٌ صارمٌ ورُؤيويّ، يتوقّف فقط في هذه الأوقات النادرة لضوء الشمس نازعًا القداسة عنه، متخليًّا عن صفته الرسمية. يُعيد رأسه إلى الطاولة لتجفّف الشّمس شعره المتناثر كما الحنطة في سلة قشّيّة على شكل مروحة. ورغم أنّه شخص من آسيا، اتّخذ في هذه الأعوام الأخيرة من الحرب آباءً إنجليزًا، اتّبع تعاليمهم كابنٍ مُطيع. «آه! لكن أخي يعتقد أني أحمق لأنني وثقت بالإنجليز». يستدير نحوها وضوء الشمس في عينيه «يومًا سأفتح عينيّ، يقول لي دومًا. آسيا ما تزال قارة مُسْتعبَدة، يقول، ويرعبه كيف نقحم أنفسنا في الحروب الإنجليزيّة، إنها معركة رأي خضناها دائمًا. يومًا ما ستفتح عينيك، يبقى يكرّر ذلك على مسامعي.

يقول مهندس الألغام هذا وعيناه مغمضتين بإحكام، ويسخر من الاستعارة.

«قلتُ له إن اليابان جزء من آسيا، لكن اليابانيون عاملوا الطائفة السّيخيّة بوحشية في الملايا، لكن أخي يتجاهل هذا، يقول إن الإنجليز يشنقون السّيخ الذين يقاتلون من أجل الاستقلال».

تسيرُ مبتعدة عنه وذراعاها مطويتان. ضغائن العالم، ضغائن العالم. تمشي في العتمة النهارية للفيلا وتدخل لتجلس مع الإنجليزي.

ليلًا، حين تُحرّر شعر كيب، يصبح مرة ثانية بتركيبة مختلفة: أذرُع آلاف خطوط الاستواء تمتدّ على مخدّته، تموّجاتها بينهما أثناء العناق وأدوار نومهما. تحضن إلهة هنديّة بين ذراعيها، تحضن الحنطة والشرائط، وحين ينحني فوقها ينسكب. تستطيع أن تربطه على رسغها، حين يتحرّك تُبقي عينيها مفتوحتين كي ترى شُعَل الكهرباء تومض في شعره خلال ظُلمة الخيمة.

يسيرُ دائمًا قُربَ الجدران، آمنًا، في علاقته بالأشياء، جدران عالية. يُنعم النظر في مُحيطه. حين ينظر إلى هانا يرى جزءً من وجنتها التي تغدو هزيلة بالنّسبة إلى الأراضي الممتدّة خلفها. كما قد ينظر إلى طَير فيرى قوسَ تدويمَته بالنسبة إلى مساحته المرتفعة عن سطح الأرض. سارَ عبر إيطاليا بعينين حاولتا أن تشاهدا كل شيء، ما عدا المؤقّت، والإنسانيّ.

إن الشيء الوحيد الذي لن يفكر فيه أبدًا هو نفسه. لا يفكّر في ظلّه الشّفقي أو يده التي تمتد إلى قفا كرسيّ، أو انعكاسه في نافذة، أو كيف يُراقبونه. لقد تعلّم خلال أعوام الحرب أنّ الشيء الوحيد الآمن هو نفسه فلا يفكّر فيها.

يُمضي ساعات مع الإنجليزي الذي يذكّره بشجرة تنّوب رآها في إنجلترا، حملتْ غصنَها الوحيد المريض المُثقل من تقدّمه في العمر ركيزةٌ صُنعتْ من شجرة أخرى انتصبتْ في حديقة اللورد سفولك على حافّة الجُرف، مُطلّة على قناة بريستول مثل حارس. ورغم ضعفها، أحسّ أن الكائن الذين في داخلها نبيل ويحمل ذاكرة توهّجت قوّتها في ما وراء المرض.

لكن ليس لديه مرايا. يطوي عمامته في الخارج، في الحديقة، ناظرا إلى الطحالب على

الأشجار. يلاحظ الرقعة التي أحدثها المقص في شعر هانا. يألَفُ نَفَسَها حين يضع وجهه إزاء جسدها، على التّرقوة، حيث يشفّ عظمُها عن جلدها، لكن إذا سألته ما لون عينيها، رغم أنه بدأ يعبدها، فإنّك ستشكّ أنه يعرفه. سيضحك ويخمّن، لكن هي، ذات العينين السوداوين، إذا قالت بعينين مغمضتين إنهما خضراوان، فإنّه سيصدّقها. يمكن أن ينظُر متقصّدا إلى الأعين، لكنه لن يسجّل لونها، كما الطعام في حنجرته أو معدته، مجرّد ألياف أكثر منها ذَوْقًا أو شيئًا مُحدّدًا.

حين يتحدث شخصٌ فإنه ينظر إلى فمه، لا إلى عينيه ولونهما الذي يبدو له أنه سيتغيّر دومًا حسب ضوء الغرفة والسّاعة من النهار. تكشف الأفواه غياب الأمن أو النظافة أو أيّ لطخة أخرى في طَيف الشخصيّة، بالنسبة إليه هي المظهر الأكثر تعقيدًا للوجوه. ليس متأكّدًا أبدًا ما يمكن أن تكشفه العيون. لكنه يستطيع أن يقرأ كيف تتّجه الأفواه نحو الصّلابة أو توحي بالرقّة، إن المرء يمكن أن يُخطِئ غالبًا في الحكم من خلال العيون، من ردّة فعلها على شُعاع شمس بسيط.

كل شيء بالنسبة إليه جزء من انسجام متبدّل، يراها في ساعات وأمكنة مختلفة تبدّل صوتها أو طبيعتها، وحتى جمالها، بالطريقة التي تحكُم بها القوّةُ الداخليّة للبحر قَدَرَ قوارب النجاة أو تهدّدها.

اعتادوا أن يستيقظوا مع بزوغ الفجر ويتناولوا الطعام في الضوء المتاح. أمّا آخر المساء فليس سوى شمعة واحدة تتوهّج في الظُّلمة قرب المريض الإنجليزي، أو مصباح يمتلئ زيتًا حتى المنتصف إذا نجح كارافاجيو في إحدى سرقاته. لكن الممرّات وغرف النوم الأخرى ترتع في الظلام كأنها مدينة مدفونة. اعتادوا السّير في الظُّلمة وأيديهم إلى الأمام، تتلمّس الجدران على كلا الجانبين بأصابعها.

«لا مزيد من الضوء، لا مزيد من اللون»، تُواصل هانا ترديد هذه العبارة لنفسها. إن عادة كيب المُثيرة للأعصاب في القفز فوق سياج الدّرج واضعًا إحدى يديه عليه يجب أن تتوقّف. تخيّلتْ قدميه تسافران عبر الهواء وتضربان معدة كارافاجيو العائد إليهم من حيث ذهب.

نفخَت شُعلة الشمعة في غرفة الإنجليزي منذ ساعة، نزعت حذاءها وفكّت أزرار ردائها عند العنق بسبب حرارة الصيف، أيضا فتحت أزرار الكُمَّين وشمّرتهما. فوضى عذبة.

تنتصف الطّابق الأوّل الرّئيس من الڤيلا ساحة داخليّة – إضافة إلى مطبخ ومكتبة ومصلى مهجور – تُحيطها أربعة جدران زجاجية مع باب مثلها، داخلها بئر مغطّاة ورفوف من النباتات الميتة لابدّ أنها أزهرت يومًا ما في الغرفة المدفّأة. ذكّرتها هذه الساحة الداخلية بكتاب فُتح ليكشف أزهارًا مضغوطة، شيء يُنظَر إليه أثناء العبور جواره، ولا يُدخل إليه أبدا.

كانت الساعة الثانية صباحًا.

دخل كلّ منهما إلى الفيلا من باب مختلف، هانا من مدخل المصلى على الدّرجات الستّة والثلاثين، ودخل هو من الساحة الشماليّة. فور دخوله نزع ساعته ووضعها في تجويف على مستوى الصّدر حيث كان يستريح قديس صغير، راعي هذه الفيلا التي أضحت مشفى. لن تلمح الضوء الفوسفوري، كان قد نزع حذاءه وارتدى بنطالًا فقط. انطفأ الضوء المثبّت على ذراع ما، لم يحمل شيئا آخر. وقف هناك وهلة في الظُّلمة فتى نحيل، عمامة داكنة، الكارا تُحيط رسغه إزاء الجلد، استند إلى رُكن الممرّ كأنه رُمح.

ثم انحدر عبر الساحة الداخلية، دخلَ المطبخ وحالًا أحسّ بوجود كلب في الظلام، فأمسكه وربطه بحبل إلى الطاولة، أخذ الحليب المكثف عن رف المطبخ وعاد إلى البيت الزجاجي في الساحة الداخلية. مرّر يديه على قاعدة الباب ووجد العِصِيّ الصغيرة تستند إليه، دخل وأغلق الباب خلفه وفي اللحظة الأخيرة مدّ يده ليُسند العِصِيّ إلى الباب ثانية كي لا يجعلها تشاهده، ثمّ هبط إلى البئر، كان يوجد لوح خشبيّ على عمق ثلاثة أقدام عرفَ أنه قوي، أغلق الغطاء خلفه وانحنى هناك متخيّلًا أنها تبحث عنه أو تُراقبه، بدأ يمصّ علبة الحليب المكثّف.

اشتبهت أنه سيفعل أمرًا مشابهًا. إذ بعد أن شقّت طريقها إلى المكتبة، أشعلت الضوء الذي على الذّراع، ومشت إلى جانب خزائن الكتب الممتدّة من كاحلَيها إلى ارتفاعات لا مرئية فوقها. الباب مغلق، وهكذا لا ضوء سيكشف نفسه لأيّ شخص في قاعات المنزل. سيتمكن من رؤيته خلال النوافذ الفرنسيّة إذا كان واقفًا في الخارج وحسب. كانت تتوقف كل بضعة أيام باحثة مرة أخرى بين الكتب الإيطالية المهيمنة عن الكتاب الإنجليزي الغريب الذي تستطيع أن تقدّمه للمريض الإنجليزي، بدأت تحبّ هذه الكتب ذات الكُعُوب الإيطالية، وصور الأغلفة، والرّسومات الملوّنة والأغلفة النسيجيّة ورائحتها، حتى صَوْت الطقطقة حين تفتحها بسرعة كأنها سلسة صغيرة غير مرئية من العظام، توقّفتْ مرة

أخرى، دَيْر بارما:

قال لكليليا: إذا حدث وتخلّصتُ من متاعبي، سأسافر كي أشاهد الصّور الجميلة في بارما، وعندها هل ستتفضّلين وتتذكّرين الاسم: فابريزيو ديل دونغو.

كان كارافاجيو يستلقي على السجادة في النهاية القصوى للمكتبة، بدا من ظلمته أن ذراع هانا اليسرى كانت فوسفورا خاما يضيء الكتب عاكسا الاحمرار على شعرها القاتم متوهّجًا على قُطن ردائها وكُمّيها المرفوعين.

خرج من البئر.

انتشر الضوء الذي يبلغ قطره ثلاثة أقدام من ذراعها ثم امتصّه السّواد حتى أن كارافاجيو شعر بوادٍ من الظُّلمة بينهما. وضعت الكتاب ذا الغلاف الرماديّ تحت ذراعها، وحين تحرّكت، ظهرت كُتبٌ جديدة واختفت أخرى.

لقد كبُرتْ، وأصبح يحبها الآن أكثر مما أحبّها حين فهمها بشكل أفضل، حين كانت نتاج والديها. ما هي عليه الآن هو ما قرّرت بنفسها أن تصبحه. يعرف أنه لو عبرَ قُرب هانا في شارع في أوروبا فإنّها ستعرفه، لكنه لن يقدر على التعرّف عليها، في الليلة الأولى لمجيئه إلى الفيلا، مَوّهَ صَدْمته، وامتلأ وجهها المتقشّف الذي بدا باردًا في البداية بالحِدّة. أدرك أثناء الشّهرين الأخيرين أنه اعتاد ما هي عليه الآن. بالكاد صدّق مُتعته إزاء تحوّلها. قبل أعوام حاول أن يتخيّلها كراشدةٍ لكنه ابتكر شخصًا بمواصفات صِيغَت من جماعتها، لا تنطبق على هذه الغريبة الرائعة التي يمكن أن يحبّها بشكل أعمق لأنها لم تتشكّل من أيّ شيء قدّمه هو إليها.

استلقتْ على الأريكة وأخفضتْ المصباح لتستطيع أن تقرأ، وغرقتْ عميقا في الكتاب، فيما بعد نظرت إلى الأعلى مُصغية، ثم أطفأت المصباح بسرعة.

أكانت واعية لوجوده في الغرفة؟ كان كارافاجيو مُدركًا لضجّة تنفّسه والصعوبة التي كان يعاني منها في التنفّس بطريقة منظمة ورزينة. اشتعل الضوء لحظة ثانية، ثم انطفأ بسرعة.

ثم بدا أن كل شيء في الغرفة يتحرك ما عدا كارافاجيو. استطاع أن يسمع كل هذا حواليه مُندهشًا أنه لم يُلمس. كان الفتى في الغرفة. سار كارافاجيو إلى الأريكة ومدّ يده نحو هانا، لم تكن هناك. حين انتصب التفّ ذراع حول عنقه وسحبه إلى الأسفل، توهّج ضوء بقسوة على وجهه وشهق كلاهما حين سقطا على الأرض. كانت الذراع التي تحمل الضوء ما تزال تمسكه من عنقه، ثم ظهرت قدمٌ عارية في الضوء وعبرت وجه كارافاجيو، وداست عنقَ الصبيّ قُربه، اشتعل ضوء آخر. «لقد أمسكتُ بك، أمسكتُ بك».

نظر الجسدان اللذان على الأرض إلى شكل هانا المُظلم فوق الضوء المظلم، كانت تغنّي: «لقد أمسكتُ بك، أمسكت بك!» استخدمتُ كارافاجيو الذي يُصدر في الحقيقة أزيزًا تنفّسيًا سيئا، عرفتُ أنه سيكون هنا، لقد خدعتُك به!».

ضغطت قدمها بشدَة أكبر على عنق الفتى وقالت: «استسلمْ، واعترفْ».

بدأ كارافاجيو يرتجف في قبضة الفتى المغطّى بالعرق، غير قادر على تخليص نفسه. كان توهّج الضوء من كلا المصباحين متركزا عليه، وكان عليه نوعا ما أن يتسلّق ويزحف خارج هذا الرعب.

«اعترفْ»، الفتاة تضحك، احتاج أن يُخفض صوته قبل أن يتحدث، لكنهما بالكاد كانا يسمعان، مُثَارَين من مغامرتهما، خلّص نفسه من قبضة الفتى المرتخية دون أن يتفوّه بكلمة وغادر الغرفة.

أصبحا في الظُّلمة ثانية، سألته: «أين أنت؟» ثم تحرّكت بسرعة، يتّخذ موقعًا بحيث تصطدم بصدره. تضع يدها على عنقه، ثم تضع فمها على فمه. «حليب مكثف! أثناء صراعنا؟ حليب مكثف؟» تضع يدها على عنقه، وعلى عرقه، وتتذوّقه حيث كانت قدمها العارية. «أريد أن أراك». يشتعل مصباحه ويراها،

وجهها ملطخ بالأوساخ، شعرها منفوش في دوّامة بسبب التعرّق، تبتسم له.
يضع يديه النحيلتين في الكمين المرخيين لثوبها ويمسك كتفيها بيديه، إذا انحرف الآن، ستنحرف يداه معها، تبدأ بالاستناد واضعة كل ثقلها في السقوط إلى الخلف واثقة أنه سينحدر معها، واثقة أن يديه ستوقفان السقطة، ثم سيلتف رافعًا قدميه في الهواء. يداه وذراعاه وفمه عليها وبقية الجسد ذيل سرعوف. ما زال المصباح مثبتا على عضلة وعَرَق ذراعه اليسرى، يُنزل وجهها في الضوء ليقبّل ويلعق ويتذوق، تنشّف جبهته نفسها في رطوبة شعرها.
فجأة يعبر الغرفة ويقفز مصباحه في كل مكان، أمضى أسبوعا في هذه الغرفة متخلصا من جميع الصمامات المحتملة فأصبحت آمنة وكأن الغرفة خرجت أخيرا من الحرب، لم تعد مناطق أو أراضي. يتحرّك مع المصباح مؤرجحا ذراعه، كاشفا السقف ووجهها الضاحك حين يعبرها وهي واقفة على الأريكة تنظر إلى تلألؤ جسمه النحيل. في المرة الثانية التي يعبر فيها يرى أنها تنحني إلى الأسفل وتمسح ذراعيها بحافة ثوبها، وتغني: «ولكنني أمسكت بك، أمسكت بك، أنا موهيكيّةُ شارع دانفورث!»
ثم تركب على ظهره وينحرف ضوؤها على الكتب في الرفوف العالية، ذراعاها ترتفعان وتنخفضان وهو يُديرها وترمي ثقلها إلى الأمام، تسقط وتمسك فخذيه، ثم تنهض دائرة وتتحرّر منه، وتعود إلى الاستلقاء على السجادة القديمة التي ما تزال مضمّخة برائحة المطر القديم فيعلق الغبار والرمل على ذراعيها الرطبتين. ينحني عليها، تمتد يدها وتُطفئ مصباحه. "لقد ربحتُ، أليس كذلك؟» ما زال صامتا منذ دخوله الغرفة. يُحرّك رأسه بتلك الإيماءة التي تُحبّها، لا تعرف هل هي انحناءة رأس أم هزّة عدم اتفاق محتمل. لا يستطيع أن يشاهدها بسبب التوهّج. يُطفئ ضوءها فيصبحان متساويين في الظلمة.

شهرٌ واحدٌ في حياتهما نامت فيه هنا وكيب إلى جانب بعضهما. تبتُّلٌ رسميّ بينهما. اكتشفا أنّ في الجنس حضارة كاملة، بلادًا برمّتها أمامهما. حبُّ فكرتها عنه، أو

فكرته عنها. لا أريد أن أُضاجَع. لا أريد أن أُضاجِع. لا أحد يعرف أين تعلّم ذلك، أو أين تعلّمته هي، في شبابها هذا. ربما من كارافاجيو، الذي تحدّث معها أثناء تلك الأمسيات عن تقدّمه في العُمر، وعن الرِقة في كُلّ خليّة في جسد عاشق، والتي تجيء حين يكتشف المرء أنه فانٍ. إن هذا العصر، بعد كل شيء، عصر فناء. أتمّت رغبة الفتى نفسها فقط في نومه العميق حين يكون بين ذراعي هانا، إن ذروته الجنسية متعلّقة بشكل أكبر بجاذبية القمر، وبجذب الليل لجسده.

يستند وجهه النحيل إلى أضلاعها طِيلة المساء. ذكّرته بمُتعة الحك، حين تُجري أظافرها على ظهره. كان هذا شيئا علّمته إياه مُربية منذ سنوات الصّغَر. كل تلك الراحة والهدوء أيّام الطفولة جاءت منها كما تذكّر كيب، وليس أبدا من أمه التي أحبّها، أو شقيقه أو والده اللذين لعب معهما. حين يخاف، أو يجفوه النوم، فإنّ المُربية هي التي تتعرّف على حاجته فتقوده إلى النوم بسهولة واضعة يدها على ظهره الصّغير النحيل، تلك الغريبة المُحبّة التي جاءت من جنوب الهند والتي عاشت معهم وساعدتهم على إدارة المنزل وطبخت وقدمت لهم الوجبات، وأحضرت أولادها إلى المنزل الصغير، بَعد أن ربّت شقيقه الأكبر أيضًا في الأعوام الأولى، وعلى الأرجح عرفتْ شخصيّة جميع الأطفال بشكل أفضل من آبائهم.

كانت عاطفة متبادلة. لو سُئل كيب من يُحبّ أكثر لسمّى المُربية قبل أمه. كان حبها يبعث الراحة أكثر من أيّ حُبّ قائم على قرابة الدم أو من أي حُبّ جنسيّ بالنسبة إليه. سيدرك فيما بعد، أنه اندفع خارج العائلة ليعثر على حُبّ كهذا. الحميمية الأفلاطونية، أو أحيانا الحميمية الجنسيّة لغريبة. سيكون عجوزا تماما قبل أن يتعرّف على هذا في نفسه، قبل أن يقدر أن يسأل نفسه سؤال من يحبُّ أكثر.

شعر مرة فقط أنه قدّم لها بعض الراحة، رغم أنها فهمت حُبّه لها، حين ماتتْ أمّها زحف إلى غرفتها وحضن جسدها الذي هرمَ فجأة. استلقى قربها صامتا، قرب بكائها في غرفة الخدم الصغيرة حيث كانت تبكي بوحشية ورسميّة في آن. راقبها حين جمعت دموعها في فنجان صغير حملته إزاء وجهها. عرف أنها ستأخذ

هذا إلى الجنازة. كان خلف جسدها المحدودب، يداه اللتان تبلغان التاسعة من العمر على كتفيها، وحين هدأت أخيرًا وصارت تُصدر بين فينة وأخرى ارتعاشة، حكّ جسمها عبر السّاري، ثم سحبه جانبا وحكّ جلدها، كما تلقّت هانا هذا الفنّ الرّقيق، حين وضع أظافره على الخلايا المليون لجسدها، في خيمته، عام 1945، حين تلاقت قارّتاهما في بلدةٍ فوق تلّة.

IX

كهف السيّاحين

وعدتُكِ أن أخبرك كيف يُحبّ المرء.

قابل شابٌ يُدعى جيوفري كليفتون صديقًا في أوكسفورد، وذكرَ له ما كنّا نفعله في الصحراء. اتّصل بي، تزوّج في اليوم التالي، وبعد أسبوعين طارَ مع زوجته إلى القاهرة. كانا في الأيام الأخيرة من شهر عسلهما. تلك بداية قصّتنا.

حين قابلتُ كاثرين كانتْ متزوّجة. امرأة متزوّجة. هبط كليفتون من الطائرة، ثم بزغت بشكل غير متوقّع لأننا خطّطنا للبعثة مفكّرين فيه فقط. ترتدي بنطالًا قصيرًا خاكيًّا، وعظام ركبتيها بارزة. تلك الأيام كانت متحمّسة جدًّا للصحراء. أحببتُ شبابه أكثر مما أحببتُ تلهّف زوجته الشابة الجديدة. إنّه طيّارُنا ورَسولنا ومستكشفنا. مَثَّلَ بالنسبة إلينا العصْرَ الجديد، يطيرُ ويُسقط شَفرات من الشرائط الحمراء الطويلة لينصحنا أين يجب أن نكون. تحدّث عن هيامه بها باستمرار. كنّا أربعة رجال وامرأة وزوجها الذي يعيش مُتَعه اللفظيّة حيال شهر العسل. ذهبا إلى القاهرة وعادا بعد شهر، وكان الأمر نفسه تقريبا. هذه المرّة أكثر هدوءً، لكنه هو الذي يتمتّع بالشّباب. تجلس هي على صفيحة وَقود مُسندة فكّها على كفّيها، ومرفقيها إلى ركبتيها، محدّقة، وحول وجهها قماش مشمّع يصطفق باستمرار، فيما كليفتون يستعرض مدائحه لها. حاولنا أن نخرجه من ذلك عن طريق المزاح، لكن لو أردنا منه أن يكون أكثر احتشاما لاستاء منّا، ولم نرغب في ذلك.

صارت صامتة بعد ذلك الشّهر في القاهرة، تقرأ باستمرار وتنصرف إلى نفسها أكثر وكأن شيئا قد حدث بينهما، أو أنها أدركت فجأة ذلك الشيء العجيب عن الكائن البشري، أنه يتغيّر. لم يكن عليها أن تبقى المرأة الاجتماعيّة البارزة التي تزوّجت مُغامرًا. كانت تكتشف نفسها، ومن المؤلم مراقبة تثقيفها الذاتيّ، لأن كليفتون لم يستطع أن يشاهده. كانت تقرأ كل شيءٍ عن الصّحراء، واستطاعت أن تتحدّث عن العوينات والواحة الضائعة وقرأت حتى المقالات الهامشيّة.

كنت أكبُرُها بخمسة عشر عاما، أتفهمين؟ وصلتُ إلى تلك المرحلة من العمر التي يصنّف فيها المرء كوغد متشائم مثل شخصيّات الروايات، لا يؤمن بالاستمرارية، ولا العلاقات التي تمتدّ قرونًا. أكبُرُها بخمسة عشر عاما، لكنها أذكى منّي، أكثر جوعًا للتغيّر مما توقّعت.

ما الذي بدّلها أثناء شهر عسلهما المؤجّل على مصبّ النيل، خارج القاهرة؟ شاهدناهما بضعة أيام، وصلا من إنجلترا بعد أسبوعين من زواجهما الذي أقاماه في تشيشير. جلبَ عروسه معه بما أنه لا يستطيع أن يتركها ويحنث بالتزامه معنا، أنا ومادوكس، وإلا لكنّا التهمناه. وهكذا بزغت ركبتاها البارزتا العظام من الطائرة ذلك اليوم. ذلك هو عبء قصّتنا. موقفنا.

احتفى كليفتون بجمال ساعديها، بالخطوط النحيلة لكاحليها. وصف كيف شاهدها تسبح. وتحدّث عن الحمّامات الجديدة في أجنحة الفنادق، عن نهمها الشديد أثناء تناول وجبة الإفطار.

لم أقل كلمة واحدة عن كل ذلك، كنت أنظر أحيانا وهو يتحدّث عنها وأشاهد نظرتها تشهد على سخطي الصامت، ثم ابتسامتها الرزينة. هناك بعض السخرية في الجو. أنا الأكبر سنًّا بينهم، رجل العالم الذي سار منذ عشرة أعوام من واحة الداخلة إلى الجلف الكبير، الذي رسم خريطة واحة الفرافرة[106]، وعرف برقة، وضاع أكثر من مرتين في بحر الرمال العظيم. قابلتني حين كنت أتمتع بكل تلك المواصفات. أو كان في وسعها أن تنعطف بضع درجات وتشاهد المواصفات في

مادوكس. ومع ذلك، وبغض النظر عن الجمعية الجغرافية، كنّا شِبه طائفة تقريبًا، عثَرَت عليها بسبب زواجها.

لم تعنِ شيئا كلمات زوجها في مدحها، لكنني رجلٌ حَكَمَتْ حياته الكلمات بطرقٍ عدّة، حكمَتْها الإشاعات والحكايات والأشياء المرسومة في الخرائط والكِسَر. إن تكرار شيء ما في الصحراء هو أشبه بدَلْق مزيدٍ من الماء على الأرض. ظلال معانيها تأخذك مئة ميل.

بعثتنا على بُعد أربعين ميلًا من العوينات. أنا ومادوكس على وشك الذهاب حالًا وحدنا لنقوم بالاستطلاع، فيما يجب أن تبقى عائلة كليفتون والآخرون في الخلف. أنهت قراءة جميع كتبها وطلبت مني كتابا، لم يكن معي إلا الخرائط. «ماذا عن ذلك الكتاب الذي تنظر فيه مساء؟». «هيرودوتس؟ آه! تريدينه؟». «إلّا إذا كان خاصًّا». «إنه يحتوي على ملاحظاتي وقصاصاتي، أحتاجه معي». «اعذُرني، كان ذلك تجاوزًا منّي». «حين أعود سأعيره لك. لم أعتد السّفر دونه».

حصل كلُّ هذا في جوّ من المودّة الكبيرة. قلتُ إنه كتاب عاديّ ووافقَت على ذلك. كنت قادرا على المغادرة دون أن أشعر أنّي أنانيّ. لقد أقرَرْتُ بتهذيبها، لم يكن كليفتون هناك، كنّا وحدنا، أحزم حقائبي في خيمتي حين اقتربتْ مني. أنا رجلٌ أدار ظهره لأشياء كثيرة في عالم المجتمع، لكنني أقدّر أحيانًا دقّة الأسلوب.

عدنا بعد أسبوع. حدثت أمور كثيرة بخصوص الاكتشاف وجمع الأشياء المبعثرة، معنوياتنا مرتفعة. وأقيم احتفال صغير في المعسكر. كليفتون شخصٌ يحتفل دومًا بالآخرين، وكان ذلك مُعْديًا.

اقتربت منّي حاملة كوب ماء. «تهانينا، لقد سمعتُ من جيوفري». «أجل». «خذ، اشرب هذا». فتحَت يدي ووضعت الكأس على راحتي. كان الماء باردا جدًّا مُقارنةً بالماء الذي كنا نشربه من المزادات. «خطّط جيوفري لحفلة من أجلك، إنه يكتب أغنية ويريدني أن أقرأ قصيدة، لكنني أريد أن أقوم بشيء آخر، هنا». «خذي الكتاب وألقي نظرة عليه»، أخرجتُه من حقيبتي وقدّمته إليها.

بعد تناول الوجبة والشاي، أخرج كليفتون زجاجة كونياك خبّأها عن الجميع من أجل هذه اللحظة. شُربَتْ الزجاجة كلها في ذلك المساء أثناء قصّة مادوكس عن رحلتنا، وأغنية كليفتون المضحكة. ثم بدأت تقرأ من كتاب التواريخ قصة كاندوليس وملكته. دائما أتجاوز تلك القصّة، إنها في أوّل الكتاب وليس فيها ما يتعلّق بالأمكنة والفترة التي أهتمّ لها. لكنها قصة مشهورة بالطبع، وكانت هي ما اختارت أن تتحدث عنه:

> أصبح كاندوليس هذا مُتيّمًا بحبّ زوجته، واعتبر أن جمالها يبزّ جمال النساء الأخريات جميعهن، واعتاد أن يصف لكيجس ابن داسكيلوس (الذي كان المفضّل عنده من بين رمّاحيه كلّهم) جمالَ زوجته بشكل يفوق أي وصف.

«هل تصغي يا جيوفري؟»

«نعم، يا عزيزتي».

> قال لكيجس: كيجس، أعتقد أنك لا تصدقني حين أخبرك عن جمال زوجتي، لأنه يحدث أن تكون آذان الرجال أقل مَيْلًا للتصديق من عيونهم، ولذلك عليك أن تتدبّر وسيلة لتنظر إليها عارية.

هناك أشياء عديدة يمكن أن يقولها المرء. عارفًا أنني سأصبح في النهاية عشيقا لها، تماما كما سيصبح كيجس عشيق الملكة، وقاتل كاندوليس. كنت أفتح كتاب هيرودوتس من أجل مفتاح حول الجغرافيا، لكن كاثرين فعلت ذلك من أجل نافذةٍ في حياتها. كان صوتها حذرًا وهي تقرأ، مُركّزة عينيها على الصفحة حيث القصّة، كأنّها تغوص في رمال متحرّكة وهي تتحدث.

في الحقيقة أعتقد أنها أجمل من جميع النساء وأتوسّل إليك ألا تطلب مني فعلَ ما يخالف القانون. لكنّ الملك أجابه: تشجّع يا كيجس ولا تخشَ من أنني أقول لك هذا الكلام لأجرّبك، أو من زوجتي خوفَ أن تتأذى من ذلك. سأرتّب الأمر بحيث أنها لن تدرك أنك شاهدتها.

هذه هي قصة وقوعي في غرام تلك المرأة التي قرأتْ لي قصّة معيّنة من كتاب هيرودوتس. سمعتُ الكلمات التي تفوّهَت بها عبر النار دون أن أنظر إليها أبدًا، حتى حين كانت تمازح زوجها. ربما كانت تقرأ له فقط، ربما لم يكن هناك باعث خفيّ وراء اختيارها إلّا بالنسبة إليهما. كانتْ ببساطة قصّة صدمتها بأُلفة موقفها. لكن انكشف فجأة ممرّ في الحياة الواقعية، رغم أنها لم تتصوّره كخطوة أولى ضالة في أيّ حال، أنا متأكّد.

سأضعك في الغرفة حيث ننام، خلف الباب المفتوح، وبعد أن أدخل ستأتي زوجتي لتستلقي أيضا. ثمّة كُرسيّ قرب مدخل الغرفة تضع عليه ثيابها حين تخلعها قطعة بعد أخرى، وهكذا ستقدر على التنظير إليها في حُريّة تامّة.

لكن الملكة تشاهد كيجس حين يغادر غرفة النوم، وتفهم عندئذ ما الذي فعله زوجها، ورغم أنها شعرت بالعار، فإنّها لم تحتجّ، وحافظت على هدوئها.
«هذه قصّه غريبة، أليس كذلك يا كارافاجيو؟ قصّة رجل بلغت تفاهته حدّ أن يرغب في أن يكون مثارَ حَسَد. أو يرغب في أن يُصَدّق لأنّه يعتقد أنّ لا أحد يصدّقه. هذه صورة كليفتون بشكل مؤكّد، لكنّه أصبح جزءًا من هذه القّصة. ثمة شيء صادم جدا لكنه إنساني في فِعل الزّوج».
تستدعي الزوجة في اليوم التالي كيجس وتمنحه خيارين:

أمامك الآن طريقان أخيّرك بينهما: إمّا أن تذبح كاندوليس وتمتلكني مع مملكة ليديا، أو تُذبَح هنا في مكانك، لكي لا تبقى حيًّا إلى المستقبل، بسبب طاعتك كاندوليس في كلّ شيء، حتى أن ترى ما يجب ألّا تراه. إما أن يموت مَن خطّط لهذا، أو تموت أنت الذي نظَر إليّ عارية.

وهكذا قُتَل الملك وبدأ عصرٌ جديد، كُتِبَتْ قصائد عن كيجس في بحْر العَروض الأيامبي، وكان أوّل البرابرة الذين قدّموا أعطيات في دلفي. حكم كملك ليديا ثمانية وعشرين عاما لكننا ما نزال نذكره كشخصٍ في قصّة حبّ غير عاديّة فقط. توقّفتْ عن القراءة ورفعت نظرها. خرجت من الرّمال المتحركة. كانت تتحسّن. وهكذا غيّرت السُّلطة رجالها. في غضون ذلك، وبمساعدة حكاية، وقعتُ في الغرام.

الكلمات، يا كارافاجيو، قُوّة.

حين لا يكون كليفتون وزوجته معنا، فإنّهما في القاهرة، لأن كليفتون يقوم بعمل آخر للإنجليز لا يعرف إلّا الله ما هو. ربما لصالح عَمٍّ في مكتب حكوميّ ما. حدث كل هذا قبل الحرب، لكن في ذلك الوقت كان أفراد من جميع الأمم في تلك المدينة، يلتقون في حديقة جروبي من أجل الحفلات السّاهرة ويرقصون في الليل. كانا زوجين شابّين مشهورين وصادقين، وكنتُ أنا في مُحيط مجتمع القاهرة. عاشا حياةً احتفاليّة كنت أنزلق فيها بين فينة وأخرى. وجبات عشاء، حفلات حدائق، وقائع لم أكن أهتمّ لها لكنني ذهبت إليها لأنها كانتْ موجودة. أنا رجلٌ يصوم إلى أن يعثر على ما يريده.

كيف أصفها لكِ؟ باستخدام يدَي؟ بالطريقة التي أستطيع فيها أن أتقوّس في الهواء على شكل هضبةٍ أو صخرة؟ كانتْ جزءا من البعثة مُدّة عامٍ تقريبا. شاهدتها وتحدّثت إليها. يحاول كلّ منا أن يتواجد حيث يتواجد الآخر دومًا. فيما بعد، حين أصبحنا مدركين للرغبة المتبادلة، عادت تلك اللحظات السابقة مثل

طوفان إلى القلب، وصارت إيحائية الآن، مسْكَة الذراع المتوتّرة تلك فوق جُرف ما، والّنظرات التي فُقِدتْ أو أُسيءَ تفسيرها.

نادرا ما تواجدتُ في القاهرة في ذلك الوقت، أقضي فيها شهرًا كلّ ثلاثة أشهر. عملتُ في قسم الدراسات المصريّة. بدأت العمل على كتابي الذي دعوته الاستكشافات الأخيرة في الصحراء الليبية، ومع مرور الأيّام صرتُ أعمل أكثر على النصّ كأنّ الصّحراء في مكان ما على الورقة، وهكذا استطعت حتى أن أشمّ الحبر حين يخرج من القلم، وصارعتُ في الوقت نفسه حضورها القريب، وصرتُ أكثر هوسًا، إذا جاز قول الحقيقة، بفمها، وجمال ركبتيها، وسَهْل بطنها الأبيض، حين كنت أكتب كتابي القصير الذي يبلغ سبعين صفحة، المُحكم الدقيق الذي يحتوي على خرائط السفر. رغبتُ في أن أهدي الدراسة إليها، إلى صوتها، إلى جسدها الذي تخيلته ينهض أبيض من الفراش كقوس، لكنه كتابٌ أهديته إلى مَلِك. واعتقدتُ أنها ستسخر من هوسٍ كهذا وتتعامل معه بفوقية هازة رأسها في استياء وتهذيب. بدأت أصبح رسميًّا بشكل مُضاعف في حضورها. ذاك من طبيعتي، كأنني مُرتبك من عُريٍ انكشافي. إنها عادة أوروبيّة. وكان من الطبيعي بالنسبة إليّ، بعد أن ترجمتُها في نصّي عن الصحراء على نحو غريب، أن أرتدي الآن لباسًا معدنيًّا أثناء حضورها.

إن القصيدة الوحشية بديل
عن المرأة التي يحبّها المرء، أو عليه أن يحبّها
قصيدة ملحمية وحشية، تبقى نُسخة مزيفة مهما كتبت

في مرج حسنين بيك، الرجل المهيب من بعثة عام 1932، سارت مع المساعد الحكوميّ راوندل وصافحَتني وطلبَت منه أن يُعدّ لها شرابًا، ثمّ استدارت إليّ وقالت: «أريدك أن تخطفني». عاد راوندل. كان الأمر وكأنها سلّمتني سكّينا. في غضون شهر أصبحتُ عشيقها. في تلك الغرفة فوق السّوق، إلى الشمال من

شارع الببغاوات.
ركعتُ على ركبتيّ في الصالة المبلّطة بالموزاييك، ووجهي على قماشة قميص نومها، الطّعم المالح لتلك الأصابع في فمها. كنا نشكّل تمثالًا غريبا، كلانا، قبل أن نبدأ بفتح قفل جوعنا. أصابعها تحكُّ الرّمل في شعري الذي يَرِقّ. القاهرة وجميع صحاريها حولنا.
أكان ذلك رغبة في شبابها، في سلوكها الصبيانيّ الرقيق الماهر؟ كانت حدائقها هي الحدائق التي تحدّثتُ عنها حين حدّثْتكِ عن الحدائق.
أسفل حنجرتها تلك الفجوة الصغيرة التي سميّناها البوسفور، سأغوص من كتفها إلى البوسفور وأريح عينيّ هناك. سأركع بينما تنظر إليّ بسخرية كأنني غريبٌ شارد. إنها تمتلك نظرة شاردة، تضع يدها الباردة فجأة على عنقي في حافلة في القاهرة. أخذنا سيارة أُجرة مغلقة وتبادلنا لمسات سريعة بين جسر الخديوي إسماعيل ونادي تيبيراري. ضوء الشّمس فوق أظافرها في رواق الطابق الثالث في المتحف حين غطّت يدها وجهي.
هناك شخصٌ واحد يجب أن نتجنّب أن يشاهدنا، لكن جيوفري كليفتون كان رجلا داخلا في صُلب الآلة الإنجليزية، ويعود نسب أسرته إلى كانيوت. ليس من الضروري أن تكون الآلة قد كشفت لكليفتون المتزوّج منذ ثمانية عشر شهرا فقط، خيانة زوجته، لكنها بدأت تُطوّق الخطأ، المرض في النظام، وعرفت جميع حركاتها من اليوم الأوّل للّمسة المرتبكة في فندق سميراميس.
تجاهلتُ ملاحظتها عن أقرباء زوجها وكان جيوفري كليفتون لا يعرف شيئا مثلنا عن نسيج العنكبوت الإنجليزي الكبير الذي فوقنا. لكن نادي الحرّاس الشخصيّين اهتم بزوجها وحماه. كان مادوكس أرستقراطيًّا ويمتلك علاقات حكومية وهو الوحيد الذي عرفَ بهذه اللقاءات السرية، وحذرني بلباقة من عالم كهذا.
حملتُ كتاب هيرودوتس وحمل مادوكس، الذي كان قدّيسا في زواجه، رواية آنا كارنينا، مُعيدًا قراءة قصّة الحبّ والخداع باستمرار. مرّة، بعد أن تأخّرنا جدًّا على

تجنّب الآلة التي سبّبنا دورانها، حاول أن يشرح عالم كليفتون من منظور شقيق آنا كارنينا. أعطني كتابي، لابدّ أن تُصغي إلى هذا:

> نصفُ أهالي موسكو وبطرسبرج كانوا من ذَوي قرابته، وأعني بالنّصف، تلك الطّبقة المُترفة التي تضع يدها على مقاليد الأمور، وتُهيمن على شؤون الدولة. لهذا كان خليقًا به أن لا يشقى في الحصول على ما يبتغي شريطة أن لا يشرئب بعنقه إلى أعلى... أي عليه أن يقنع بالّذي ظَفِرَ به، فلا يَلج مقاحِم من هم أعظم قدرًا وأخطر مكانة[107].

بدأتُ أحبّ نقرة ظفرك على الحُقنة يا كارافاجيو. أوّل مرّة حقَنَتْني هانا بالمورفين في حضورك كنتُ قرب النافذة وعلى صوت نقر ظفرها مالَ عنقك نحونا. أعرف رفيقا. الطريقة التي يعرف بها عاشق دائما تمويهات العشّاق الآخرين.
تريدُ النساء كلّ شيء من العاشق، وغالبا ما كنتُ أغوصُ تحت السّطح. هكذا تختفي الجيوش تحت الرمال، وكان هناك خوفها من زوجها، وإيمانها بشرفها، ورغبتي القديمة في الاكتفاء الذاتي، اختفاءاتي، وشكوكها بي، وعدم اقتناعي بأنها أحبّتني. جنون ارتياب ورهاب احتجاز الحبّ المخبوء.
قالت لي: «أعتقد أنك فقدت إنسانيتك».
«لستُ الخائن الوحيد».
«لا أعتقد أنك تأبه، لأن هذا حدث بيننا. تعبر كلّ شيء بخوفك وكراهيتك للملكيّة، للامتلاك، من أن تُمتلَك أو تُسمّى. تعتقد أن هذا فضيلة، أظن أنك لست بشريًّا. إذا تركتك، إلى من ستذهب؟ هل ستجد عشيقة أخرى؟».
لم أقل شيئا.
«أنكِر ذلك، تبًّا».

تريدُ منّي الكلمات دومًا، تُحبّها، تتغذّى عليها. مَنَحَتْها الكلماتُ الوضوح، أحضرت

لها العقل والشكل، بينما اعتقدتُ أنّ الكلمات عواطف محنيّة كالقصب في الماء.
عادت إلى زوجها.
وعند هذه النقطة همستْ: «إما أنّنا سنعثر على روحينا، أو سنضيعهما».
البحار تنتقل بعيدًا، فكيفَ الأمر مع العشاق؟ مرافئ إنسيوس وأنهار هيراقليطس تختفي وتحلّ مكانها مصبّات من الطمي. تصبح زوجة كاندوليس هي زوجة كيجس، والمكتبات تحترق.
ماذا كانتْ علاقتنا؟ خيانة لأولئك الذين كانوا حولنا، أم رغبة في حياةٍ أخرى؟
عادت إلى حياتها في المنزل إلى جانب زوجها وانسحبت عن الحانات المسقوفة بالصفيح.

سأنظر إلى القمر
لكنّني سأراك هناك.

كتاب هيرودوتس الكلاسيكيّ ذاك. يدندن ويغنّي تلك الأغنية مرّة بعد أخرى، مرقّقًا الأبيات ليُدخلها في حياة شخص ما. إن البشر يتعافون من الخسارة السريّة بأشكال عدّة. شاهَدَني أحد أفراد حاشيتها أجلس مع تاجر توابل. التّاجر نفسه تلقّت منه مرّة كشتبانًا قصديريًا يحتوي زعفرانا. ذاك واحد من بين عشرة آلاف شيء تلقّتها منه.
لو أن باغنولد، بعد أن شاهدني أجلس مع تاجر التوابل، نقل الحادثة أثناء العشاء حول الطاولة حيث كانتْ تجلس، كيف كنت سأشعر حيال وقتها؟ هل كانت لتمنحني بعض الراحة بسبب أنها ستتذكُر الرّجل الذي قدَّم إليها هديّة صغيرة، كشتبانا قصديريا، علّقته على سلسالٍ قاتم رقيق حول عنقها مُدّة يومين، حين كان زوجها خارج البلدة؟ ما زال الزعفران فيه، وهكذا ما تزال صبغة الذهب على صدرها.
كيف تلقّت ما قد يُقال عنّي، وسط مجموعتنا، بعد حادثة أو أُخرى أخزيتُ

نفسها بها؟ ربما باغنولد يضحك، وراح زوجها يعبّر عن قلقه عليّ، فيما نهض مادوكس وسار إلى النافذة وراح ينظر إلى جنوب المدينة. ربما انتقلت المحادثة إلى حوادث أخرى. كانوا صنّاع خرائط. كيف تلقّت ذلك؟ هل ذهبت لتهبط البئر التي حفرناها معًا، ودعمتْ نفسها، بالطريقة التي رغبتُ فيها أن أدعمها بيدي؟ لكُلٍّ منّا حياته الخاصّة الآن، ونحن مسلّحان بالاتفاقية الأعمق بيننا.

قالت حين صادفتني في الشارع: «ماذا تفعل؟ ألا ترى أنك تجعلنا جميعًا مجانين؟»

قلتُ لمادوكس إني أتردّد على أرملة، لكنها لم تكن قد أصبحت أرملة بعد. حين عاد مادوكس إلى إنجلترا لم نعد أنا وهي عاشقين.

تمتم مادوكس: «انقلْ تحياتي إلى أرملتك القاهريّة، كنت أودّ لو أنني قابلتها».

هل كان يعرف؟ شعرت أكثر بأنني مخادع معه، هذا الصديق الذي عملت معه عشرة أعوام، الرجل الذي أحببته أكثر من أي شخصٍ آخر. كان العام هو 1393 وكنّا جميعا نغادر هذه البلاد إلى الحرب على أيّ حال.

عاد مادوكس إلى قرية مارستون ماغنا سومرست، حيث وُلِدَ، وجلس بعد شهر في حشد كَنَسِيّ، سمع الموعظة التي ألقيت على شرف الحرب، سحب مسدّسه الصحراوي وانتحر.

أنا، هيرودوتس من هاليكارناسوس، وضعتُ تاريخي كي لا يُزيل الزمن اللون الذي أضفاه الإنسان على الوجود، أو تلك الأعمال العظيمة الرائعة التي تجلّت على يد اليونانيين والبرابرة... سوية مع ذلك الأمر الذي تقاتلا بسببه.

الرّجال هم دائما الذين يُلقون الشّعر في الصحراء. روى مادوكس للجمعية الجغرافية قصصًا رائعة عن عبورنا ومساراتنا. وكان بيرمان يغذّيها بالنظريّات. وأنا؟ كنتُ المهارة بينهم، الميكانيكيّ. كتب الآخرون عن حُبّهم للعزلة وتأمّلوا ما وجدوه هناك. ولم يكونوا متأكّدين أبدًا من رأيي في هذا، هل تُحبّ ذلك القمر؟

سألني مادوكس بعد أن عرفني عشرة أعوام. طرح السؤال بحذر وكأنه انتهك شيئا حميميّا. لم أكن بالنسبة إليهم واضحا جدًّا لأكون عاشقا للصحراء. كنت كثير الشّبه بأوديسيوس[108]. كنتُ هادئا. أريني الصحّراء كما تُرين شخصًا آخر نهرًا، أو مدينة طفولته.

حين افترقنا في آخر مرّة، استخدم مادوكس كلمات الوداع الأخيرة: ليجعل الرّب الأمان رفيقا لك. خطوت عنه مبتعدا، قائلا: لا يوجد ربّ. كنّا نختلف عن بعضنا بشكل كامل.

قال مادوكس إن أوديسيوس لم يكتب كلمة قط، لم يؤلّف كتابًا حميميًا. ربما شعر أنه غريب في العالم المزيّف للفنّ، ويجب أن أُقِرّ أن دراستي كانت دقيقة على نحو صارم. ودفعني الخوف من وصف حضورها حين كنت أكتب إلى إحراق جميع العواطف وبلاغة الحبّ. وَصَفْتُ الصحراء بنقاءٍ محضٍ كما لو أنّني أتحدث عنها. سألني مادوكس عن القمر أثناء أيامنا الأخيرة معا قبل أن تبدأ الحرب. افترقنا، غادر إلى إنجلترا، وكان احتمال الحرب القادمة يقاطع كلّ شيء بما فيه تنقيبنا البطيء عن التاريخ في الصحراء. قال لي وداعا يا أوديسيوس وهو يبتسم عارفا أنني غير مولعٍ أبدا بأوديسيوس، وأقَلّ ولعًا حتى بإنياس[109]، لكنّنا قرّرنا أن باغنولد هو إنياس، لكنني لم أكن مولعا بأوديسيوس أيضا. «وداعًا»، قلتُ له.

أذكر أنه استدار ضاحكا، أشار بإبهامه السميك إلى تلك البقعة في عنقه قرب تفاحة آدم وقال: هذا يُدعى انتفاخ الوريد الوداجي.

منحَ ذلك التجويف في عنقها اسمًا رسميًّا. عاد إلى زوجته في قرية مارتسون ماغنا آخذًا معه روايته المفضّلة لتولستوي، تاركًا لي جميع بوصلاته وخرائطه. لم نعبّر عن حُبّنا لبعضنا.

حُوّلت الحقول الخضراء في قرية مارتسون ماغنا في سومرست، التي ذَكَرها مرارًا، إلى مطار. أحرقت الطائرات بخارها فوق القلاع الأثريّة. لا أعرف ما الذي جعله

يفكّر بهذه الطريقة، ربما الضجيج المتواصل للطيران الذي أصبح صاخبًا بعد الأزيز البسيط للموت الغجريّة، التي كانتْ تقاطع صمتنا في ليبيا ومصر. كانت حرب أحدهم تقطع النّسيج الرقيق للرفقاء. كنتُ أوديسيوس، فهمت محرّمات الحرب المتنقلة والمؤقتة، لكنه كان رجلا يصنع الأصدقاء بصعوبة، عرفَ اثنين أو ثلاثة أشخاص طيلة حياته، وتبيّن الآن أنهم أعداء.

كان في سومرست وحيدا مع زوجته التي لم تلتق بنا أبدا، إيماءات صغيرة كافية له، رصاصة واحدة أنهت الحرب. حدث هذا في تموز 1939 . استقلّا حافلةً في قريتهما إلى يوفيل. الحافلة بطيئة وهكذا تأخّرا عن القدّاس، في مؤخرة الكنيسة المحتشدة، ومن أجل أن يعثرا على مقاعد، جلسا في أمكنة منفصلة. بدأتْ الموعظة بعد نصف ساعة. كانت شوفينيّة ومؤيّدة للحرب دون شك، وتحدث القسّيس بمرحٍ عن الحرب مُباركًا الحكومة والرجال الذين يوشكون أن يدخلوها. أصغى مادوكس بينما كانت الموعظة تزداد التهابا. أخرج مسدسه الصحراوي، انحنى وأطلق النار على قلبه، مات فورا. صمتٌ كبير، صمتٌ صحراويّ، صمتٌ صاخب، سمعوا جسده ينهار على المقعد الخشبي. لم يتحرّك أي شيء آخر. تجمّد القسيس في إيماءة. كانت مثل حالات الصّمت حين ينشقّ قُمْع زجاجيّ حول شمعة وتستدير الوجوه. سارت زوجته في الممرّ الرئيسيّ ووقفتْ عند صفّه، غمغمت شيئا، وسمحوا لها أن تقترب، ركعتْ وطوّقته بذراعيها.

كيف مات أوديسيوس؟ انتحر، أليس كذلك؟ يبدو أنّي أذكر ذلك، الآن. ربما أفسدت الصحراء مادوكس، في ذلك الوقت حين لم تكن لنا صلة بالعالم. واصلتُ التفكير بالكتاب الرّوسي الذي حمله دائما. كانت روسيا دائما أقرب إلى بلادي من بلاده. نعم، كان مادوكس إنسانا مات بسبب الأُمَم.

أحببت هدوءه في كل شيء، كنت أجادل بغضبٍ عن المواقع على خريطة ما وكانت تقاريره تتحدث نوعا ما عن جدلنا بجملٍ معقولة. كتبَ بهدوء وفرح عن رحلاتنا. وصفه ممتع، كأننا كنّا آنا وڤرونسكي في قصّة، كان رجلا لم يدخل أبدا قاعات

الرقص القاهريّة معي، وأنا كنت الرجل الذي وقع في الغرام أثناء الرقص.
يتحرك بمشيةٍ بطيئة، ولم أشاهده يرقص قط. كان رجلا كتب العالم وأوّله، والحكمة تنمو من مجرّد أن يُسلم فقط الخصلة الصغرى من العاطفة. في وسع نظرةٍ أن تقود إلى فقرات نظريّة. لو شهد مشكلة جديدة في قبيلةٍ صحراوية أو وجد شجرة نخيل نادرة سيبهجه ذلك أسابيع. حين كنا نعثر على رسائل أثناء تنقّلاتنا، بأيّ صياغة، معاصرة أو قديمة، لغة عربية على جدار طيني، ملاحظة بالإنجليزية مكتوبة بالطباشير على رفراف جَيْب، كان يقرأها ثم يضغط يده عليها كأنه سيلمس معانيها المحتملة الأعمق، ليصبح أكثر قربا من الكلمات قدر الإمكان.

يرفع ذراعيه عاليا، الشرايين المزرقة أفقية، يواجه حُقنة المورفين.
حين يتدفق فيه يسمع كارافاجيو يُسقط الإبرة في الوعاء اللمّاع الذي على شكل كِلْية، يشاهد الشكل المتغضن يُدير ظهره له ثم يعاود الظهور، مقبوضًا عليه أيضا، مواطن مورفين مثله.

مرّت أيام كنت فيها أعود إلى البيت من كتابة مُجدية، حيث كلّ ما كان يستطيع أن ينقذني هو أغنية «وردة صريمة الجدي» التي يؤديها جانغو رينهارت وستيفن غرابلي مع الهوت كلب الفرنسي 1935، 1936، 1937. سنوات جازٍ عظيمة. الأعوام التي كانت تعلو خلالها صاخبةً في فندق كلاريدج في شارع الشانزليزيه وفي حانات لندن، وجنوب فرنسا، والمغرب، ثم تذهب إلى مصر حيث قالت الإشاعات إن فرقة قاهريّة مجهولة الاسم أدخلت إيقاعات كهذه. حين عدتُ إلى الصحراء، كنا نصغي في أمسيات الرقص إلى أغنية «تذكارات 78»، وفي الحانات كانت النساء يخطين ككلاب سلوقية ويتكئن عليك بينما تغمغم فوق أكتافهن وأنت تصغي إلى أغنية «حبيبتي»، التي وزعتها شركة التسجيل الفرنسية. 1938، 1939، ثمّة همْس حُبّ في الرّكن، وثمّة حرب وشيكة.
أثناء تلك الليالي الأخيرة في القاهرة، بعد شهور من انتهاء العلاقة، أقْنَعنا مادوكس

أخيرا أن يدخل حانة صفيحيّة من أجل حفلة وداع. كانت هي وزوجها هناك، ليلة أخيرة واحدة، رقصة أخيرة. سكرَ ألماسي وأدى رقصة قديمة قام بابتكارها تُدعى ضمّة البوسفور، رافعا كاثرين كليفتون بين ذراعيه النحيلتين وعابرا الأرضيّة إلى أن سقط معها على بضع نباتات دريقة يغذّيها نهر النيل.

يفكّر كارافاجيو: «من الذي يهمس بكلّ ذاك الكلام الآن؟»

كان ألماسي ثملا، وبدا رقصه للآخرين سلسلة وحشيّة من الحركات. لم يبدُ في تلك الأيام أن علاقته معها جيدة. كان يقذفها من جانب إلى آخر كأنها دُمية غُفْل، واختنق من الشّراب بسبب حزنه على رحيل مادوكس. كان صاخبا على الطاولات معنا. حين يكون ألماسي هكذا، غالبا ما نتفرّق، لكن هذه كانتْ ليلة مادوكس الأخيرة في القاهرة فبقينا. عازف بيانو مصري سيّئ حاكى ستيفن كرابلي، وكان ألماسي مثل كوكب خارج السيطرة، رفع الكأس: نخبنا نحن الغرباء الكونيّون! أراد أن يرقص مع الجميع رجالا ونساء. صفّق بيديه وأعلن، الآن إلى رقصة العناق البوسفورية، أنت، بيرنهارت؟ هيزرتون؟ تراجع معظم الموجودين. استدار إلى زوجة كليفتون الشابّة التي كانتْ تراقبه في غضبٍ مؤدّب وتقدّمت إلى الأمام حين توسّلها، ثم هجم عليها واضعا حنجرته على كتفها اليُسرى، على ذلك النّجد العاري فوق النثار المعدني اللمّاع. تصاعدت موسيقا تانغو مسعورة إلى أن أخطأ أحدهما في الخُطوة. لم تغْد بسبب غضبها، رفضت أن تجعله يربح وتسير وتعود إلى الطاولة. نظرت إليه بحدّة حين أعاد رأسه إلى الخلف، ليس بوقارٍ بل بوجه هجومي. غمغم فمه حين أحنى وجهه متفوّها بأغنية «وردة صريمة الجدي».
لم يرَ أحدٌ قط ألماسي بين البعثات في القاهرة كثيرا. بدا إمّا بعيدا أو قلقا. كان يعمل في المتحف نهارا ويؤمّ حانات السّوق شمال القاهرة ليلا. كان ضائعا في مصر أخرى. جاء جميعهم إلى هنا من أجل مادوكس فقط. لكن ألماسي يرقص الآن مع كاثرين كليفتون، لمس خطّ النباتات حولهما، دار معها ورفعها ثم سقط. بقي

كليفتون على كرسيه يراقبهما نصف مراقبة، وكان ألماسي يستند إليها في الرُّكن البعيد من الغرفة. كان في وقتٍ ما رجلا مهذبا.

الساعة بعد منتصف الليل، ولم يستمتع أحد من الضيوف الموجودين سوى الزّوار المنتظمين الذين يستمتعون بسهولة ويألفون حفلات الأوروبيين الصحراوية هذه. هناك نساء بأقراط طويلة من الفضّة، نساء عليهن نثار لمّاع، قطرات معدنية صغيرة دافئة من حرارة الحانة، كان ألماسي في الماضي متحيّزًا لهن. وكُنّ أثناء رقصهن يؤرجحن الأقراط الفضيّة الناتئة إزاء وجهه. رقص معهن في ليال أخرى وحملهن على مرتكز ضلعه حين ازداد سُكْرُه. نعم، كنّ يتسلّين، ضاحكاتٍ على معدة ألماسي حين يرتخي قميصه ولا يبهجهن وزنه الذي يستند إلى أكتافهن حين يتوقّف أثناء الرقصة، مُنهارًا في ما بعد، في نقطة ما أثناء رقصة الشُتش، على الأرض.

كان من المهم أثناء أمسيات كهذه الدخول في حبكة المساء، بينما حشود البشر تدور وتتزحلق حولك. لا تفكير أو تدبّر. الملاحظات الميدانية للمساء تحدث فيما بعد في الصحراء، في التشكيلات الأرضية بين الدّاخلة والكفرة. ثم يتذكر الصّيحة التي تشبه نباح كلب، التي حين صدرت نظر حوله بحثا عن كلبٍ على أرضية الرّقص وأدرك، وهو يفكّر بقُرص البوصلة الذي يعوم في الوقود، أنه ربما تعثّر بامرأة.

على مرأى واحة يفتخر برقصة مُلوّحا بذراعيه، وساعة رسغه عاليا إلى السماء.

لياِلٍ باردة في الصحراء، انتزع خيطا من حشد الليالي ووضعه في فمه كالطعام. حصل هذا أثناء اليومين الأوّلين للبحث عن مخرج، حين كان في موطن النسيان بين المدينة والنّجد، لن يفكّر أبدا بالقاهرة أو في الموسيقا أو في الشوارع والنساء بعد مرور ستة أيام، في هذا الوقت كان يتحرّك في زمن قديمٍ، بعد أن كيّف نفسه مع النماذج المتنفّسة للمياه العميقة. صلته الوحيدة مع عالم المدن هي هيرودوتس، دليله القديم عن الأكاذيب المفترضة. وحين اكتشف حقيقة ما بدا

أنّه كذبة، أخرج وعاء الغراء وألصق خريطة أو قُصاصة أنباء، أو استخدم فراغًا في الكتاب ليرسم رجالًا يرتدون القمصان مع حيواناتٍ مجهولةٍ فاهية إلى جانبهم. لم يرسم سكانُ الواحةِ الأوائل قِطعانًا، رغم أن هيرودوتس ادّعى أنهم فعلوا ذلك. كانوا يعبدون إلهة، ومُعظم لوحاتهم الصخرية عن النساء الحوامل.

لم تدخل حتى فكرة المدينة إلى ذهنه طوال أسبوعين أبدا. بدا الأمر وكأنه سار تحت مليمتر الضّباب تماما فوق الخيوط المحبرة لخريطة، تلك المنطقة النقيّة بين الأرض والخريطة، بين المسافات والأسطورة، بين الطبيعة والرّاوي. سمّى ساندفورد ذلك بالجيومورفولوجيا (علم شكل الأرض). كان هذا المكان الذي اختاروا أن يأتوا إليه، كي يكونوا ذواتهم المفضلة، أن يكونوا غير واعين للأسلاف. هنا، بغض النظر عن بوصلة الشمس وعدّاد المسافات الميلي والكتاب، كانت وحدته من ابتكاره الخاص. كان يعرف أثناء تلك الأوقات كيف يعمل السراب، لأنه كان فيه.

يستيقظ فيكتشف أن هانا تحمّمه، توجد خزانة منخفضة إلى مستوى الخصر، تنحني، يداها تُخرجان الماء من الحوض الخزفيّ إلى صدره. حين تنتهي، تمرّر أصابعها المبلّلة عبر شعرها بضع مرّات فيصبح رطبا وقاتما، تنظر إلى الأعلى فترى أن عينيه مفتوحتان فتبتسم.

حين يفتح عينيه مرة ثانية يكون مادوكس هناك، يبدو رثّ الملابس، منهمكا، يحمل حُقنة المورفين وعليه أن يستخدم كلتا يديه لأنهما بلا إبهامين، كيف يحقن نفسه؟ يفكّر، يتعرّف على العين، عادة اللسان الذي يرفرف على الشفتين، صفاء دماغ الرجل يلتقط كل ما يقوله. طائران مكتهلان.

يراقب كارافاجيو اللون القرنفلي في فم الرجل حين يتحدّث، قد يكون للّثة لون اليود الفاتح الذي تمتلكه الرسوم الصخرية التي اكتشفت في العوينات. ثمة المزيد الذي يجب اكتشافه وإخراجه من هذا الجسد الذي على السرير، الذي ليس فيه سوى فمه وشريان في الذراع وعينين ذئبيّتين رماديّتين. ما زال مُنبهرًا من وضوح

النظام في الرّجُل، الذي يتحدّث أحيانا في صِيغة المتكلّم وتارة أخرى في صيغة الغائب، الذي ما زال يرفض الاعتراف أنه، هو نفسه، ألماسي.

«من الذي كان يتحدث عندئذ؟»

مكتبة

الموتُ يعني أن تتحدث عن نفسك بصيغة الغائب.

يتقاسمان طوال النهار المورفين. يسافر كارافاجيو داخل شفرة الإشارات ليستخرج القصّة. حين يبطئ الرجل المحروق، أو حين يشعر كارافاجيو أنه لا يفهم كل شيء (قصة الحب، وموت مادوكس) يلتقط الحقنة من العلبة الصفيحية اللماعة التي على شكل كِلْية، ويحطّم سُدادة زجاجة المورفين بضغطة من بُرْجُمه ويملأها. إنه عديم الإحساس مع هانا حيال هذا الآن، بعد أن شقّ الكمّ عن ذراعه اليسرى بشكل كامل. يرتدي ألماسي قميصًا داخليًّا فقط، وهكذا تستلقي ذراعه السوداء عارية تحت الغطاء. تفتحُ كلُّ جرعة مورفين بابًا إضافيًّا في جسمه، أو يقفز عائدا إلى رسومات الكهف، أو طائرة مدفونة، أو يتريّث مرة أخرى مع المرأة التي إلى جانبه تحت مروحة، واضعة خدّها على معدته.

يلتقط كارافاجيو كتاب هيرودوتس، يقلب صفحة، يبحث عن معلومات عن كثيبٍ والجلف الكبير والعوينات، وجبل كيسو. وحين يتحدّث ألماسي يبقى قربه مُعيدًا ترتيب الأحداث، لكن الرغبة تزيد من تشوّش القصة، التي تترجرج كإبرة البوصلة، وهذا هو عالم البدو على أيّ حال، قصّة مشكوك في صحّتها، ذهن يسافر شرقا وغربا في قِناع عاصفةٍ رملية.

على أرضية كهف السبّاحين، وبعد أن حطّم زوجها الطائرة، قطعَ ومدَّ المظلّة التي كانت تحملها. تمددت عليها متجهمة من الألم والإصابات. وضع أصابعه بلطف في شعرها باحثا عن جراحٍ أخرى، ثم لمس كتفيها وقدميها.

لم يكن يريد أن يفقد جمالها في الكهف، ورشاقتها، وتلك الأعضاء. كان يعرف أنه يمتلك طبيعتها مشدودة في قبضته.

كانت امرأة تغيّر وجهها حين تضع المساحيق التجميلية، حين تدخل إلى حفلة، تتسلّق إلى فِراش، تضع أحمر شفاه دمويّ، مسحة قرمزية فوق كلّ عين.

نظر إلى أحد رسوم الكهف وسرق الألوان منها. ذهبَ لون المغرة إلى وجهها، دهن بالأزرق حول عينيها، سار عبر الكهف، يداه سميكتان من اللون الأحمر ومشّط شعرها بأصابعه وأصبح جلدها كلّه، وكذلك ركبتها التي برزت من الطائرة في ذلك اليوم الأول، بلون الزعفران. العظم العاني، أطواق لونية حول ساقيها بحيث تصبح منيعة على البشر. تقاليد اكتشفها في كتاب هيرودوتس يحتفل بها المحاربون بعشيقاتهم عن طريق موضعتهن أو وضعهنّ في أيّ عالم يجعلهن أبديّات من خلال استخدام سائل لونيّ أو أغنية أو رسوم على الصخر.

الكهف بارد، لفّها بالمظلّة ليدفئها. أشعلَ نارا صغيرة وأحرق أغصان السنط وانتشرَ الدخان في جميع زوايا الكهف. اكتشف أنه لا يستطيع أن يتحدّث معها بشكلٍ مباشر، وهكذا تحدّث رسميًّا، تردّد صدى صوته داخل الكهف: أنا ذاهب لأطلب النجدة يا كاثرين، أتفهمين؟ هناك طائرة أخرى في الجوار، لكن لا يوجد وَقود، يمكن أن أعثر على قافلةٍ أو سيارة جيب، وهذا يعني أنني سأعود بسرعة، لا أعرف. أخرج كتاب هيرودوتس ووضعه جوارها. حدث هذا في أيلول عام 1939، خرجَ من الكهف، خارجَ وهج ضوء النار، وهبط في الظلمة إلى الصحراء المغمورة بضوء القمر.

اجتاز الجلاميد هابطا إلى قاعدة النجد ووقف هناك.

لا شاحنة، لا طائرة، لا بوصلة، القمر وظلّه فقط. عثر على العلامة الحجرية القديمة التي أشارت باتجاه التاج الى الشمال الغربي، حفظ زاوية ظله وبدأ السّير. على بُعد سبعين ميلا يتوضّع السّوق الذي فيه شارع الساعات. كانت حقيبة الماء الجلدية التي ملأها من العين تتدلى على كتفه وتتحرّك بعنف كالمشيمة.

مرّت فترتان لم يستطيع أن يتحرّك فيهما، ظُهرًا حين كان الظلّ تحته في الغسق، وبين الغروب وظهور النجوم. عندئذٍ أصبح كل شيء متشابها في قُرص الصحراء. لو تحرّك لكان من الممكن أن يُخطئ ويبتعد تسعين درجة عن مساره. انتظر

الخريطة الحيّة للنجوم ثم سار إلى الأمام وهو يقرأها كلّ ساعة. حين كان لديهم في الماضي أدلّاء صحراويّين كانوا يعلّقون مصباحًا على عمودٍ طويل ويتبع الجميع تقافز الضوء فوق قارئ النجوم.

يسير الإنسان بسرعة الجمل، ميلين ونصف في الساعة، وإذا كان محظوظا سيعثر على بيض النعام، أمّا إذا كان سيء الحظّ فستمحو عاصفة رملية كل شيء. سافر ثلاثة أيامٍ دون طعام رافضا أن يفكّر فيها. إذا وصل إلى التاج سيأكل الأبْرا التي تصنعها قبائل جوران من الحنظل بعد غلْي البذور للتخلص من المرارة، ثم تُسحق مع التمر والجراد. سيسير عبر شارع الساعات والجصّ، «ليجعل الرّب الأمل رفيقا لك»، هذا ما قاله مادوكس، مودّعًا وملوّحًا بيده. إن الربّ موجود في الصحراء فقط، هذا ما أراد أن يعترف به. خارجها، لا وجود إلا للتجارة والسلطة والمال والحرب، لا يوجد إلا طغاة المال والعسكريون الذين صاغوا العالم.

كان في بلادٍ محطّمة، انتقل من الرمال إلى الصخور، رفض أن يفكّر فيها، ثم ظهرت التلال كقلاع قروسطية. سار إلى أن خطا بظلّه داخل ظلّ جبلٍ، وكانت هناك شُجيرات سنط، ونبات حنظل، صرخ باسمها للصخور، لأن الصدى هو روح الصوت، تُثير نفسها فقط في الأمكنة الجوفاء.

ثم ظهرتْ التاج، تخيّل شارع المرايا طيلة رحلته، وحين وصل إلى حواف المستوطنات، أحاطت به سيارات الجيب العسكرية الإنجليزية وأخذته بعيدا دون أن تُصغي إلى قصّته عن المرأة المصابة في العوينات على بعد سبعين ميل فقط، أو إلى أي شيء قاله في الحقيقة.

«هل تقول لي إن الإنجليز لم يصدّقوك؟ أن لا أحد أصغى إليك؟»

«لم يصغ أحد»

«لماذا؟»

«لم أعطهم اسمًا صحيحًا»

«اسمك؟»

«أعطيتهم اسمي»

«ثم ما الذي حدث؟»

«اسمها، اسم زوجها»

«ما الّذي قلتَه إذًا؟»

لا يقول شيئا.

«استيقظْ، ما الذي قلته؟»

«قلت إنها زوجتي، قلتُ كاثرين، ماتَ زوجها، قلتُ إنها مصابة بشكل سيء، في كهف في الجلف الكبير، في العوينات إلى الشمال من بئر عين دوا، إنها تحتاج إلى الماء والطّعام، إنني يجب أن أعود معهم لأدلّهم. قلتُ إن كل ما أريده هو سيّارة جيب، واحدة من سياراتهم اللعينة... ربما بدوتُ كواحدٍ من أبناء الصحراء المجانين بعد الرحلة، لكنني لا أظن هذا. كانت الحرب قد بدأت، وكانوا يلاحقون الجواسيس في الصحراء، وأي شخص يحمل اسمًا أجنبيًا ويصل إلى بلدات الواحات الصغيرة هذه هو مشبوه. وكانت تبعد سبعين ميلا فقط ولم يُصغوا. قلتُ إنني أحتاج إلى بعض التجهيزات من التاج فحسب. لا بدّ أنني صرتُ هائجًا كحيوان آنذاك. كانوا يستخدمون السجون المصنوعة من الأماليد بحجم حمام صغير. زجّوا بي في واحدٍ منها ثمّ نقلوني في شاحنة. تدحرجتُ داخل السجن الصغير حتى أسقطته في الشارع فيما لا أزال داخله، كنتُ أردّد بصوت مرتفع اسم كاثرين، اسم الجلف الكبير، بينما الاسم الوحيد الذي كان يجب أن أردّده وله وقع كبطاقة دعوة في أيديهم، هو اسم كليفتون».

«رفعوني إلى الشاحنة مرة ثانية، كنتُ جاسوسًا مُحتملا من الدرجة الثانية، ابن زنا عالميّ آخر فقط».

يُريد كارافاجيو أن ينهض ويسير بعيدًا عن هذا المنزل، عن البلاد وحطام الحرب، إنه مجرّد لص فقط. ما يريده كارافاجيو هو أن يضع ذراعيه حول مهندس الألغام وهانا، أو بشكل أفضل، حول بشرٍ من عُمره في حانة حيث يعرف الجميع

ويستطيع أن يرقص ويتحدث مع امرأة ويُريح رأسه على كتفها ويُسنده إلى جبينها، أي شيء، لكنه يعرف أوّلًا أنه يجب أن يخرج من هذه الصحراء وهندستها المورفينية. يريد أن يبتعد عن الطريق اللامرئي الذي يؤدّي إلى التاج. إن هذا الرجل الذي بدأ يشكّ أنه ألماسي نفسه، استخدمه هو والمورفين ليعود إلى عالمه الخاص، إلى حزنه الخاص، ولم يعد يهم مع أيّ طرفٍ كان أثناء الحرب.

لكن كارافاجيو ينحني إلى الأمام.

«أريد أن أعرف شيئا».

«ماذا؟»

«أريد أن أعرف إذا كنت قد قتلتَ كاثرين كليفتون، أي أنّك قَتلتَ كليفتون وبفعلتك هذه قتلتها».

«لا، لم أفعل».

«سبب سؤالي هو أن جيوفري كليفتون كان يعمل مع الاستخبارات البريطانية، لم يكن رجلا إنجليزيا بريئا، فتاكَ الجميل كان يراقبُ مجموعتك الغربيّة في الصحراء المصريّة والليبية. الإنجليز يعرفون أن الصحراء ستكون مسْرح الحرب يوما ما. كان مصوّرًا جويًّا. لقد أقلقهم موته وما زال. ما زالوا يثيرون السؤال، عرفتُ الاستخبارات عن علاقتك بزوجته منذ البداية، حتى لو لم يعرف كليفتون. ظنوا أن موته هُندّسَ كنوع من الحماية، رفع جسرا متحركا. كانوا ينتظرونك في القاهرة، لكنك عُدتَ طبْعًا إلى الصحراء، فيما بعد، حين أُرسلوك إلى إيطاليا، فقدتُ الجزء الأخير من قصّتك. لم أعرف ماذا حصل لك».

«وهكذا طاردْتَني وعثرتَ عليّ أخيرا».

«جئتُ بسبب الفتاة، أعرف والدها. إن آخر شخص توقّعت أن أجده هنا في هذا الدّير المقصوف هو الكونت لازلو دي ألماسي. وصدقا أصبحتُ مولعا بك أكثر من ولعي بمعظم الأشخاص الذين عملت معهم».

مُستطيل الضوء الذي انتقل عبر كرسي كارافاجيو يؤطّر صدره ورأسه بحيث بدا

الوجه للمريض الإنجليزي مثل صورة. ظهر شعره مُظلمًا في الضوء المُصْمَتْ، لكن الشعر الفوضويّ أُضيء وتوهّج ومُحيت الدوائر التي حول عينيه في ضوء الفجر القرنفلي المتأخر.

أدار الكرسي بحيث يستطيع أن يستند إلى ظهرها مواجها ألماسي. لم تخرج الكلمات من كارافاجيو بسهولة. يدلّك فكه، وجهه يتغضن، يغمض عينيه كي يفكر في الظلمة، وعندئذٍ فقط سيتفوّه بشيءٍ ما متحرّرا من أفكاره. كانت تلك الظلمة التي ظهرت فيه حين جلس في الإطار الضوئي الشبيه بالمعيّن، مقوّس الظهر فوق كرسيّ إلى جانب سرير ألماسي. إنّه أحد الرجلين العجوزين في القصة هذه.

«أستطيع أن أتحدث معك يا كارافاجيو لأنني أشعر أنني أنا وأنت لن نعيش طويلا. الفتاة والصبي سيعيشان، رغم ما مرّا به. كانت هانا حزينة جدا حين قابلتها في البداية».

«قُتل والدها في فرنسا».

«أعرف. لم تتحدث عن ذلك، كانت بعيدة عن الجميع، الطريقة الوحيدة للتواصل معها هي أن أطلب منها أن تقرأ لي، أتدرك أننا أنا وأنت بلا أبناء؟»

يتوقّف كأنه يُفكّر في احتمال.

سأله ألماسي: «هل عندك زوجة؟»

جلس كارافاجيو في الضوء القرمزيّ واضعًا يديه فوق وجهه كي يمحو كلّ شيء، بحيث يستطيع أن يفكّر بدقّة، كأنّ ذلك موهبة أخرى من مواهب الشّباب التي لم تعد تأتي بسهولة.

«يجب أن تتحدّث معي يا كارافاجيو. أم هل أنا مجرّد كتاب؟ شيء ما للقراءة، مخلوق يجب إغراءُه للخروج من بُحيرة ثم حقنه بالمورفين، مليء بالممرات والأكاذيب، والأعشاب الذاوية والأحجار».

«لقد استُخدم لصوص مثلنا كثيرا أثناء هذه الحرب. أضفوا علينا طابعا شرعيًّا.

سرقنا، ثم بدأ بعضنا يوجه النصائح. استطعنا أن نرى عبر تمويه الخداع بشكل أفضل من الاستخبارات الرسميّة. ابتكرنا خدعة مزدوجة، هذا المزيج من المخادعين والمفكرين أدار حملاتٍ كاملة. كنت في كل أنحاء الشرق الأوسط. هناك سمعتُ عنك أول مرة. كنتَ لُغزًا، فراغا على خرائطهم. قدَّمتَ معرفتك بالصحراء للألمان».

«حدث الكثير في التاج عام 1939. عندما اعتُقلت، واعتقدوا أنني جاسوس».

«إذًا هذا حين ذهبت إلى الألمان».

صمت.

«وكنتَ غير قادر على العودة إلى كهف السبّاحين وإلى العوينات؟»

«لم أستطع حتى تطوّعت أن آخذ إيبلر عبر الصحراء».

«هناك شيء يجب أن أخبرك به، يتعلّق بعام 1942، حين عملت دليلا وأوصلت جاسوسا إلى القاهرة».

«عمليّة سلام».

«نعم، حين كنت تشتغل لصالح رومل».

«أنت رجل ذكي... ما الذي ستقوله لي؟».

«كنت سأقول لك إنه حين انطلقتَ عبر الصحراء متجنّبًا قوّات الحلفاء، مسافرا مع إيبلر، قمتَ بعمل بطولي. من واحة جيالو، طوال المسافة إلى مصر. أنت الوحيد الذي يمكن أن يوصل رجُلَ رومل إلى القاهرة مع نسخته من رواية ربيكا».

«كيف عرفت هذا؟»

«ما أريد قوله هو أنهم لم يكتشفوا إيبلر في القاهرة فحسب، بل كانوا يعرفون عن الرحلة كلها، فُكّت شفرة ألمانية قبل ذلك بوقت طويل لكن لم يكن في وسعنا أن نجعل رومل يعرف ذلك وإلّا ستُكشف مصادرنا، وهكذا توجّب علينا أن ننتظر في القاهرة للقبض على إيبلر».

«راقبناك طول الطريق، عبر الصحراء ولأن الاستخبارات لديها اسمك، وعرفَت أنّك متورّط، صارت أكثر اهتماما. كانت تريدك أيضا. من المفترض أن تُقْتَل... إذا

كنت لا تصدقني، لقد غادرتَ جيالو واستغرقك ذلك عشرين يوما. اتّبعت طريق البئر المدفونة. لم تستطع أن تقترب من العوينات بسبب وجود قوّات التحالف، وتجنّبت أبوبلس. مرّت أوقات أصيب فيها إيبلر بحمّى صحراوية وكان عليك أن تعتني به رغم أنك قلت إنّك لم تحبّه... من المفترض أن الطائرات فقدتْ أثرك لكنك روقبت بدقّة. لم تكونوا أنتم الجواسيس، كنّا نحن الجواسيس. ظنّت الاستخبارات أنّك قتلتَ جيوفري كليفتون بسبب المرأة. عثروا على قبره عام 1939، لكن لم يكن يوجد أثر لزوجته. لقد أصبحتَ عدوًّا ليس حين اصطفَفْتَ مع الألمان، بل حين بدأت علاقتك مع كاثرين كليفتون».

«صحيح».

«بعد أن غادرتَ القاهرة عام 1942 فقدنا أثرك. كان من المفترض أن يقبضوا عليك ويقتلوك في الصحراء، لكنهم فقدوا أثرك مُدّة يومين في العراء. لابد أنك كنت غير عقلاني، وإلا لوجدناك، لغّمْنا سيّارة الجيب المخبأة وعثرنا عليها متفجّرة فيما بعد لكن لم يكن يوجد لك أثر. لا بُدّ أن تكون هذه رحلتك العظيمة، وليس الرحلة إلى القاهرة، التي كنتَ مجنونًا فيها».

«هل كنتَ معهم في القاهرة تتعقبني؟»

«لا، اطّلعتُ على الملفات. كنت سأذهب إلى إيطاليا لأنهم ظنّوا أنك هناك».

«هنا».

«نعم».

تحرّك الضوء الشبيه بالمعيّن على الجدار تاركًا كارافاجيو في الظلّ. أصبح شعره داكنًا مرّة أخرى. استند إلى الخلف، كتفه على الأوراق.

تمتم ألماسي: «أعتقد أن هذا لا يهمّ».

«هل تريد بعض المورفين؟»

«لا. أنا أرتّب التفاصيل. كنت دائما رجلا منعزلًا. من الصّعب أن أدرك أنني نوقِشت».

«جمعتك علاقة مع شخص ما مرتبط بالاستخبارات، كان هناك أشخاص في الاستخبارات يعرفونك شخصيا».

«على الأرجح باغنولد».

توقّف كارافاجيو.

«يجب أن أتحدث معك عن شيءٍ واحدٍ أخير».

«أعرف».

«ماذا حدث لكاثرين كليفتون؟ ماذا حدث تماما قبل الحرب ليجعلك تعود إلى الجلف الكبير ثانية، بعد أن غادر مادوكس إلى إنجلترا؟»

من المفترض أن أقوم برحلة إضافية إلى الجلف الكبير لأحزم ما تبقّى من الأغراض في مخيّم العوينات، بعد أن انتهى عملنا هناك. ظننت أن لا شيء سيحدث بيننا. لم أقابلها كعاشقٍ مُدّة عامٍ تقريبا. كانت الحرب تُحَضّر نفسها في مكانٍ ما مثل يدٍ تمتدّ من كوّة باب مرتفعة. أنا وهي كنّا انسحبنا إلى ما وراء جدران عادتنا السابقة في التظاهر بالعلاقة البريئة، لم نعُد نتقابل كثيرا.

خلال صيف عام 1939 كان عليّ أن أذهب برًّا إلى الجلف الكبير مع كيو، وأحزم مخيّم القاعدة، فيما كيو يغادر بالشاحنة، أمّا كليفتون فسيأتي بالطائرة ويأخذني، ثم سنفترق خارج المثلّث الذي نما بيننا.

حين سمعتُ الطائرة وشاهدتها كنت أتسلّق صخور النجد، وكان كليفتون متأهبا للعمل دائما.

توجد طريقة لهبوط طائرة شحن صغيرة على الأرض بعد أن تنزلق من مستوى الأفق. تُمَيّلُ جناحيها في ضوء الصحراء ثم يتوقّف الصوت وتهبط نحو الأرض. لم أفهم أبدا كيف تعمل الطائرات بشكل كامل. كنتُ أراقبها تقترب مني في الصحراء وكنت أخرج دائما من خيمتي خائفا. تميّل أجنحتها عبر الضوء ثم تدخل ذلك الصمت.

جاءت طائرة الموث منزلقة فوق النجد. كنت ألوّح بالمشمّع الأزرق. خفّض

كليفتون ارتفاعه وزأر فوقي منخفضا حتى أن شجيرات السنط فقدت أوراقها. انحرفت الطائرة إلى اليسار ودارت، وبعد أن شاهدتني ثانية دارتْ وتوجّهت نحوي بشكل مستقيم. وعلى بعد خمسين ياردة مني مالت فجأة وسقطت، وبدأتُ أركض نحوها.

اعتقدتُ أنه وحيد. كان من المفترض أن يكون وحيدا لكنني حين وصلتُ إلى هناك لأسحبه كانت إلى جانبه. كان ميتا، وهي تحاول تحريك الجزء الأسفل من جسمها وتنظر أمامها مباشرة. الرمل دخل عبر نافذة مقصورة الطيّار وملأ حضنها. لم يبدُ أن هناك أثر إصابة عليها. امتدت يدها اليسرى إلى الأمام لاتّقاء تحطّم طائرتهما. أخرجتُها من الطيارة التي سمّاها كليفتون روبرت، وحملتها إلى الكهوف الصخرية، إلى كهف السبّاحين حيث كانت الرسوم. خطّ الطّول $23^{o}30$ على الخريطة، وخطّ العرض $25^{o}15$. دفنتُ جيوفري كليفتون تلك الليلة.

أكنتُ لعنة حلَّت بهم؟ بها؟ بمادوكس؟ بالصحراء التي اغتصبتها الحرب، وقُصِفتْ كأنها رمال فقط؟ البرابرة إزاء البرابرة. سيمرّ الجيشان عبر الصحراء دون أن يمتلكا إي إحساس بها. صحاري ليبيا. أبْعِد السياسة وستكون أجمل عبارةٍ أعرفها. كلمة إيروتيكية متواصلة، بئر تُلاطَف لتجود بمائها. الباء والياء. قال مادوكس إنها إحدى الكلمات القليلة التي تسمع اللسان فيها يلتوي. تذكّرتُ ديدوفي صحاري ليبيا؟ يجب أن يكون الإنسان كأنهار الماء في المكان الجافّ.

لا أعتقد أنني دخلت أرضا ملعونة أو أنني علقتُ في موقف شرّير. جميع الأمكنة وجميع الأشخاص هبة لي، كعثوري على الرسوم الصخرية في كهف السبّاحين وترنمي بأغنية «الأعباء» مع مادوكس أثناء البعثات، وظهور كاثرين بيننا في الصحراء، وطريقة سيري نحوها فوق الأرض الإسمنتيّة الحمراء المصقولة، وركوعي على ركبتي، بطنها إزاء رأسي كأنني كنتُ ولدا، مُعالجة قبيلة البنادق لي، وحتى أربعتنا، هانا وأنت ومهندس الألغام.

لقد أُخِذَ مني كلُّ ما أحببته ومنحته قيمة.

بقيتُ معها. اكتشفت أن ثلاثًا من أضلاعها مكسورة، بقيت منتظرا عينها المترجرجة، التواء رسغها المكسور، كلامَ فمها الهادئ.
همست: «لماذا كرهتني. لقد قتلت كلَّ شيء فيّ تقريبا».
«كاثرين... لم...»
«احضنّي، توقّف عن الدفاع عن نفسك، لا شيء يغيّرك».

كانت تحديقتها متواصلة. لم أستطع أن أخرج من كوني هدف النظرة. كنت الصورة الأخيرة التي شاهدتها، ابن آوى الذي في الكهف سيرشدها ويحميها ولن يخدعها أبدا.
«هناك مئات الآلهة المرتبطة بالحيوانات» قلتُ لها، «آلهة أبناء آوى مثل أنوبيس ودواموتيف ووبواوت[110]. تلك كائنات تقودكِ إلى ما وراء الحياة، كما رافقكِ شبحي الأوّل في تلك الأعوام قبل أن نلتقي. في جميع تلك الحفلات في لندن وأوكسفورد حين كنت أراقبَكِ، وجلستُ إزاءكِ بينما كنتِ تقومين بأعمال الجامعة حاملةً قلم رصاص كبيرا. كنتُ هناك حين قابلتِ جيوفري كليفتون في الساعة الثانية ظهرا في مكتبة يونيون في أوكسفورد. كانت معاطف الجميع مرميّة على الأرض وكنتِ حافية تشقّين طريقكِ بينها كمالك الحزين. إنه يراقبكِ، لكنني أراقبكِ أيضا، رغم أنّكِ تفتقدين حضوري وتتجاهلينني. أنتِ في سِنّ تستطيعين فيه أن تشاهدي الرجال الجميلين والأنيقين فقط. لم تنتبهي بعد إلى الذين هم خارج مجال رشاقتك. لا يُستخدم ابن آوى كثيرًا كحارسٍ شخصيّ في أوكسفورد، بينما أنا رجلٌ أصوم إلى أن أشاهد ما أريده. كان الجدار خلفك مغطّى بالكتب ويدك اليسرى تمسك عقدًا طويلا من اللآلئ يتدلى من عنقك. قدماك الحافيتان تعثران على طريقهما إلى الداخل. تبحثين عن شيء. كُنتِ أكثر سمنة في تلك الأيام، رغم أنّك جميلة بشكل مناسب للحياة الجامعية»
«كنّا ثلاثتنا في مكتبة يونيون في أوكسفورد، لكنّكِ لا تشاهدين إلا جيوفري كليفتون. قصّة حُبّ جمعتكما كالدوّامة. لديه عمل ما مع علماء آثار في شمال

أفريقيا، من جميع الأمكنة. طائر عجوزٌ غريب أعمل معه. كانت أمّك مسرورة جدا من مغامرتك»

«لكن روح ابن آوى الذي كان فاتح الطّرُق، والذي كان اسمه ويبواويت، أو ألماسي، وقف في الغرفة معكما. أراقب محاولاتك في حديثٍ حماسيّ قصير حول مشكلةٍ لأنكما كنتما مخمورين. كان رائعا أنه أثناء سُكر الساعة الثانية ظهرا، عرفَ كلّ منكما القيمة والمتعة المتواصلتين للآخر، ربما وصلْتِ مع آخرين، ربما ستعاشرين آخرين، لكنكما عثرتما على قدركما»

«في الساعة الثالثة ظهرا تشعرين أنك يجب أن تغادري، لكنك لم تتمكني من العثور على فردة حذاء، تحملين الأخرى بيدك، وردية اللون. أشاهد الفردة الأخرى نصف مدفونة قربي وألتقطها، كانت تلمع، من الواضح أنه حذاء مُفَضَّل، مع ثلمة أصابع قدميك. تقولين شكرا بعد أن تأخذيها وأنت تغادرين حتى دون أن تنظري إلى وجهي»

«أؤمن بهذا، حين نلتقي مع أولئك الذين نقع في حبهم، ثمة مظهر من روحنا يكون مؤرّخًا، معلّمًا، يتخيّل أو يتذكّر لقاءً حين يمرّ الآخر ببراءة، تماما كما يمكن أن يفتح لك كليفتون باب السيارة منذ عام ويتجاهل قدرَ حياته. لكن جميع أجزاء الجسم يجب أن تكون مستعدّة للآخر، يجب أن تقفز جميع الذرّات في اتجاهٍ واحدٍ لكي تحصل الرغبة»

«عشتُ في الصّحراء طيلة أعوامٍ وآمنت بأشياء كهذه. إنها مكان جيوب، وَهْم الزّمن والماء، ابن آوى الذي بعينٍ واحدةٍ الذي ينظر إلى الخلف والشخص الذي يفكر في الممرّ الذي تفكّرين في السير عليه. في فكّه قِطَعٌ من الماضي يرسلها لك، وحين يكتشف ذلك الزّمن كلّه بشكلٍ تام سيبرهن أنه كان معروفًا في السابق.

نظرت عيناها إليّ، متعبتين من كلّ شيء، منهكتين على نحو مريع. حين أخرجتُها من الطائرة حاولتْ تحديقتها أن تتلقّى كلّ شيءٍ حولها. الآن العينان محروستان كأنهما تحميان شيئا في الداخل. اقتربتُ وجلستُ على كعبيّ، انحنيتُ إلى الأمام

ووضعت لساني على العين اليمنى الزرقاء متذوّقًا الملوحة، غبار الطلع، حملتُ ذلك الطعم إلى فمها، ثم تراجعت إلى الخلف. بدتْ مسحةُ بياضٍ على تحديقتها. باعدت بين شفتيها وهذه المرة جعلتُ الأصابع تدخل عميقا وضغطت لأفرق الأسنان. كان اللسان ملتويًا، وكان عليّ أن أشدّه إلى الأمام، يوجد خيط، نَفَس موتٍ فيها. الوقت متأخّر جدّا. انحنيت إلى الأمام وحملتُ بلساني غبار الطلع الأزرق إلى لسانها. تلامسنا مرّة بهذه الطريقة، لم يحدث شيء. تراجعتُ، أخذتُ نَفسا ثم تقدّمت ثانية. حين قابلت اللسان كان فيه ارتعاشة.

بعد ذلك الشهقة المريعة، عنيفة وحميمية، رجفة تعبر جسمها كلّه كتيّارٍ كهربائي. قُذِفَتْ عن وضعيّة الاستناد إلى الجدار ذي الرسوم. دخل إليها الكائن فسقطت عليّ، بدأ الضوء يضعف في الكهف، تحرّك عنقها، جيئة وذهابا.

أعرفُ مكائد الشيطان، تعلّمتُ حين كنتُ طفلا عن عاشقة الشيطان. سمعتُ عن غاوية جميلة جاءتْ إلى غرفة شاب وسيطلب هو إن كان حكيما أن تستدير، لأن الشيطان والساحرات لا ظهورَ لهم، لا يمتلكون إلا ما يرغبون في أن يقدّموه لك. ما الذي فعلته؟ أي حيوانٍ زرعتُ فيها؟ تحدّثتُ معها على ما أظن أكثر من ساعة، هل كنت عشيقها الشيطان؟ هل كنت الصّديق الشيطان لمادوكس؟ هل رسمتُ خرائط هذه البلاد وحوّلتها إلى ساحة حَرْب؟

من المهم أن يموت المرء في الأمكنة المقدّسة. كان هذا أحد أسرار الصحراء، وهكذا دخل مادوكس إلى الكنيسة في سومرست، المكان الذي شعر أنه فَقَدَ قدسيته وارتكب ما آمن بأنه فِعْل مُقدّس.

حين قَلبتها، كان جسدها كُلّه مغطّى بصباغٍ مشمّع، أعشاب وأحجار وضوء ورماد السنط لجعلها خالدة. ضغط الجسم على لونٍ مقدّس، أزيل أزرق العين، جُعلتْ مجهولة، خريطة فارغة لم يُرسم عليها شيء، لا توقيع بحيرة، لا عنقودًا أسود لجبل كما يوجد في شمال بوركوإينيدي تيبيستي، لا مروحة ليمون أخضر حيث تدخل أنهار النيل إلى الراحة المفتوحة للإسكندرية، حافة أفريقيا. وجميع أسماء

القبائل، بدو الإيمان الذين ساروا في رتابة الصحراء وشاهدوا التألق والإيمان واللون. كيف يصبح حجر أو صندوق معدني مكتشف أو عظم محبوبًا وخالدًا بواسطة الصلاة؟ إنها تدخل الآن إلى مَجْدِ هذه البلاد وتصبح جزءا منه.

نموت ونحن نحتوي غنى العشّاق والقبائل والأشياء التي تذوقناها وأجسادا غصنا فيها وسبحنا كأنها أنهار من الحكمة، وشخصيات تسلّقناها كأنها أشجار ومخاوف اختبأنا فيها كأنها كهوف. أرغب في أن يُعلَّم كل هذا على جسمي حين أموت. أؤمن برقص كهذا، أن تضع الطبيعة علاماتٍ علينا، ألّا نسمّي أنفسنا على خريطة كأسماء الأغنياء على الأبنية. نحن تواريخ مشاعيّة، لَسنا مُمتلكين أو أحاديّين في ذوقنا وتجربتنا. كل ما رغبتُ فيه هو أن أسير على أرضٍ كهذه بلا خرائط.

حملتُ كاثرين كليفتون إلى الصحراء، حيث يوجد الكتاب المشاعي لضوء القمر. كنا بينَ شائعات الآبار، في قصر الرياح.

سقط وجه الماسي إلى اليسار، دون أن يحدّق إلى أيّ شيء، ربما إلى ركبتَيْ كارافاجيو.

«هل تريدُ بعض المورفين الآن؟»

«لا».

«هل أحضر لك شيئا؟»

«لا شيء».

X

آب

نزل كارافاجيو الدّرجَ في الظلام ودخلَ المطبخ. كان على الطاولة بعض الكرفس واللفت الذي ما زالت جذوره موحلة، وكان الضوء الوحيد يصدر عن نارٍ بدأت هانا في إشعالها. كانت تدير ظهرها إليه ولم تسمع وقع خطواته. أيّامه في المنزل قد أراحتْ جسمه وخلّصته من توتّره فبدا أكثر كبرا وامتدادا في إيماءاته.

سحب الكرسيّ، وهكذا استدارت وصارت واعية لوجوده في الغرفة.

«مرحبا ديفد».

رفعَ ذراعه. شعرَ أنه كان في الصحاري فترة طويلة جدا.

«كيف حاله؟»

«نائم، تفوّه بكل شيء»

«أهو كما ظننت؟»

«إنه بخير، نستطيع أن نبقيه».

«ظننتُ هذا، أنا وكيب متأكدان أنه إنجليزي. يعتقد كيب أن أفضل الناس هم غريبو الأطوار، عمل مع واحدٍ منهم».

«أعتقد أن كيب هو غريب الأطوار، أين هو على أيّ حال؟»

«إنه يخطط لشيء على الدكّة، لا يريدني أن أخرج. شيء ما من أجل عيد ميلادي».

وقفت هانا بعد انحناءٍ على الموقد، ماسحة يدها على الساعد المقابل.

قال:» سأروي لكِ قصة من أجل عيد ميلادك».

نظرتْ إليه.

«ليس عن باتريك، معظمها عنك».

«ما أزال غير قادرة على الاستماع إلى هذه القصص يا ديفد».

«الآباء يموتون، تستثمرين في حبّهم بأيّ طريقة، لا يمكنك أن تخبّئيه في قلبك».

«تحدّث معي حين يزول مفعول المورفين».

جاءت إليه ووضعتْ ذراعيها حوله ثم ارتفعتْ وقبّلت خدّه.

اشتد عناقه حولها، لحيته التي لم تُحلق كالرمل على جلدها. تحبّ هذا فيه الآن، كان في الماضي مؤسُوسًا دائما في الدّقّة؛ فرقة شعره مثل شارع يونغ في منتصف الليل، كما قال باتريك. كان كارافاجيو يتحرّك في الماضي كإله في حضورها. الآن بعد أن هزُلَ جذعه ووجهه وشاب شعره، أصبح إنسانا أكثر ودّا.

حضّر مهندس الألغام عشاء الليلة. لم يكن كارافاجيو ينتظر ذلك، كان يعتبر أن وجبة مع ثلاثة هي خسارة. عثرَ كيب على الخضار وقدّمها مطبوخة ليلا كحساء. كانتْ وجبة أخرى بلا طعم، ليس ما تمنّاه كارافاجيو بعد يومٍ كهذا حين كان يُصغي إلى العجوز في الدور العلوي. فتح الخزانة التي تحت المغسلة حيث يوجد لحم مُجفّف ملفوف بقماشٍ رطب، قطّعه كارافاجيو ووضعه في جيبه.

«أستطيع أن أخلّصك من المورفين، أنت تعرف، أنا ممرضة جيدة»

«أنت مُحاطة بالمجانين»

«نعم، أعتقد أننا جميعا مجانين»

حين استدعاهما كيب خرجا من المطبخ إلى الدكّة التي كان عندها، بسياجها الحجريّ المنخفض، مزيّنا بحلقات الضوء.

بدت لكارافاجيو مثل خيطٍ من الشموع الكهربائية الصغيرة التي يعثر عليها في الكنائس المغبرة، وأعتقد أن مهندس الألغام تجرأ كثيرا في نزعها من كنيسة، حتى من أجل عيد ميلاد هانا. سارت هانا في بُطء إلى الأمام واضعة يديها فوق وجهها، لا ريح، ساقاها وفخذاها تحرّكا عبر تنورة ردائها كأنها مياه سطحيّة، حذاؤها الرياضي صامتٌ على الأحجار.

قال مهندس الألغام: «كنت أعثر على حلازين ميتة أينما حفرت».
ما زالا لا يفهمان، انحنى كارافاجيو فوق رجرجة الأضواء. كانت أصداف حلازين معبّأة بالزيت. نظر إلى صفّها مليًّا، يجب أن يكون هناك أربعون منها.
قال كيب:» خمسة وأربعون، أعوام هذا القرن حتى الآن، نحتفل في بلادي بالعصر كما نحتفل بأنفسنا».
تحركت هانا على طولها واضعة يديها في جيبها بالطريقة التي يحبّ كيب أن يراها فيها، مسترخية وكأنها وضعت ذراعيها جانبا من أجل الليل، وهي الآن في حركة بسيطة بلا ذراعين.
أشاح كارافاجيو بصره بسبب الحضور المدهش لثلاث زجاجات نبيذ أحمر على الطاولة. سار إليها وقرأ اسم نوعها وهزّ رأسه منبهرا. كان يعرف أن مهندس الألغام لن يشرب أيًا منها. الزجاجات الثلاث مفتوحة، لابدّ أنّ كيب استعان بكتاب إتيكيت من المكتبة. ثم شاهد الذّرة واللحم والبطاطس، لفّت هانا ذراعها حول كيب وجاءت معه إلى الطاولة.
أكلوا وشربوا، وكانت الكثافة اللامتوقعة للخمرة كاللحم على ألسنتهم. عبّروا عن سخافتهم حالا في شرب نخب المهندس، الناهب العظيم، ونخب المريض الإنجليزي. شربا نخب بعضهما وشارك كيب بكوب ماء. حدث هذا حين بدأ يتحدث عن نفسه. كان كارافاجيو يضغط عليه ولا يصغي دائما، يقف أحيانا ويسير حول الطاولة معبّرا عن سعادته حيال كل هذا. يريدهما أن يتزوّجا، وتاق إلى أن يجبرهما شفهيا على ذلك، لكنه بدا أنهما يمتلكان قواعدهما الغريبة حيال علاقتهما. ماذا كان يفعل في هذا الدور، جلسَ ثانية. وكان يلاحظ بين فينة وأخرى انطفاء ضوء، أصداف الحلازين تحتوي على كمية محدودة من الزيت فقط. ينهض كيب ويملأها ثانية بالبارافين القرنفلي.
«يجب أن نبقيها مشتعلة حتى منتصف الليل».
ثم تحدثوا عن الحرب التي أصبحت.بعيدة جدا، قال كيب: «حين تنتهي الحرب مع اليابان سيذهب الجميع أخيرا إلى أوطانهم».

سأله كارافاجيو: «وإلى أين ستذهب؟»
أدار مهندس الألغام رأسه بنصف انحناءة ونصف هزّة، وفم مبتسم. وهكذا بدأ كارافاجيو يتحدّث معظم الأوقات مع كيب.
اقترب الكلب من الطاولة بحذر ووضع رأسه في حضن كارافاجيو، طلبَ مهندس الألغام قصصا أخرى عن تورنتو كأنها مكانٌ للعجائب. الثلج الذي أغرق المدينة وجمّد المرفأ، مراكب الصّيف حيث يصغي رُكّابها إلى حفلات. لكن ما كان مهتما به فعليا هو المفاتيح لفهم طبيعة هانا، رغم أنها تتملّص وتُبعد كارافاجيو عن القصص التي تتضمّن لحظة من حياتها. أرادت من كيب أن يعرفها فقط في الحاضر، شخصيّة ربما فيها أخطاء أكثر أو عاطفة أكبر أو أقسى، أو أكثر هوسا من الفتاة أو المرأة الشابّة التي كانَتها آنذاك. يوجد في حياتها أمها أليس، ووالدها باتريك، وزوجة والدها كلارا، وكارافاجيو. أقرت سابقا بهذه الأسماء لكيب وكأنها أوراق اعتمادها، ومهرها. كانت بلا أخطاء ولا تحتاج إلى نقاش. استخدمتها كمراجع في كتاب تستطيع أن تشير إليها بالطريقة الصحيحة لسلق بيضة، بالطريقة الصحيحة لحشو اللحم بالثوم، كان يجب ألا يشك بها.
والآن، لأنه مخمور تماما، روى كارافاجيو قصّة غناء هانا النّشيد الوطني الفرنسي، التي رواها لها من قبل. قال كيب: «نعم، لقد سمعتُ الأغنية»، وحاول أن يقلّدها.
قالت هانا: «لا، يجب أن تغنيها بصوت مرتفع، وأنت واقف».
وقفتْ، انتزعت حذاءها التنسي وصعدت إلى الطاولة، كانت ثلاثة أضواء صدفية ترتعش، على وشك الانطفاء، على الطاولة قرب قدميها الحافيتين. «هذه لك، يجب أن تتعلمها هكذا يا كيب، إنها لك».
غَنَّتْ في الظلمة خلف ضوئهم الصدفي، وراء مربع الضوء القادم من غرفة المريض الإنجليزي، إلى السماء المظلمة التي تتموّج بظلال السرو. أخرجت يديها من جيبها.
كان كيب قد سمع الأغنية في المخيّمات حين غنّتها مجموعات الرجال، غالبا أثناء لحظات غريبة، مثلا قبل بطولة كرة قدم مرتجلة. وحين سمعها كارافاجيو في السنوات القليلة الأخيرة للحرب لم يحبها أبدا ولم يحب أن يصغي إليها.

لكنه أصغى بمتعةٍ الآن لأنها كانت تغنّي ثانية، وتبدَّل هذا بسرعة بسبب طريقة غنائها، ليس الولع بها في سن السادسة عشرة، بل تذكّر دائرة الضوء حولها في الظلام. كانت تغنّيها كأنها شيء ينمّ عن أذى عاطفي، كأنّ المرء لا يستطيع أن يجمع كلّ أمل الأغنية مع بعضه، بدّلتها السنوات الخمس التي قادت إلى ليلة عيد ميلادها الواحد والعشرين في السنة الخامسة والأربعين للقرن العشرين بصوت مسافر متعب، وحيد إزاء كل شيء. كانت مثل وصيّة جديدة. لم يعد يوجد يقين في الأغنية، واستطاع المغنّي أن يكون صوتا واحدا ضدّ جميع جبال السلطة، هذا هو اليقين الوحيد. الصوت هو الشيء الوحيد غير الفاسد. أغنية ضوء حلزوني، أدرك كارافاجيو أنها تغني مع قلب مهندس الألغام وتردّد صداه.

أمضيا في الخيمة ليالٍ دون كلام، وأُخرى مليئة به، غير متأكدين ألبتّة ممّا سيحدث، من الذي سيبزغ جزء من ماضيه، أو أيّ لمسة ستكون غفلا وصامتة في ظُلمتهما. حميميّة جسدها أو جسد لغتها في أذنه حين يستلقيان على الوسادة الهوائيّة التي يُصِرّ على نفخها واستخدامها كلّ صباح. لقد فتَنه هذا الابتكار الغربيّ، التزمَ بإفراغها من الهواء وطيّها ثلاث طيّات كل صباح، فعل ذلك في طرقاته كلّها عبر المساحات الإيطاليّة الواسعة.

يستند كيب إلى عنقها في الليل، يتلاشى تحت أظافرها التي تحكّ جلده، أو يضع فمه على فمها، ومعدته على رسغها.

تغنّي وتدندن. تتخيّله في ظُلمة هذه الخيمة نصف طائر، تتخيّل الرّيش الذي يغطّيه، تلمس سوار الحديد البارد على رسغه، يتحرّك في كَسَل كلّما كان في ظُلمةٍ كهذه معها، ليس سريعًا كالعالم، بينما ينزل في ضوء النهار عبر الفوضى التي حوله كلّها كما يندمج لون في لون.

لكنّه في الليل يُعانق الخَدَر، ولا تستطيع أن ترى نظامه وانضباطه دون أن ترى عينيه، لا مفتاح له. يلمس في كلّ مكان مداخل عمياء، كأن الأعضاء والقلب وصفوف الأضلاع يمكن أن تُرى تحت الجلد، اللعاب الذي على يدها الذي بات لونًا الآن. رسم خريطة حُزنها أكثر من أيّ شخص آخر، كأنها تعرف الممر الغريب للحب الذي يمتلكه تجاه أخيه الخطير. «إننا جوّالون، هذا في دمنا، لهذا يغدو السّجن صعبًا جدًّا على طبيعة السّيخي، وسوف يقتل نفسه كي يتحرّر».

في الليالي التي يتحدثان فيها يسافران إلى بلاده، البنجاب، ذي الأنهار الخمسة: الستلج وجيلم ورافي وتشيناب وبيز[111]. يرشدها إلى الغوردوارا المعظّم[112]، خالعًا حذاءها، ويراقبها حين تغسل قدميها قبل الدخول، ويغطّي رأسها. شُيّد الغوردوارا المعظّم عام 1601، ودُمّر عام 1757، ثمّ بُني ثانية فورًا، وأضيف إليه الذّهب والرخام عام 1830. «لو أخذتكِ قبل الفجر ستشاهدين أوّلًا الضباب فوق المياه ثم ينقشع ليكشف المعبد في الضوء، وستسمعين أصواتًا تعلو بتراتيل القدّيسين – رامانااندا وناناك وكابير[113]. داربار صاحب، أو القاعة الرئيسة، هي محور كلّ غوردوارا، تسمعين التراتيل وتشمّين شذى الفاكهة من حديقة المعبد: الرمّان والبرتقال. إن المعبد هي الجنّة لمن أراد الابتعاد عن اندفاعة الحياة، وهو مُتاح للجميع بكافّة دياناتهم، إنه السفينة التي عبرتْ محيط الجهل».

يتحرّكان عبر الليل، عبر الباب الفضّي إلى العرش، حيث وُضع كتاب السّيخ المقدّس تحت ظلّة من قماش مطرّز. يُرتّل الرّاغيّون[114] أشعار الكتاب بمواكبة مع الموسيقيين. يغنّون من الرابعة فجرا إلى الحادية عشرة ليلا. يُفتح الغرانث صاحب[115] عشوائيا ويلتقطون مقطعًا، ويستمرون مُدّة ثلاث ساعاتٍ قبل أن ينقشع الضباب عن البحيرة لينكشف المعبد الذهبي، تمتزج الأشعار وتنطلق في قراءة لا تنقطع.

يجعلها كيب تمشي إلى جانب بركة إلى شجرة العرش، حيث دُفنَ بابا غوجهاجي، الكاهن الأوّل للمعبد. شجرةُ خرافاتٍ، عمرها أربعمئة وخمسون عامًا. «جاءت أمي إليها لتربط خيطا إلى غصنها وتتوسّلها كي ترزقها ولدًا، وحين وُلِد أخي عادت وطلبت منها أن تباركها بآخر. أشجار مقدّسة ومياه سحريّة في جميع أنحاء البنجاب».

هانا صامتة. يعرف عُمق الظلمة داخلها، افتقارها إلى طِفلٍ منها، افتقارها الإيمان. ينتزعها دائما من حافة حزنها، من طفل مفقود وأب مفقود. قال لها: «لقد فقدتُ شخصا كان كالأب أيضا». لكنها تعرف أن هذا الرجل الذي إلى جانبها هو أحد المفتونين، ونشأ غريبًا ولهذا يستطيع أن يغيّر ولاءاته ويُعوّض خسائره.

هناك أيضا أولئك الذين حطمهم الظلم وأولئك الذين لم يحطمهم. إذا سألْتَه سيقول إنه عاشَ حياة جيّدة، رغم أن شقيقه في السجن وأصدقاءه ماتوا في الانفجارات، وهو يجازف بحياته كل يوم في الحرب.

رغم اللطف الذي في بشرٍ كهؤلاء، فإنّهم كانوا غير عادلين بشكلٍ مريع. يستطيع أن يمضي النّهار كلّه في حُفرة موحلة ليعطّل قنبلة يمكن أن تقتله في أيّ لحظة، يستطيع أن يعود إلى المنزل من عملية دفن مهندس ألغام زميل بمعنويات منخفضة، لكن مهما كانت المشاكل حوله فثمّة دائما حلّ وضَوء، أمّا هي فلم تشاهد أيًا منهما، توجد بالنسبة له خرائط القَدَر المتنوّعة. وفي معبد مدينة أمريتسار يُرحّب بجميع الأديان والطبقات، والناس يأكلون معا. سيسمح لها أن ترمي قطَع نقود أو زهرة على ملاءة مفروشة أرضًا ثم تنضمّ إلى الغناء العظيم المتواصل.

رغبتْ في هذا. لتملأ داخلها حزنًا من الطبيعة، هو نفسه سيسمح لها أن تدخل من أيّ البوابات الثلاثة عشرة لشخصيّته، لكنها عرفت أنه إذا كان مُعرّضًا للخطر فلن يعود أبدا ليواجهها. سيخلق مكانا حوله ويركّز، هذه هي صنْعَته. «إن السّيخ أذكياء جدا في التكنولوجيا، قرَابَة صوفيّة ما». «ماهي؟». «انجذاب، نعم، مع الآلآت».

سيغيب بينها ساعات، تلك الإيقاعات في المستقبلة البلّورية، قارعًا جبهته ومحرّكًا شعره. لم تصدّق أنها استطاعت أن تستدير تمامًا نحوه وتعشقه. يتحرك بسرعة تسمح له أن يستبدل الخسارة. هذه هي طبيعته، لن تحكم عليها، أيّ حق تمتلكه لتفعل هذا؟ يخرج كيب كلّ صباح وحقيبته تتدلى من كتفه اليسرى، سائرًا في الممرّ مبتعدا عن ڤيلا سان جيرولامو. تراقبه كل صباح وترى جِدّته حيال العالم، ربّما آخر مرّة. بعد دقائق سينظر إلى أشجار السرو التي مزّقتها الشظايا، وتحطّمتْ أغصانها الوسطى. لابدّ أن بلّيني سارَ في ممرٍّ كهذا، أو ستاندال، لأن مقاطع برمّتها في دَيْر بارما حدثت في هذا الجزء من العالم.

ينظر كيب إلى الأعلى، فوقه قوس الأشجار العالية المجروحة، الممرّ أمامه

قروسطيٌّ، وهو شاب يمتهن أغرب مهنة ابتكرها عصره، خبير ألغام، مهندّس عسكريّ يتحرّى عن الألغام ويعطّلها. يخرج كل صباح من خيمته، يستحمّ ويرتدي ثيابه في الحديقة ثم يبتعد عن الفيلا ومحيطها، حتى أنه لا يدخل المنزل، قد يلوّح لها بيده إذا شاهدها، كأن اللغة والتواجد البشريّ سيُشوّشانه، سيدخلان كالدم إلى الآلة التي يجب أن يفهمها، ستشاهده على بُعد أربعين ياردة من المنزل، في فُسحة من الممرّ.

تلك هي لحظة تركهم جميعًا خلفه، اللحظة التي ينغلق فيها الجسر المتحرّك وراء الفارس، ويصبح وحيدًا مع هدوء موهبته الصارمة. هناك في مدينة سيينا، اللوحة الجصّية التي شاهدتْها، لوحة جصّية لمدينة. على بُعْد بضع ياردات خارج أسوار المدينة تفتّتت رسوم الفنان، وهكذا لا يوجد حتى أمان في الفن ليقدّم بستانا في الحقول البعيدة للمسافر المغادر للتلّ. تشعر أن كيب يذهب إلى هناك أثناء النهار ليخرج كل صباح من المشهد المرسوم نحو الجروف المظلمة للعماء، الفارس، القدّيس المحارب، ترى البزّة الخاكية تترجرج عبر أشجار السّرو. سمّاه الرجلُ الإنجليزي هاربَ القَدَر. خمّنت أن تلك الأيّام يبدؤها بمُتعة رفع ناظرَيه عاليًا إلى الأشجار.

نقلوا خبراء الألغام بالطائرات إلى نابولي في بداية تشرين 1943 بعد أن اختاروا أمهرهم من سلك الهندسة وكانوا في جنوب إيطاليا. كيب بين الرجال الثلاثين الذين أُحضِروا إلى المدينة المفخّخة.

خطّط الألمان في الحملة الإيطالية لأحد الانسحابات الأكثر ذكاء وهَوْلًا في التاريخ العسكري. استغرق تقدّم الحلفاء، الذي كان يجب أن يتم خلال شهر، عامًا. النّار في طريقهم، والمهندسون العسكريون يركبون رفارِف الشاحنات حين كانت الجيوش تتقدّم شمالا، لتبحث أعينهم عن أيّ عَبَث غير طبيعيّ في التُّربة يُشير إلى وجود لُغم ما. التقدّم بطيء جدا، فيما بعيدًا في الشمال على الجبال كانت فرق أنصار غاريبالدي التي ترتدي مناديل حمراء للتعارف تلغّمُ الطرقات بالمتفجرات التي تنفجر حين تمرّ الشاحنات الألمانية عليها.

إن وزن زراعة الألغام في إيطاليا وشمال أفريقيا لا يمكن تصوره. في تقاطع طريق كيسمايو - أفمادو، عُثِرَ على 260 لغما، وعثر على 300 في منطقة جسر نهر أومو، وفي 30 حزيران 1941 زرع مهندس الألغام من جنوب أفريقيا 2700 لغم من نوع مارك في يوم واحد في مرسى مطروح، بعد أربعة أشهر أزال البريطانيون من مرسى مطروح 7806 ألغام وزرعوها في مكانٍ آخر.

الألغام تُصنع من كل شيء. تُحشى أنابيب مطلية بالزنك طولها 40 سنتمترا بالمواد المتفجرة وتُترك على طول الممرات العسكرية. الألغام في الصناديق الخشبية تُترك في المنازل، والأنابيب تُملأ بالجلجنت وقِطَع المعدن والمسامير. وكان لغّامو جنوب

أفريقيا يصنعون الحديد والديناميت في صفائح وَقود تتّسع لأربعة غالونات تستطيع أن تدمّر السيارات المصفحة.

الأمر أكثر سوءا في المدن، فقد كانت وحدات نزع الألغام القليلة التدريب تُنقَل بالسُّفن إلى القاهرة والإسكندرية. وأصبحت الكتيبة الثامنة عشرة مشهورة، فقد أزالت خلال ثلاثة أسابيع 1403 قنابل شديدة الانفجار في تشرين الأول 1941.

إيطاليا أسوأ من أفريقيا، فصمّامات ألغامها التي تعمل بالساعة غريبة بشكل كابوسي، والآليّات النابضيّة تختلف عن الآليات الألمانية التي تدرّبت عليها الوحدات. حين يدخل مهندس الألغام المدن ويسيرون في شوارع تتدلّى فيها الجثث من الأشجار أو شرفات الأبنية، وغالبا ما كان الألمان يردّون بقتل عشرة إيطاليين إذا قُتل ألماني واحد، يجدون أن بعض الجثث المعلّقة ملغومة، ويجب تفجيرها في الجو.

انسحب الألمان من نابولي في الأوّل من أكتوبر عام 1943، أثناء غارة للحلفاء في أيلول الماضي خرج مئات السكّان وبدأوا يعيشون في الكهوف خارج المدينة. قصف الألمان أثناء انسحابهم مداخل الكهوف وأجبروا المواطنين على البقاء تحت الأرض، انتشر وباء التيفوئيد، وفي الميناء لُغِّمتْ السفن الغارقة تحت الماء.

سار مهندسو الألغام الثلاثون في مدينة مفخّخة، قنابل مؤقتة موضوعة على جدران الأبنية العامة، جميع العربات ملغومة تقريبا، وبدأ مهندسو الألغام يشكّون في أيّ شيء يوضع عرضيا في غُرفةٍ، يفقدون الثقة في أي شيء يوضع على طاولة إلا إذا كان في وضعية السّاعة الرابعة، أي أن عقرب الساعة يشير في اتجاه اليمين. بعد سنوات من الحرب يضع خبير ألغام قلمًا على طاولة جاعلا النهاية الأسمك في اتجاه الساعة الرابعة.

ظلت نابولي منطقة حرب ستة أسابيع، فيما كيب هناك مع الوحدة طوال الفترة. اكتشفوا بعد أسبوعين المواطنين في الكهوف، جُلُودهم سوداء من البراز والتيفوئيد. موكبهم في طريقه إلى مستشفيات المدينة موكب أشباح.

بعد أربعة أيام انفجر مكتب البريد وأُصيب اثنان وسبعون شخصًا بين قتيل

وجريح، أُحرقت أغنى مجموعة من السجلّات القروسطية في أوروبا، في أراشيف المدينة.

في العشرين من تشرين الأوّل قبل ثلاثة أيام من إعادة التيار الكهربائي، سلّم ألمانيّ نفسَه إلى السّلطات وقال إن آلاف القنابل المخبأة في قسم الميناء من المدينة موصولة بالنظام الكهربائي المعلّق، وحين يعود التيار الكهربائي ستتلاشى المدينة في اللهب. حُقِّقَ معه أكثر من سبع مرات في مراحل مختلفة من اللّين والشدّة، ولم تتأكد السلطات من صحّة اعترافه. أفرغت هذه المرّة منطقة كاملة من المدينة، الأطفال، والشيوخ الموتى تقريبًا، والحوامل، الذين أُخرجوا من الكهوف، والحيوانات، وسيارات الجيب الجديدة، والجنود الجرحى، والكهنة والراهبات في الأديرة. في مساء الثاني والعشرين من تشرين الأول عام 1943، لم يبق سوى اثنَي عشر مهندس ألغام على قيد الحياة هناك.

يجب أن تعود الكهرباء في الثالثة ظُهرًا، في اليوم التالي. لم يكن أيّ من مهندس ألغام في مدينة فارغة من قبل، فباتت تلك الساعات هي الأغرب والأكثر إزعاجا في حياتهم.

العواصف الرعديّة تهدر ليلًا فوق إقليم توسكانا الإيطاليّ بكامل مُدُنه. البرق يصعق نازلًا قمّة أيّ معدن أو بُرج بارز. يعود كيب دائما إلى الفيلا عبر الممرّ الأصفر بين أشجار السّرو حوالي السابعة مساء، حين يبدأ الرّعد إن كان هناك رَعْد. تلك هي تجربته القروسطيّة.

يبدو أنّه يُحبّ الالتزام بعادات زمنيّة كتلك. ستُشاهد هي أو كارافاجي قامَته في البُعد، يتوّقف في سيره إلى المنزل لينظر إلى الخلف، إلى الوادي، كي يرى كم يبعد المطر عنه. تعود هانا وكارافاجيو إلى المنزل. يتابع كيب طريقه الذي يبلغ نصف ميل صعودًا على الممر الذي يلتفّ ببطءٍ إلى اليمين ثم ببطءٍ إلى اليسار. يُسْمَع صخب حذاءه على الحصى. تصله الريح في هبّات، ضاربةً أشجار السّرو كيفما اتفق، فتميل الرّياح لتدخل كُمّي قميصه.

يسير عشر دقائق غير متأكدٍ أبدا أن المطر سيطاله، سيسمع المطر قبل أن يشعر به. طقطقة على العشب الجافّ، على أوراق الزيتون، لكنه الآن في ريح الهضبة العظيمة المنعشة، في طليعة العاصفة.

إذا طاله المطر قبل أن يصل الفيلا، فإنّه يتابع السير بالسُّرعة نفسها، واضعًا الرّداء المطاطي على جراب عدّته.

يسمع في خيمته الرّعْدَ الصّافي، هزيمَه الحادّ فوق رأسه، صوت عجلة عربةٍ حين تختفي وراء الجبال. يلمح ضوءً مفاجئا من البرق عبر جدار الخيمة، يبدو له أكثر تألقا من شعاع الشمس، يشاهد وميضا فوسفوريّا، شيئا كالآلة يتعلّق بالكلمة الجديدة التي سمعها في غرفة الدروس وعبر مستقبلته البلّورية، الكلمة هي: نوويّة. يحلّ العمامة المبلّلة في الخيمة، ويجفّف شعره ويلفّ رأسه بأخرى.

تهبّ العاصفة من إقليم بييمونتي إلى الجنوب والشرق. يسقط البرق على الأبراج الشّاهقة للكنائس الصغيرة، ذات اللوحات الداخليّة التي تُحاول تصوير قصّة مراحل الصّلب أو ألغاز المسبحة. وفي بلدات فاريس وفازاللو الصغيرة، تظهرُ تماثيل من الطّين النّضِيج[116] خارقة للمألوف، نُحِتَتْ خلال القرن السابع عشر، قَصيرة، تُمثّل شخصيّات توراتيّة: ذراعا المسيح المصلوب مكبّلتين إلى الخلف، والسوط الهابط، والكلب النابح، وثلاثة جنود يرفعون الصّليب نحو الغيوم المرسومة فوقهم.

تتلقى ڤيلا سان جيرولامو لحظات البرق تلك أيضًا في قاعاتها المظلمة، والغرفة التي يستلقي فيها المريض الإنجليزي، والمطبخ حيث تُشعل هانا نارًا، وفي الكنيسة الصغيرة المقصوفة أمامها، كُلها تُضاءُ دون ظِلال. يسير كيب دون خوف تحت الأشجار في رُقعته من الحديقة أثناء عواصف كهذه، لأن الأخطار التي تعترضه من الصواعق محدودة مُقارنةً مع خطر حياته اليوميّة. هناك الصور الكاثوليكية الساذجة ضمن تلك الأضرحة في البلدات التي إلى جانب التلّ، التي رآها ترافقه في نصف ظلمته، بينما يُحصي الثواني بين البرق والرعد. ربما هذه الڤيلا لوحة

مشابهة، أربعتهم في حركةٍ خاصّة، مُضاءة بشكل خاطف، معلّقة بسخرية إزاء هذه الحرب.

شقَّ خبراء الألغام الاثنا عشر الذين بقوا في نابولي طريقَهم في المدينة، دخلوا طوال الليل إلى الأنفاق المسدودة، هبطوا المجارير باحثين عن أسلاك الصمّامات التي يمكن أن تكون موصولة بالمولّدات الكهربائيّة المركزيّة، يجب أن يرحلوا في الثانية ظُهرًا قبل أن عودة التيّار الكهربائي.

مدينة فيها اثنا عشر شخصا فحسب، ينتشرون في البلدة. واحد عند المولّد، وآخر عند الخزّان، ما يزال يغوص، فيما السّلطات متأكدة تماما أن الدمار سيحصل من الطوفان. كيف يمكن تلغيم مدينة؟ الأعصاب مثارة بسبب الصمت، كل ما يسمعونه من العالم البشري هو نباح الكلاب وأغاريد الطيور التي تجيء من نوافذ الشّقق المُطلّة على الشوارع. بحلول السّاعة المقرّرة، سيدخل غُرفةً ما مع طائر، شيء بشري ما في فراغها. يعبر متحف الآثار الوطني، حيث وُضِعَتْ بقايا بومبي وهركولانيوم[117]، وشاهد الكلب العريق مجمدا في رفات أبيض. مكتبة

يُشعل مهندس الألغام ضوءه القرمزيّ المُثبّتُ إلى ذراعه اليسرى حين يسير، المصدر الوحيد للضوء في شارع كاربونارا. أصابه بالإعياء من البحث الليليّ البارحة، ويبدو الآن أنّ أمامه القليل ليفعله. يمتلك كلّ منهم هاتفا لاسلكيًا لكن يجب أن يُستخدم من أجل اكتشاف طارئ فقط. يُخيّم صمتٌ مرعبٌ في الساحات الفارغة، والأحواض الجافّة تُتعبه جدا.

يواصل طريقه في الواحدة ظُهرًا جهة حُطام كنيسة سان جيوفاني، غدَت أشبه بخيوط المكرونة، إلى مصلى الكنيسة تحديدًا. سار عبرها منذ بضع ليالٍ حين ملأ البرق الظّلمة وشاهد أشكالا بشرية ضخمة قبالته، شاهد ملاكًا وامرأة في غرفة نوم. حلّت الظلمة مكان المشهد القصير وجلس منتظرا على مقعد خشبيّ، لكنه لم يكشف شيئًا آخر.

يدخل إلى زاوية الكنيسة الآن حيث تماثيل الطّين النّضيج الملوّنة بلون بشرٍ بِيْض.

يعكس المشهد الطينيّ أمامه غرفة نومٍ تتحدّث امرأة فيها مع ملاك على سرير. يكشف شعر المرأة البُنيّ المجعّد نفسه تحت الرداء الأزرق المحلول الأزرار، أصابع يدها اليُسرى تلامس عظم صدرها. حين يخطو إلى الأمام، إلى الغرفة، يُدرك أن كلّ شيء خارق للمألوف. رأسه ليس أكثر ارتفاعا من كتف المرأة. تصل ذراع الملاك المرفوعة إلى ارتفاع خمسة عشر قدما. تمثّل هذه الكائنات رِفْقَته في خواء المدينة، إنها غُرفة مسكونة، يسير داخل نقاش هذه الكائنات التي تُمَثّلُ خُرافةً ما عن البشريّة والسماء.

يُنزل حقيبته عن كتفه ويواجه السرير. يُريد أن يستلقي عليه، لكنه يتردّد بسبب وجود الملاك فقط. سار سابقا حول الجسم الأثيري ورأى مصابيح مغبرة مثبتة إلى ظهره تحت جناحيه الدكناوَين، وعرف رغم رغبته أنه لا يستطيع أن ينام بسهولة بحضور شيءٍ كهذا. ثلاثة أزواج من الأحذية حوله، تنمّ عن ذَوق مهندس الديكور، تظهر من تحت السرير الطينيّ، إنها حوالي الرابعة والأربعين دقيقة.

ينشر رداءه على الأرض، يحوّل الحقيبة إلى وسادة ويستلقي على الحجر، نام معظم أيّام طفولته في لاهور على أرض غرفته. وفي الحقيقة لم يعتد قط على أسرّة الغرباء. كل ما يستخدمه في خيمته حَشِيّة ووسادة هوائيّة، بينما في إنجلترا، حتى حين يمكث مع اللورد سفولك، يغوص برَهبة في عجينة الفراش ويستلقي هناك أسيرا ومستيقظا إلى أن يزحف لينام على سجادة الأرض.

يتمدّد جوار السرير، يلاحظ أن الأحذية غير طبيعية أيضا، تنزل فيها أقدام الأمازونيّات. فوق رأسه ذراع يُمنى حذرة لامرأة، وراء قدميه الملاك، حالا سيُشَغّل أحد مهندسي الألغام كهرباء المدينة، وإذا كان سيتفجّر، فسيحدث ذلك في حضرة هذين الاثنين، سيموتون معًا أو يأمَنون معًا، لا شيء آخر يستطيع أن يفعله على أيّ حال، كان مستيقظا طوال الليل من أجل بحثٍ أخير عن مخابئ الديناميت والذّخيرة المؤقتة. ستتفتّت الجدران حوله أو سيسير عبر مدينةٍ من الضوء. على الأقل عثر على الأشكال الأبويّة، يستطيع أن يسترخي وسط مسرحية هذه المحادثة.

وضع يديه تحت رأسه لامحًا فظاظةً جديدة في وجه الملاك لم يشاهدها من قبل، خدعَتْه الزّهرة البيضاء التي يحملها، الملاك محارب أيضا. وسط هذه السلسلة من الأفكار يُغمض عينيه ويستسلم للتعب.

ينهض بابتسامةٍ على وجهه كأنه ارتاح أخيرا لأنه نام، من رفاهية شيء كهذا. راحة يده اليسرى مستندة إلى الإسمنت. لون عمامته يذكّر بلون تلك الرّبطة مخرّمة على عنق السيّدة مريم.
عند قدميها كان مهندس الألغام الهنديّ الصغير في بذلته إلى جانب أحذية ستّة. يبدو أن لا زمن هنا. كلّ منهم اختار موقعا أكثر راحة كي ينسى الزمن، وهكذا سيتذكّرنا الآخرون مرتاحين ومبتسمين عندما نثق بمحيطنا. المشهد الطينيّ الآن يحتوي على كيب عند أقدام قامَتين توحيان بأنهما يتناقشان مصيره. الذراع المرفوعة أمر بإيقاف الإعدام، وَعْدٌ بمستقبل عظيم لهذا النائم، الشبيه بالطفل، الأجنبي، ثلاثتهم عند نقطة القرار، الاتفاق.
تحت غطاء الغبار الرّقيق يحمل وجه الملاك فرحًا قويًا. هناك ستّة مصابيح مثبّتة إلى ظهره، اثنان معطّلان، لكن رغم ذلك تضيء أعجوبة الكهرباء جناحيه من الأسفل فجأة، بحيث أن ألوانها الحمراء الدمويّة والزرقاء والذهبيّة الأشبه بالحقول والخردليّة، تشعّ مفعمة بالحيوية في الأصيل.

حيثما تكون هانا الآن، أو في المستقبل، ستتذكر خطّ حركة جسد كيب في خروجه من حياتها. ذهنها يكرّر ذلك. الممرّ الذي أغلقه بينه وبينهم، حين تحوّل إلى حجرٍ من الصّمت وسطهم. تتذكر كل شيء في ذلك اليوم من شهر آب، كيف كانت السماء والأشياء التي على الطاولة أمامها تُعتم تحت الرعد.

تشاهده في الحقل، يداه تمسكان رأسه، ثم تدرك أن هذه ليست إيماءة ألم، بل تعكس حاجته ليثبّت السمّاعات. يبْعُد عنها مئة ياردة في الحقل السُّفليّ حين سمعت صرخة تبزغ من جسده الذي لم يرفع صوته بينهم قط. يسقط على ركبتيه كأنه يسترخي. يمكُث هكذا ثم ينهض ببطءٍ ويتحرّك في خطّ مائل نحو خيمته، يدخل إليها ويُغلقها خلفه، تسمعُ صوت الرّعد، وتشاهدُ يديها تُعتمان. يخرج كيب من الخيمة حاملا بندقية. يدخل إلى فيلا سان جيرولامو، ويعبرها متحرّكًا مثل كُرة فولاذيّة في لُعبة آركيد، يعبر المدخل ثم يصعد الدرج قافزًا الدّرجات ثلاثًا ثلاثًا. أنفاسه سريعة، ووقْع خطواته تتصادى في عواميد الدرج. تسمع قدميه على طول المدخل، فيما تواصل هانا الجلوس إلى طاولة المطبخ، الكتاب أمامها، القلم، هذه الأشياء مجمّدة ومظلّلة في ضوء ما قبل العاصفة.

يدخل غرفة النوم، يقف عند قدم السرير حيث يستلقي المريض الإنجليزي.

«مرحبا أيها المهندس».

عقب البندقية على صدره، ومِعلاقها مثبّت على ذراعه المثلثيّة.

«ما الذي يجري في الخارج؟»

يبدو كيب مُدانًا، مفصولا عن العالم، وجهه الأسمر يبكي، يستدير الجسد ويطلق النار على الحوض القديم، ويرتفع غُبار المرمر على السرير، يستدير إلى الوراء فتُصبح البندقية مسدّدة إلى الإنجليزي، يبدأ بالارتجاف، ثم يحاول كل شيء فيه أن يسيطر على هذا.

«ضع البندقية يا كيب».

يضرب ظهره إلى الجدار ويوقف ارتجافه، غُبار المرمر في الهواء حولهما.

«جلستُ عند قدم هذا السرير واستمعتُ إليك، أيها العم في هذه الأشهر لأخيرة. حين كنتُ صبيًّا فعلت الشيءَ ذاته، اعتقدتُ أنني أستطيع أن أُغني نفسي بما علّمني إيّاه البشر الأكبر سنًّا، آمنت أنني أستطيع أن أحملَ تلك المعرفة، وأبدلها ببطءٍ، ثم، على أيّ حال، أنقلها إلى آخر».

«تربّيتُ على تقاليد من بلادي، لكن، فيما بعد وغالبا، من بلادك. جزيرتكم البيضاء الهشّة التي غيّرت بالعادات وقواعد السلوك والكتب والمفوّضين والعقل بقيّة العالم، دافعتم عن السّلوك الدقيق. كنت أعرفُ أنني إذا رفعتُ كوبَ الشاي بالإصبع الخطأ، سوف أُطرَد، إذا ربطتُ العدّة الخطأ في ربطة العنق سأكون مطرودا. أهي السّفن فقط التي منحتكم قوّة كهذه؟»

«أنتم، ثم فيما بعد الأميركيون، قمتم بتغييرنا بقواعدكم التبشيريّة. بدّد الجنودُ الهنودُ حياتهم كأبطالٍ كي يصبحوا خالدين. إن حروبكم تزدهر كلعبة الكريكيت. كيف تخدعوننا هكذا؟ هنا... استمعوا أيها الناس إلى ما فعلتم». يرمي البندقية على السرير ويتحرك نحو الإنجليزي، المستقبلة البلورية معلّقة من حزامه، يفكّها ويضع السماعات فوق الرأس الأسود للمريض، الذي يجفل من ألم جلدة رأسه، لكن مهندس الألغام يتركها عليه، ثم يسير إلى الخلف ويلتقط البندقية، يُشاهد هانا على الباب.

قنبلة واحدة، تلتها أخرى، هيروشيما، وناغازاكي.

يحرف البندقية نحو التجويف، يبدو الصّقر في فضاء الوادي يحلّق مُتعمِّدا في لوحة المنظار. لو يغمضُ عينيه سيشاهد شوارع آسيا تتآكل في النار التي تتدحرّج عبر المدن كخريطةٍ متفجّرة، إعصار الحرارة يبخّر الأجساد حين يصل إليها. ظِلال البشر فجأة في الجو. ارتعاشة الحِكمة الغربيّة.

يراقب المريض الإنجليزي واضعًا السّماعات، مُركّزًا عينيه، مُصغيًا. يهبط منظار البندقية عن الأنف إلى تفاحة آدم، فوق عظم الترقوة. يتوقّف كيب عن التنفس، مسدّدًا البندقيّة من زاويتها الصحيحة، لا حركة.

ثم تنظر إليه عينا الإنجليزي.

«أيها المهندس»

يدخل كارافاجيو الغرفة ويصل اليه، يضرب ضلعه بكعب البندقية، ضربة من برثن حيوان، ثم، وكأن هذا جزء من الحركة نفسها، عاد إلى وضعية الزاوية اليُمنى الثابتة للتسديد الخاصة بفِرَق الإعدام، التي تعلّمها في ثكنات مختلفة في الهند وإنجلترا، العنق المحروق في منظاره.

«تحدّث معي يا كيب».

وجهه الآن سكّين، احتوى البكاء من الصدمة والهَوْل، يرى كلّ شيء، جميعَ من حوله، في ضوء مختلف، يمكن أن يخيّم الليل بينهم، يمكن أن ينتشر ضباب، لكن عيني الشاب الدكناوَين ستصلان إلى العدوّ الجديد المكشوف.

«قال لي أخي: لا تُدر ظهرك أبدا لأوروبا، مرتّبو الصّفقات، مُبرمو العقود، راسمو الخرائط، لا تثق أبدا بالأوروبيين، هذا ما قاله. لا تصافحهم أبدا، لكننا نحن تأثّرنا بسهولة، بالخطابات والأوسمة ومراسمكم. ما الذي كنتُ أفعله في تلك السنوات القليلة الأخيرة؟ أقطع وأعطّل القنابل، أعضاء الشر، من أجل ماذا؟ من أجل أن يحدث هذا؟»

«ماذا حدث؟ بحقّ الرّب أخبرنا!»

«سأترك لك الراديو لتبتلع دَرْسَكم التاريخي. لا تتحرك ثانية يا كارافاجيو. جميع

أحاديث الحضارة تلك من الملوك والملكات والرؤساء... أصوات النظام التجريدي تلك. شمّه، أصْغ إلى الراديو وتنشّق الاحتفال الذي فيه. في بلادي، حين يُسيء الأبُ إلى العدالة، يُقتل الأب».

«أنت لا تعرف من هذا الرجل»

لا يتزحزح منظار البندقية عن العنق المحروقة، ثم يحرفه مهندس الألغام إلى عيني الرجل.

«افعلها»، يقول الماسي.

تتقابل عينا مهندس الألغام بعينَي المريض الإنجليزي في هذه الغرفة المظلمة المحتشدة الآن بالعالم.

يهزّ رأسه للمهندس.

«افعلها»، يقول بهدوء.

يُخرج كيب مشط الطلقات ويلتقطه أثناء سقوطه. يرمي البندقية على السرير، تبدو كالأفعى التي جُمع سمُها. يرى هانا في المحيط.

ينزع الرّجل المحروق السماعات عن أذنيه ويضعها بهدوء أمامه، ثم يرفع يده وينتزع المساعد السمعيّ ويُسقطه على الأرض.

«افعلها يا كيب، لا أريد أن أسمع أي شيء».

يغمضُ عينيه، ينزل في الظلمة، بعيدا عن الغرفة.

يستند مهندس الألغام إلى الجدار طاويا يديه، خافضًا رأسه، يستطيع كارافاجيو أن يسمع الهواء يدخل من أنفه ويخرج، سريعا وحادًّا، كالمِكْبَس.

«إنه ليس إنجليزيا»

«لا يهمني إن كان أمريكيًّا أو فرنسيًا، حين بدأتم تقصفون سُلالات العالم السّمراء كنتم إنجليزًا، يحكمكم الملك ليوبولد ملك بلجيكا، والآن لديكم هاري ترومان اللعين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، تعلمتم جميعكم هذا من الإنجليز».

«لا، ليس هو، هذا خطأ، ربما كان إلى جانبك من بين جميع الناس»

قالت هانا: «سيقول إن ذلك لا يهمّ»

يجلس كارافاجيو على الكرسي، يعتقد أنه دائما يجلس على هذا الكرسي، يصدر في الغرفة صوتٌ حادّ خفيف عن المستقبلة البلّورية، ما زال الراديو يبثّ بصوته التحتمائيّ. لا يستطيع أن يستدير وينظر إلى مهندس الألغام أو إلى ثوب هانا الضبابيّ، يعرف أن الجندي الشاب على صواب، لن يستخدموا أبدًا قنبلة كهذه ضدّ أمّةٍ بيضاء.

يخرج مهندس الألغام من الغرفة تاركا هانا وكارافاجيو قُربَ السّرير. تركَ الثلاثة لعالمهم، ولم يعد حارسهم. في المستقبل حين يموت المريض سيدفنه كارافاجيو وهانا. دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ[118]. لم يعرف قط ما تعنيه تلك الكلمات القليلة القاسية في الكتاب المقدّس. سيدفنان كلَّ شيءٍ باستثناء الكتاب: الجسد والبطانيات والملابس والبندقية. سيصبح وحيدا مع هانا، وكان سبب كل هذا في المذياع، كان حدثا مريعا بزغ من الموجة القصيرة. إنّها حَرب جديدة، مَوت حضارة بأكملها.

ما زال الليل مخيّمًا. يستطيع أن يسمع الصقور الليلية، زعقاتها المنخفضة، الصوت المكتوم لأجنحتها وهي تدوّم. ترتفع أشجار السّرو فوق خيمته هادئة في هذه الليلة التي دون رياح. يستلقي ويحدّق إلى الزاوية المُظلمة في الخيمة، حين يغمض عينيه يشاهد النار، والبشر يتقافزون في الأنهار والخزّانات هربًا من اللهب والحرارة التي تُحرق أيّ شيء خلال ثوانٍ، شعورهم وجلودهم وحتى المياه التي يقفزون فيها.

حُمِلت القنبلة المتألّقة في طائرة فوق البحر، عابرةً القمر في الشّرق، نحو الأرخبيل الأخضر، ورُميت.

لم يتناول طعامًا أو يشرب ماء، ليس قادرا على ابتلاع أيّ شيء. قَبْلَ أن يخبو الضّوء يجرّد الخيمة من جميع المعدّات العسكريّة، جميع أجهزة تعطيل القنابل، جميع شارات بزّته. قبل أن يستلقي حلّ عمّامته ورجّل شعره ثم ربطه إلى أعلى،

واستند إلى الخلف وشاهدَ الضوء يتبدّد في بطءٍ على جِلد الخيمة، وصادفَتْ عيناه آخر زُرقةٍ للضوء، سامعًا هبوب الرياح في السّكون، ثم انحراف الصور حين تُصدر أجنحتها صوتا مكتوما، وجميع الأصوات الضعيفة في الجو.

يشعر أن جميع رياح العالم تنقضّ على آسيا. يبتعد عن القنابل الصغيرة الكثيرة لمهنته نحو قنبلة بحجم مدينة على ما يبدو، كبيرة بحيث تجعل الأحياء يشهدون موتَ السكّان حولهم. لا يعرف شيئا عن هذا السلاح، فيما إذا كان هجوما مفاجئا للمعدن والانفجار، أو هواء مغليًّا يخترق أي شيءٍ بشريّ. يشعر أن كل ما يعرفه هو أنّه لم يعد يستطيع ترك أي شيء يقترب منه، لا يستطيع أن يأكل الطعام أو حتى أن يشرب من بركة متجمعة على مقعد حجريّ في الدكّة. لا يشعر أنه يستطيع إخراج عود ثقابٍ من جيبه ليشعل المصباح لأنه يعتقد أن المصباح سيُحرق كلّ شيء. قبل أن يتبخّر الضوء من الخيمة أخرج صورة عائلته وحدّق إليها، اسمه كيربال سينغ، ولا يعرف ماذا يفعل هنا.

يقف الآن تحت حرارة الأشجار في دِفء آب دون عمامة، مرتديا القُرطَق، لباسه الهنديّ، فقط. لا يحمل شيئا في يديه، يسير على طول الأسيجة الشجريّة، قدماه الحافيتان على العشب، أو على أحجار أرضيّة الدكّة، أو في رماد نار قديمة. جسده حيٌّ في يقظته واقفا على حافة الوادي الكبير لأوروبا.

تشاهده في الصباح الباكر واقفا إلى جانب الخيمة. بحثت أثناء المساء عن ضوءٍ ما بين الأشجار. تناول كُلٌّ منهم الطعام بمفرده في الفيلا ذلك المساء، أمّا الإنجليزي فلم يأكل شيئا. تُشاهد الآن ذراع مهندس الألغام تدفع بقوة إلى الأعلى، والجدران القماشية تنهار بعضها فوق بعض مثل أشرعة، يستدير ويتجه نحو المنزل، يصعد الدرج إلى الدكّة، ويختفي.

في المصلى الصغير للكنيسة أمام المنزل، يعبر المقاعد المحروقة إلى الجزء الناتئ نصف الدائري حيث توجد تحت غطاءٍ مشمّعٍ مثقل بالأغصان درّاجة بخارية، يبدأ بسحب الغطاء عن الآلة، ينحني إلى جانب الدراجة ويبدأ في تزييتها.

حين تجيء هانا إلى المصلى الذي دون سقف تجده جالسا هناك مسندا ظهره ورأسه إلى العجلة.

«كيب».

لا يقول شيئا وهو ينظر عبرها.

«كيب، هذه أنا. ما الذي يجب أن نفعله حيال ذلك؟»

إنه حجرٌ أمامها.

تنحني حتى تصل إلى مستواه وتستند إليه، جانب رأسها على صدره، تبقى هكذا.

قلبٌ نابض.

حين لا يتبدّل صمته تستند إلى ركبتيها.

قرأ الإنجليزي لي شيئا من كتاب ما: «يبلغ الحُب من الضآلة أنّه قد يمزّق نفسه لدى عبوره ثقبَ إبرة».

يستند إلى ناحيته بعيدا عنها، وجهه يتوقف على بُعد بضعة إنشاتٍ من بِركة مطريّة.

فتى وفتاة.

بينما كان المهندس يُخرج الدراجة من تحت القماش المشمّع، كان كارافاجيو يستند إلى حاجز الشّرفة واضعًا ذقنه على ساعده، شعر أنه لا يستطيع أن يتحمّل مزاج المنزل فسارَ بعيدا. لم يكن هناك حين أدار مهندس الألغام محرّك الدراجة وجلس عليها بينما وثبت نصف وثبةٍ وهي حيّة تحته، فيما هانا تقف قريبة منه. لمس سِنغ ذراعها وجعل الآلة تتحرّك على المنحدر، وعندها فقط أعادها إلى الحياة.

عند منتصف ممرّ البوّابة كان كارافاجيو ينتظره حاملًا بندقية. لم يرفعها حتى بشكل رسميّ نحو الدرّاجة حين أبطأ الصبيّ، إذ وقف كارافاجيو في طريقه، جاءَ إليه ووضع ذراعيه حوله. عناقٌ عظيم. شعرَ أنه مسحوب ومشدود إلى العضلات: «سأتعلّم كيف أشتاق إليك»، قال كارافاجيو. ثم انطلق الصبيّ، وسارَ كارافاجيو عائدا إلى المنزل.

ضجّت الحياة في الدرّاجة تحته. دُخان محرّكها من طراز ترايومف وما ترفعه من غُبار وحصى تلتقطه الأشجار. قفزت الآلة فوق سياج الماشية الشّبكيّ عند البوابات، ثم بدأ يخرج من القرية عابرًا شذى الحدائق على جانبَيه، التي تغطّي المنحدرات بزاويتها المخادعة.

انزلق جسمه في الاعتياد، صدره متواز تقريبًا مع صفيحة وَقود، يلمسها تقريبًا. ذراعان أفقيّان توحيان بأقلّ مُقاومة ممكنة. اتّجه جنوبًا متجنّبًا فلورنسا نهائيًّا، تجاوز غريف، عابرًا مونتيغارشي وأمبر. بلدات صغيرة تجاهلتها الحرب ولم تتعرّض للغزو. وحين ظهرت تِلالٌ جديدة بدأ يتسلّق عمودها الفقريّ نحو كورتونا.

سافر عكس اتجاه الغزو، كأنه يُعيد لفّ مكنة الحرب، الطريق الذي لم يعد متوترا بالحضور العسكري. سارَ في طُرُقٍ يعرفها فقط، يرى بلدات القلاع المألوفة على مَبْعَدة. جلس ثابتا على الترايومف وهي تنطلق تحته على طول طرق البلاد. حمل القليل وترك جميع الأسلحة خلفه. الدراجة تُسرع عبر كلّ قرية دون أن تبطئ من أجل بلدةٍ أو ذِكرى حرب. تَرَنَّحَتِ الأَرْضُ تَرَنُّحًا كَالسَّكْرَانِ، وَتَدَلْدَلَتْ كَالْعِرْزَالِ[119].

فتحتْ حقيبة الظّهر التي تركها، فيها مسدّس ملفوف بمشمع، فاحت رائحته حين فتحته. فُرشاة أسنان ومسحوق تنظيف أسنان، ودفترًا يحوي رسومات بقلم رصاص، أحدها لها – هي جالسة في الدكّة فيما هو ينظر إليها من غرفة

الإنجليزي. في الحقيبة أيضًا عمامتان، وزجاجة نشاء، مصباح نزْع ألغامٍ بسيوره الجلديّة يُلبس أثناء الطوارئ، أشعلته فامتلأت الحقيبة بضوء قرمزي.

عثرت في الجيوب الجانبية على قطَع تجهيزات تتعلّق بنزع القنابل، لم تشأ لمسها. يوجد أنبوب معدنيّ ملفوف بقطعة قماش أخرى صغيرة قدّمته إليه، وكان يُستخدم لاستخراج سُكّر القيقب من الشجر في بلادها.

من بين أنقاض الخيمة، رفعَت صورة لابدّ أنها لعائلته. حملت الصورة على راحة كفها، سِيخيٌّ وعائلته.

شقيق أكبر بلغَ الحادية عشرة فقط في الصورة، كيب إلى جانبه يبلغ الثامنة من العمر. «حين نشبت الحربُ أيّد أخي كلّ من وقفَ ضدّ الإنجليز».

يوجد أيضا دليلٌ صغير يحتوي على خريطة للقنابل، ورسم لقدّيس يرافقه موسيقيّ.

أرجعت كلّ شيء باستثناء الصورة التي حملتها في يدها غير المنشغلة، حملتْ الحقيبة عبر الأشجار، سارتْ عبر الدكّة وأدخلتها إلى المنزل.

أبطأ من تقدّمه ليقف، كلّ ساعة، يبصق على النظارات الواقية ويمسح عنها الغبار بكُم قميصه. نظر إلى الخريطة مرة ثانية، سيذهب إلى بحر البنادقة جنوبا، فمعظم القوات على الحدود الشمالية.

صعدَ إلى كورتونا فيما صوت الدراجة المرتفع يملأ المكان حوله. ركب الترايومف صاعدا الدرجات إلى باب الكنيسة ثم دخل. كان هناك تمثال على سقّالة. أراد أن يقترب من وجهه لكنه لم يكن يمتلك منظار بندقيّة، فيما جسده متصلّب بحيث لا يستطيع تسلّق أنابيب البناء. تجوّل تحته مثل شخص لا يقدر على دخول حميميّة منزل. هبط دافعًا الدرّاجة على درجات الكنيسة ثم انطلق عبر الكروم المزقة وذهب إلى آريزو.

في سانسيبو لكروسلك طريق ملتوية نحو الجبال، إلى ضبابها، فكان عليه أن يُبطئ إلى السرعة الدُّنيا. وصل إلى بوكا ترابازيا. شعر بالبرد لكنه طرَدَ الطقس

من ذهنه. أخيرا صعد الطريق فوق البياض وكان الضباب سريرا خلفه. مرّ عند حافّة أربينو حيث أحرق الألمان جميع أحصنة العدوّ. قاتلوا هنا في هذا الإقليم مدة شهر، الآن عبَر في دقائق متعرّفًا فقط على ضريح مادونا السوداء[120].

جعلت الحرب جميع المدن والبلدات متشابهة، انحدر باتجاه الساحل إلى كابيتشي مير، حيث رأى العذراء تبزغ من البحر. نام على الهضبة المطلة على الجرف والمياه قُربْ المكان الذي أُخِذ إليه التمثال، تلك هي نهاية يومه الأول.

عزيزتي كلارا - عزيزتي مامان:

«مامان» كلمة فرنسية، كلارا كلمة دائرية توحي بالعناقات، إنها كلمة شخصيّة يُمكن أن تُقال علنًا. شيء ما مُريح وأبديّ مثل مركب احتفالات. رغم أنّك، روحيًّا كما أعرف، لا تزالين قارِبًا. تستطيعين أن تنحرفي وتدخلي شِقًّا خلال ثوانٍ. ما تزالين مستقلّة ومنعزلة. لستِ مركبًا مسؤولا عن كل ما حوله. هذه رسالتي الأولى طوال أعوام يا كلارا، لم أعتَد رسميّة الرسائل. أمضيت الأشهر القليلة الماضية مع ثلاثة آخرين وكانت أحاديثنا بطيئة وعارضة، لم أعتد الحديث بأيّ طريقة سوى هذه، هنا.

العام هو *194*- ماذا؟ نسيته لحظة، لكنني أعرف الشّهر واليوم. في أحد الأيام بعد أن سمعنا أن القنبلتين أُسقطتا على اليابان، شعرنا أن الأمر مثل نهاية العالم. من الآن فصاعدا أؤمن أن الشخصيّ سيظلّ إلى الأبد في حالة حرب مع الجماهير. إذا استطعنا أن نعلن هذا، نستطيع أن نعقلن أي شيء.

مات باتريك في برج حَمَام في فرنسا. في فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا يبنون أبراج الحمام ويجعلونها ضخمة وأكبر من معظم المنازل. وكان لها الشّكل التالي:

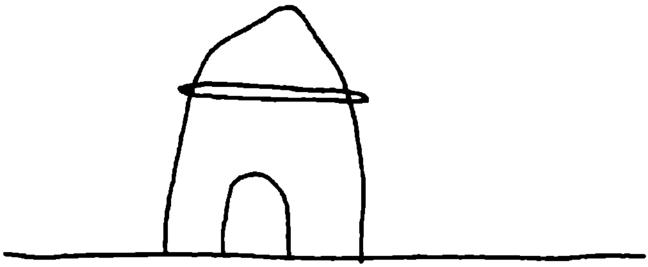

الخـطّ الأفقـيّ، ثُلـث الطريـق إلى أسـفل، يُدعـى طنـف الجـرذان، لمنـع الجـرذان مـن الجـري عـلى الآجـر، وهكـذا تبقـى الحمامـات آمنـة. آمِـنٌ مثـل بُـرج حـمام. مـكانٌ مقـدّس، يشـبه الكنيسـة بطـرق عـدّة. مـكان مريـح، مـات باتريـك في مـكان مريـح.

أدار الترايومف في الخامسة صباحًا، فرمت العجلة الخلفيّة الحصباء على بنطاله. ما زال في الظّلمة، غير قادر على تمييز البحر في الفسحة التي خلف الجرف. لم تكن معه أيّ خريطة في رحلته من هنا إلى الجنوب، لكنه استطاع أن يتعرّف على طرق الحرب ويتبع الطريق الساحلية. وحين خيّم ضوء الشمس كان قادرا على مضاعفة سرعته. الأنهار ما تزال أمامه.

وصل إلى أورتونا حوالي الثانية ظُهرًا حيث نصب المهندسون العسكريون جسور بيلي، التي أغرقتها العاصفة تقريبا وسط النهر. بدأ المطر يتساقط وتوقّف ليرتدي غطاء مطاطيا. سار حول الآلة في البلل. حين انطلق، تغيّر الصوت في أذنيه. حلّ صوت المطر مكان صوت الطنين والعواء، ودفعت العجلة الأمامية الماء إلى حذاءه. كل شيء شاهده عبر النظارات الواقية رماديًّا. لن يفكّر في هانا، طيلة الصمت الذي خيّم داخل ضجة الدراجة لم يفكّر فيها. كلّما بزغ وجهها محاه، يدير المقود لينحرف ثم عليه أن يركّز. إن كان ثمة كلمات فلن تكون كلماتها، ستكون أسماء على خريطة إيطاليا التي ينطلق عبرها.

يشعر أنه يحمل جسد الإنجليزي معه في انطلاقه هذا، يستلقي على صفيحة الوقود قبالته، الجسد الأسود يعانق جسده، مواجها الماضي من فوق كتفه، مواجهًا الرّيف الذي يتعدان عنه، ذاك القصر الذي يتباعد عنهما فوق التلّة الإيطالية، الذي لن يعاد بناؤه أبدا. كَلاَمِي الَّذِي وَضَعْتُهُ فِي فَمِكَ لاَ يَزُولُ مِنْ فَمِكَ، وَلاَ مِنْ فَمِ نَسْلِكَ، وَلاَ مِنْ فَمِ نَسْلِ نَسْلِكَ[121].

رتّل صوت المريض الإنجليزي كلمات إشعيا في أذنه كما فعل في ذلك الأصيل حين تحدّث الفتى عن الوجه الذي في سقف الكنيسة الصغيرة في روما. توجد مائة رسمة لإشعيا بالطبع. سترغب يوما ما في أن تشاهده كعجوز. في جنوب فرنسا تحتفل به الأديرة كعجوز ملتحٍ، لكن القوة ما تزال هناك في نظرته. أنشد الإنجليزي في الغرفةِ ذات الرسوم. هُوَذَا الرَّبُّ يَطْرَحُكَ طَرْحًا يَا رَجُلُ، وَيُغَطِّيكَ تَغْطِيَةً[122].

انطلقَ عميقا في المطر الكثيف. لأنه أحبّ الوجه الذي على السقف، أحبّ الكلمات أيضًا، كما آمن بالرجل المحروق ومروج الحضارة التي يميل إليها. إشعيا وإرميا وسليمان في كتاب الرّجل المحروق الذي إلى جانب السرير، كتابه المقدس، كل ما أحبّه ألصقه فيه. أعطى كتابه مهندسَ الألغام، فقال له المهندس: نحن أيضا لدينا كتاب مقدّس.

تشقّقت البطانة المطاطية للنظارات الواقية خلال الأشهر الماضية، وبدأ المطر يملأ كلّ جيب هواء أمام عينيه. سينطلق دونها، الصوت الجديد للدراجة بحر متواصل في أذنيه، وجسده المنحني متصلّب وبارد، ولم يكن هناك إلا فكرة الدفء من الآلة التي ركبها بحميمية. البخار الأبيض الذي يخرج منها حين ينزلق عبر القُرى كنجمةٍ منسابة، زيارة لنصف ثانية تكفي أن يتمنّى الإنسان خلالها أمنية، لأن السَّمَاوَاتِ كَالدُّخَانِ تَضْمَحِلُّ، وَالأَرْضَ كَالثَّوْبِ تَبْلَى، وَسُكَّانَهَا كَالْبَعُوضِ يَمُوتُونَ. أَمَّا خَلاَصِي فَإِلَى الأَبَدِ يَكُونُ وَبِرِّي لاَ يَنْقَضُ[123]. سرٌّ صحاري من العوينات إلى هيروشيما. كان يُزيل منظاره أثناء خروجه من منعطف نحو جسر فوق نهر أوفانتو، بدأ ينزلق وذراعه اليسرى مرفوعة تحمل المنظار. أسقطه فهدّأ الدرّاجة، لكنه لم يكن

محتاطا للاصطدام بحافّة الجسر، سقطت الدراجة تحته إلى اليمين، وبدأ فجأة ينزل معها نحو مركز الجسر، شرارات زرقاء من المعدن المخدوش حول ذراعيه ووجهه.

طارت علبة ثقيلة وعبرت فوق كتفيه، ثم انحرف هو والدراجة إلى اليسار ولم يكن يوجد حاجز للجسر، فانقذفا متوازيّين إلى الماء، هو والدراجة بشكل منحرف. وضع يديه فوق رأسه. انفصل عنه الرداء المطّاطي، عمّا كان آلةً أو بشرًا، وأصبح جزءًا من عنصر الهواء.

توقّف الجندي والدراجة في الجوّ، ثم دارا ساقطين نحو الماء، الجسم المعدنيّ بين ساقيه اللتين تمسّكتا به بشدة يفتح ممرًّا أبيض عبر الماء ويختفي، المطر يدخل أيضا إلى النهر. يَلُفُّكَ لَفٌّ لَفِيفَةٍ كَالْكُرَةِ إِلَى أَرْضٍ وَاسِعَةِ الطَّرَفَيْنِ[124] .

كيف انتهى باتريك إلى التواجد في برج الحمام، يا كلارا؟ تخلّت عنه وحدته العسكريّة، محترقًا مجروحًا. أزرار قميصه محروقة بحيث أصبحت جزءا من جلده، جزءا من صدره العزيز، الذي قبّلناه أنا وأنتِ. وكيف أُحْرِقَ والدي، الذي كان في وسعه أن ينحرف كالأنقليس، أو كقاربك، وكأنه مسحور، عن العالم الواقعي في براءته العذبة والمعقدة؟ كان أكثر الرجال صمتا، وأنا متفاجئة أن النساء أحببنه دائما. نميل إلى محبة رجل متكلّم حولنا، نحن العقلانيات، الحكيمات، وكان غالبا ضائعًا، غير متيقن من أي شيء، وصامتا.

كان رجلا محروقا وكنتُ ممرضة وكان في وسعي أن أعتني به. هل تفهمين حُزْنَ الجغرافيا؟ كان في وسعي إنقاذه أو على الأقل أن أكون معه حتى النهاية. أعرف كثيراً عن الحروق. كم أمضى من الوقت مع الحمَام والجرذان؟ مع المراحل الأخيرة للحياة والدم فيه؟ حَمَامات فوقه، ترفرف حين كانت تندفع حوله، غير قادر على النوم في الظلام. كم كَرِهِ الظُّلمة دائما، وكان وحيدا دون حبيبة أو قريب.

أنـا مريضـة مـن أوروبـا يـا كلارا. أريـد أن أعـود إلى الوطـن، إلى كوخـك الصغـير وصخرتـك الورديـة في خليـج جورجيـان. سأسـتقل حافلـة إلى بـاري سـاوند، ومـن الـبرّ سأرسـل رسـالة عـبر راديـو الموجـة القصـيرة إلى البانكيكـز وأنتظـرك، أنتظـر لأشـاهد صورتـك الظليّـة في قـارب يـأتي لينقـذني مـن هـذا المكان الـذي دخلنـاه جميعـا بعـد أن قمنـا بخيانتـك. كيـف أصبحـتِ ذكيّـة هكـذا؟ كيـف صمّمـت هكـذا؟ كيـف لم تُخْدَعـي مثلنـا؟ أنـتِ عفريـت المتعـة الـذي أصبـح حكيـما، الأنقـى بيننـا، حبّـة الفـول الأكـثر دكنـة، الورقـة الأكـثر اخـضرارا.

هانا

بزغ رأس مهندس الألغام من الماء وشهق مستنشقا الهواء كلّه الذي فوق النهر.

صنع كارافاجيو جسرا مجدولا من حَبْلٍ قُنّبي، ومدّه إلى سقف الفيلا المجاورة. ربط الحبل من هذه الناحية حول خصر تمثال ديميتريوس ثم ربطه بالبئر. كان الحبل أعلى قليلا من قمّتي شجرتي الزيتون في الممرّ.
يخطو عليه، قدماه تمسكان القنّب. كم تبلغ قيمة هذا التمثال؟ سأل هانا مرّة بالمصادفة، فأخبرته أن المريض الإنجليزي قال لها إن جميعَ تماثيل ديميتريوس لا قيمة لها.

تختم الرسالة وتقف، تعبر الغرفة لتغلق النافذة، وفي تلك اللحظة ينزلق البرق عبر الوادي. تشاهد كارافاجيو في الجوّ، في منتصف الممر الضيق الذي يتوضّع مثل ندبةٍ عميقة إلى جانب الفيلا. تقف هناك كأنّها في أحد أحلامها، ثم تتسلّق إلى تجويف النافذة وتجلس ناظرة إلى الخارج.
كلّما لمع البرق عبر الوادي، تجمّد المطر في الليل الذي يُضاء فجأة. تُشاهد الصّقور

الجارحة تطير في السماء، تنظر إلى كارافاجيو، يكون في منتصف الطريق يشمّ المطر الذي بدأ بضربه كالسّوط على جسمه كلّه، يتمسّك به، وفجأة يُثقله الوزن الزائد لثيابه.

تضع كفّيها المطويّتين خارج النافذة وتبلّل شعرها بماء المطر. مكتبة

تغرق الفيلا في الظلام. تشتعل في الصالة قرب غرفة نوم المريض الإنجليزي الشمعة الأخيرة، ما تزال حيّة في الليل، كلما فتح عينيه شاهد الارتجاج القديم للضوء الأصفر.

العالم بالنسبة إليه دون صوت الآن، حتى الضوء يبدو شيئا لا معنى له. يُخبر الفتاة في الصّباح أنه لا يحتاج إلى لهب شمعة ليرافقه وهو نائم.

حوالي الثالثة صباحًا، يشعُر بحضور في الغرفة، يشاهد لحظة شكلًا عند قدم سريره، إزاء الجدار، أو ربما مرسوما عليه، لا يمكن تمييزه تماما في ظُلمة وُريقات الجدران خلف ضوء الشمعة. يغمغم شيئا، شيئا أراد أن يقوله، لكنه يوجد الصمت والشكل الأسمر الضئيل، الذي يمكن أن يكون ظلّا ليليًّا، لا يتحرك. شجرة حور، رجلا يرتدي ريشا، شكلا سابحا، ويظن أنه لن يحالفه الحظ ليتحدث مع مهندس الألغام الشاب ثانية.

يبقى مستيقظا على أيّ حال تلك الليلة، كي يكتشف إن كان الشكل يتحرّك نحوه. متجاهلا الحبوب التي تُزيل الألم، سيبقى مستيقظا إلى أن ينطفئ الضوء وتدخل رائحة دخان الشمعة إلى غرفته وإلى غرفة الفتاة في نهاية الممر. إذا استدار الشكل سيكون هناك دهان على ظهره، حيث وقف حزينا مستندا إلى صور الأشجار، حين تنطفئ الشمعة سيكون قادرا على رؤية هذا.

تمتدّ يده ببطء وتلمس كتابه، ثم تعود إلى صدره الأسود، لا يتحرّك شيء آخر في الغرفة.

أين يجلس الآن وهو يفكّر فيها؟ تلك الأعوام، فيما بعد، مثل حجر يثبُ من التاريخ فوق المياه، مُرتدًّا عنها فتهرمُ هي وهو قبل أن يلمس السطح ثانية ويغرق. أين يجلس في حديقته، مُعيدًا التفكير في الدخول إلى المنزل ليكتب رسالة، أو يذهب يومًا ما إلى محطّة الهاتف، يملأ استمارة ويحاول أن يهاتفها في بلادها الأخرى. إنها هذه الحديقة، هذه البقعة المربّعة من العشب الجاف المقصوص، هي التي تذكره بالأشهر التي أمضاها مع هانا وكارافاجيو والمريض الإنجليزي شمال فلورنسا، في ڤيلا سان جيرولامو. لقد أصبح طبيبًا، أنجب ولدين من زوجته الفَكِهة. مشغولٌ دائمًا في هذه المدينة. الساعة السادسة مساءً ينزع معطفه الأبيض المخبري، الذي يرتدي تحته بنطالا داكنا وقميصا قصير الكمّين. يُغلق العيادة، حيث يضع فوق أوراق عمله أثقالًا من أنواع مختلفة لكي لا تطير من هواء المروحة: أحجارًا ومحابرَ ولعبة شاحنة لم يعد ولده يلعب بها. يعتلي درّاجته ويسوق أربعة أميال إلى منزله عبر السّوق. يحرف درّاجته كلّما استطاع إلى الجزء المظلّل من الشارع، وصل إلى سِنّ أدرك فيه فجأة أنّ شمس الهند تُنهكه.

يمرّ تحت أشجار الصفصاف إلى جانب القناة المائيّة، ثم يتوقّف في حارَةٍ من المنازل الصغيرة. يُزيل مشابك دراجته، ويحملها هابطا الدرجات إلى الحديقة الصغيرة التي اعتنت بها زوجته.

شيء ما في هذا المساء أخرج الحجرَ من الماء وسمح له أن ينتقل في الجوّ نحو البلدة التليّة في إيطاليا، ربما كان الحرْقَ الكيميائيّ على ذراع الفتاة التي عالجها اليوم، أو الدّرج الحجريّ حيث تنمو الأعشاب البُنيّة بعنفوان. كان حاملًا درّاجته، صاعدًا نصف الدرج قبل أن يتذكّر. حدث ذلك أثناء ذهابه إلى العمل، وهكذا أجّل زناد الذّاكرة حتى وصل العيادة، وانغمر في سبع ساعات من العمل المتواصل مع المرضى والأعمال الإدارية. وربما كان السبب هو الحرق على ذراع الفتاة.

يجلس في الحديقة، يراقب هانا التي طال شعرها في بلادها. وماذا تفعل؟ يشاهدها دائما، وجهها وجسدها، لكنه لا يعرف ما هي مهنتها، ما هي ظروفها، رغم أنه يشاهد ردود فعلها على البشر الذين حولها: انحناءها للأولاد، فيما باب

ثلّاجة أبيض خلفها، وأبعد منها في الخلفيّة الواسعة عربات قطار تعبر في صمت. هذه هديّة محدودة وُهبت إليه، مثل فيلم آلة تصوير اكتشف أنّه يحمل صورة لها، لكن هي فقط، في الصّمت، بحيث لا يميّز الرِّفْقَة الذين تتحرك بينهم، أو ماذا تفعل، إنّ كلّ ما يستطيع معرفته هو شخصيتها وطول شعرها الداكن الذي يتساقط مرة أخرى على عينيها.

يُدرك الآن أنها تحمل وجهًا جديًّا دائما. انتقلت من كونها فتاة شابة إلى تمتّعها بذاك الوجه القائم الزوايا الذي للملكات، إلى امرأة لم تصنع وجهها وفق رغبتها لتكون نوعا معيّنا من الأشخاص. ما زال يحبّ فيها هذا، ذكاءها، حقيقة أنها لم ترث ذلك الشّكل أو الجمال، بل بحثَت عنهما، وسيعكسان دومًا جزءًا حاضرًا من شخصيتها. يبدو أنه كُلّ شهر أو شهرين يراها بهذه الطريقة، كأنّ لحظات الوحي تلك هي استمرار للرسائل التي كتبَتْها له طوال عام دون أن تحصل على جواب، إلى أن توقفت عن إرسالها وابتعدت بسبب صمته، بسبب شخصيته، كما افترض. والآن تغزوه تلك الاندفاعات، أثناء تناوله الطعام مثلًا، للتحدّث إليها، للعودة إلى تلك المرحلة الحميمية التي جمعتهما في الخيمة، أو غرفة المريض الإنجليزي، حيث يهدأ نهر المسافة المضطرب بين وطنَيهما. مستذكرا ذلك الوقت، صار مُتيّما بنفسه هناك، كما كان معها، متهوّرًا وجديًا، ذراعه الرشيقة تتحرّك عبر الجوّ نحو الفتاة التي وقع في غرامها. حذاءه مبلّل قرب الباب الإيطالي، معقود الرّباط، ذراعه تمتدُّ إلى كتفها، وهناك الشّكل المتمدّد على السرير.

يراقب أثناء وجبة المساء ابنته تتصارع مع السكاكين محاولة أن تحمل الأسلحة الضخمة بيديها الصغيرتين. على هذه الطاولة أيديهم السمراء كلّها، يتحركون بسهولة مع أعرافهم وعاداتهم. زوجته تُضحكهم جميعًا بحسّ فكاهتها القويّ، الذي ورثه عنها ابنه. يحب أن يشاهد ذكاء ولده في هذا المنزل، كيف يفاجئه دائما، متجاوزا حتى معرفته هو وزوجته وحسّ فكاهتهما – الطريقة التي يعامل بها الكلاب في الشوارع، مُحاكيًا مشيتها ونظرتها. يُحبّ حقيقة أن هذا الولد يستطيع تقريبًا أن يخمّن رغبات الكلاب من تنوّع التعابير في سلوكها.

ومن المحتمل أن هانا تتحرك وسط رِفْقَة ليست من اختيارها. حتى في هذه السن، الرابعة والثلاثين، لم تعثر على رفقتها الحقيقيّة، على الأصدقاء الذين تريدهم. إنها امرأةُ شرفٍ وذكاء، حبّها الوحشيّ لا يركُن إلى الحظّ، بل يُجازف دائمًا. ثمّة فوق حاجبها علامة تستطيع هي فقط أن تتعرّف عليها في المرآة. كانت مَثَلًا أعْلى، ومثاليّة جدًّا، في ذلك الشعر الأسود المتوهج! الناس يعشقونها، ما تزال تذكر أبيات القصائد التي قرأها لها الإنجليزي بصوت مرتفع من كتابه المألوف. إنها امرأة لا أمتلك معرفة كافية لأحملها على جناحي، لو كان للكُتّاب أجنحة، كي آويها بقية حياتي.

وهكذا تتحرّك هانا، يستدير وجهها، وتُخفض شعرها نادمة. يلمس كتفها حافّة خزانة الأكواب، فتنزاح كأس، وتنحدر يد كيربال اليسرى نازلةً فتقبض الشوكة الساقطة على بُعد إنش من الأرض، ويعيدها في لُطف إلى يد ابنته، فيما التجاعيد حول عينيه بارزة تحت النظارة.

مكتبة
جديد الكتب والروايات
تابعنا هنا اضغط اللينك
t.me/ktabpdf
t.me/ktabrwaya
facebook.com/newpdf

إيضاحات

بينما بنيتُ بعض الشخصيّات التي تظهر في هذا الكتاب على شخصيات تاريخية، وبينما توجد كثير من المناطق التي وُصفت مثل الجلف الكبير واستُكشفَت حقًّا في الثلاثينيات، فإنه من المهم التأكيد على أن هذه القصّة وصور الشخصيّات التي تظهر، متخيّلة مثلها مثل بعض الحوادث والرحلات.

أحبّ أن أشكر الجمعية الجغرافيّة الملكيّة في لندن لسماحها لي بقراءة المادة الأرشيفيّة والإطلاع من خلال مجلّاتها الجغرافية على عالم المستكشفين ورحلاتهم، التي غالبًا ما كُتبت بأسلوب بديع. اقتبستُ فقرة من مقالة حسنين بيك Through Kufra to Darfur 1924 لوصف العواصف الرمليّة، ولقد استفدت منه ومن مستكشفين آخرين لاستحضار صحراء الثلاثينيات. أودّ أن أشير أيضًا إلى المعلومات التي استقيتها من كتاب د. رتشارد أ. بيرمان، Historical Problems of the Libyan Desert 1934. ودراسة ر. أ. باغنولد عن الماسي واكتشافاته الصحراوية.

كثيرة هي الكتب التي استعنت بها في البحث عن مادّة الكتاب. Unexploded Bombs للرّائد العسكريّ أ. ب. هارتلي، وقد أسّست بعض طرق كيبال لتفكيك القنابل عليه. المعلومات المذكورة في كتاب المريض الإنجليزي عن الرياح، أخذتها من كتاب ليال واطسون الرائع Heaven's Breath. واقتبستُ مباشرة من أقوال لكريستوفر سمارت، وآن ويلكينسون، ومن كتاب جون ميلتون Paradise Lost والآن مورهيد The Villa Diana وماري مكارثي The Stones of Florence وليونارد موسلي The Cat and the Mice وج. و. ل. نيكلسن The Canadian's in Italy 1943-5 وأيضًا Canada's Nursing Sisters. وموسوعة المارشال كافيندش للحرب العالمية الثانية، و ف. ييتس براونز Martial India. وثلاثة كتب أخرى حول الجيوش الهنديّة: The Tiger Strikes وThe Tiger Kills و A Roll of Honor.

شكرًا لقسم الدراسات الإنجليزية في كليّة غليندن، جامعة يورك، وفيلا سيربيلوني،

وروكفلر فاونديشن، ومكتبة الميتروبوليتان في تورنتو.

أودّ أن أعبّر عن امتناني أيضًا لهؤلاء الذين أكرموني بمساعدتهم: إليزابث دينس، التي سمحت لي بقراءة رسائلها التي كتبتها في مصر خلال الحرب؛ والأخت مارغريت في فيلا سان جيرولامو؛ ومايكل ويليامسون في مكتبة كندا الوطنيّة، أوتاوا؛ وآنا جاردين؛ ورودني دينس؛ وليندا سبالدينغ؛ وإيلين ليفين. ولالي مروه، ودوغلاس ليبان، وديفد يونغ، ودُنيا بيروف.

أخيرًا، شُكر خاصّ جدًّا لإيلين سيلغمان، وليز كالدر، وسَني مِهتا.

الهوامش

1 الجلف الكبير، هو هضبة تقع في منطقة نائية في جنوب غرب مصر، ترتفع 1000 متر فوق سطح البحر. وهي مشهورة بجمالها، وأهميتها الجغرافية، والرسومات والمنحوتات الصخرية التي تصوّر حياةً حيوانيّة ومستوطنات بشريّة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. كان الجلف الكبير محلا للعديد من عمليات القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، وما زالت آثارها وبقاياها متناثرة هناك.

2 الزرزورة، واحة اشتُهر «كتاب الكنوز» بذكرها، وهو مخطوط يعود ظهوره إلى القرن الخامس عشر، مجهول الكاتب وتاريخ الكتابة، ترد فيه قوائم أكثر من أربعمئة موقع في مصر تحمل كنزا خفيا. وُصفت الواحة في عدّة كتب بأنها بيضاء لكثرة الحمام، تحرسها الجان. يُرشد المخطوطُ الباحثَ عن الكنز إلى أخذ مفتاح الواحة من فم طائر منحوت على جدار فوق بوّابتها. بشكل عام، يعود ذكر واحات الكنوز المخفيّة في أعماق صحراء الغرب إلى ما قبل دخول الإسلام إلى مصر، وقد خرجت كثير من البعثات الاكتشافيّة للعثور عليها حتى العصر الحديث.

3 الجمعية الجغرافية الملكية هي جمعية علميّة أنشئت في لندن عام 1830، مكوّنة من المهتمين بالاستكشاف، والدراسات الجغرافية. تُصدِر مجلّة فصليّة بعنوان المجلة الجغرافية (The Geographical Journal).

4 بحر الرّمال الأعظم، أو بحر الرّمال المصريّ، يتكوّن من ثلاث بحار رمليّة في الشّمال الأفريقي، تمتدّ ما بين الجلف الكبير وواحة سيوة. وهي منطقة كثبان رملية ناعمة، يبلغ عرضها 200 كم، تُعتبر مانعًا طبيعيًّا لأي تحرّكات عسكرية، آلية أو راجلة.

5 بداية الحرب العالمية الثانية.

6 بيزا (Pisa)، مدينة إيطالية تقع على مقربة من البحر الأبيض المتوسّط بين مدينتي فلورنسا وليفورنو.

7 حديقة نباتية في لندن.

8 رؤساء الملائكة هم في بعض الأديان ملائكة أوْكلوا بمهامّ خاصّة. يختلف عددهم وتتنوّع التصوّرات حولهم حسب التقاليد الدينيّة التي تؤمن بهم، منها الأديان التوحيديّة والزرادشتيّة.

9 آخر سلالة الموهيكيّين: حكاية من العام 1757 (The Last of the Mohicans: A Narrative of 1757) هي رواية تاريخية صدرت عام 1826 بقلم جيمس فينيمور كوبر. تدور أحداثها في عام 1757 خلال الحرب الفرنسية والهندية (حرب السنوات السبع)، عندما حاربت فرنسا وبريطانيا العظمى من أجل السيطرة على أمريكا الشمالية.

10 روبنسون كروزو (Robinson Crusoe) هي قصة كتبها دانيال ديفو، نشرت للمرة الأولى سنة 1719. تعتبر أحيانا الرواية الأولى في الإنجليزية. هذه الرواية هي سيرة ذاتية تخيلية وهي تحكى عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيدا لمدة طويلة دون أن يقابل أحد من البشر.

11 تاريخ هيرودوتس، هو كتاب للمؤرّخ الإغريقي هيرودوتس (حوالي 484 ق.م - 425 ق.م). وثّق فيه العادات والسياسات والجغرافيا والصراعات القديمة في عدد من ثقافات حوض البحر الأبيض المتوسط وغرب آسيا في تلك الفترة.

12 الصحراء الكبرى، هي صحراء تحتلّ الجزء الأكبر من شمال أفريقيا، وهي أكبر الصحاري الحارة في العالم بمساحة تفوق التسعة ملايين كم مربع.

13 مقاطعات في جنوب غرب إنجلترا.

14 طاسيلي ناجَر أو تاسيلي نعاجر، هي سلسلة جبلية تقع في ولاية إليزي في الجنوب الشرقي للجزائر. ترتفع من رمالها قمم صخرية متآكلة جدا تعرف بالغابات الصخرية، تحوي كهوفًا تحمل جدرانها مجموعة من النقوش الغريبة التي تمثل حياة كاملة لحضارة قديمة. ومن تحليلها توصّل العلماء أن تاريخها يعود إلى ما قبل عشرين ألف عام.

15 كهف السباحين، هو كهف في وادي صورة، في منطقة الجلف الكبير الجبليّة في الصحراء الغربية. اكتشفَ الكهف في أكتوبر 1933 المستكشف الهنغاري لازلو ألماسي (László Almásy). تحمل جدرانه رسومات لأشخاص يسبحون نُقشت على الصخور أثناء العصر الجليدي الحديث.

16 بلاد النوبة، هو الاسم الذي أطلق المنطقة التاريخية التي كانت تقع بين مدينة أسوان ألمصريّة إلى جنوب الخرطوم السودانيّة.

17 (harpoon) رِماح صيد الحيتان والبحريّات، نهايته المدبّبة أشبه بنصف مثلّث بحيث ينساب بسهولة منغرسًا في جسد الصّيد لكنه يعلّق عند جذْبه.

18 برقة، اسم أطلق على إقليم تاريخي في شرق ليبيا. هيرودوتس هو أوّل من دوّن اسمها. وجرت فيها عملية الصليبي، وهي عملية عسكرية نفذها الجيش الثامن البريطاني ضد قوات المحور في ليبيا خلال حملة شمال أفريقيا في الحرب العالمية الثانية.

19 العقيلة هي مدينة ساحليّة شرق ليبيا. دارت فيها معركة العقيلة، وهي من معارك الحرب العالمية الثانية بين قوات الجيش الثامن البريطاني وبين قوات المحور (جيش أفريقيا المدرع).

20 بلدة سيدي رزق في طَبَرْقَة، مدينة تونسية تقع شمال الجمهورية التونسية.

21 السّيق هو المدخل الرئيس لمدينة البتراء التاريخية جنوب الأردن، وهو عبارة عن شقّ صخري يتلوّى ممتدًّا حتى بوّابتها.

22 (Pelmanism) هدفها العثور على البطاقتين المتشابهتين.

23 سيوة، مدينة وواحة مصرية في الصحراء الغربية، تشتهر بالسياحة العلاجية. وصنفها عدد من المواقع الأجنبية والعَربية ضِمن أكثر تسعة أماكن عُزلة على كوكب الأرض.

24 جهاز أمنيّ ألمانيّ سرّي، المسؤول عن عمليات اغتيال وقتل ملايين من الناس خلال الحكم النازي.

25 الكوردايت هي المادة الدافعة المستعملة في القذائف الصاروخية والمدافع والأسلحة النارية.

26 Tannic acid

27 Gentian violet

28 Belladonna

29 بطل فيلم رومانسيّ يحمل الاسم نفسه (The Scarlet Pimpernel).

30 Forest Hill

31 آنجلو آمبروجيني، ولقبه بوليزيانو (1494-1454) (Poliziano) أستاذ، شاعر و كاتب مسرحي إيطالي، يُعتبر شاعر عصر النهضة الإيطالي الذي تمركزت تمظهراته في مدينة فلورنسا.

32 لوريتزو دي ميديشي (Lorenzo de' Medici)، الملقب لوريتزو الرائع (-1449 1492)، حاكم فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أديب وراعي فنون كبير، ينتمي إلى سلالة ميديشي.

33 سانتا ترينيتا (Santa Trìnita) هي كنيسة وسط فلورنسا.

34 آل ميديشي (Medici) أحد أشهر عائلات فلورنسا، ولعبت الدور الأهم في تاريخها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. خرج من هذه العائلة ملكتين وثلاثة بابوات، ولها فلل وقصور عدّة في إيطاليا.

35 جيرولامو سافونارولا (Girolamo Savonarola)، زعيم فلورنسا منذ عام 1494 حتى إعدامه حرقًا عام 1498. واشتُهر مُصلحًا دينيًا وواعظًا مُناوئا للنهضة، وحارقًا للكتب واللوحات، ومحطّمًا لما اعتبره فنًا غير أخلاقي. يُنظر إليه أحيانا باعتباره بشيرا لظهور مارتن لوثر والإصلاح البروتستانتي.

36 عام 1497 قام واتباعه بعملية حرق الباطل. إذ أرسلوا صِبيةً من باب إلى باب، لجمع الأغراض المرتبطة بالانحلال الأخلاقي : المرايا، مستحضرات التجميل، الصور الخليعة، الكتب الوثنية، المنحوتات غير الأخلاقية، طاولات القمار، قطع الشطرنج، الآلات الموسيقية، الفساتين الفاخرة، المجوهرات، القبعات النسائية، والأعمال المنافية للآداب، والشّعر القديم، وأحرقت كلها في كومة كبيرة في ساحة السيادة بفلورنسا. فقدت العديد من أعمال عصر النهضة الفنية الفلورنسية بنيران سافونارولا - بما فيها لوحات لبوتيتشيلي ومايكل أنجلو.

37 سيمونيتا فسبوتشي (1476 -1453) (Simonetta Vespucci) إحدى أجمل نساء عصر النهضة، اعتبرها المعاصرون أجمل امرأة على قيد الحياة، كانت نموذجاً مصدر إلهام للعديد من الفنانين.

38 ألسندرو دي ماريانو، الملقّب بوتيتشيلي (1510 -1445) (Botticelli) رسام إيطالي من عصر النهضة.

39 بيكو ديلا ميراندولا (1494-1463) فيلسوف، لاهوتي ومفكّر إيطالي، ثالث أبناء عائلة أرستوقراطية. قام بدراسة وتلخيص أفكار أهم المدارس الفلسفية المعروفة في زمانه.

40 شيشرون (Cicero) كاتب روماني وخطيب روما المميز، ولد سنة 106 ق.م، صاحب إنتاج ضخم، ويُعتبر الجسر الذي عبره وصل إلى العالم جانب كبير من الفلسفة اليونانية.

41 الدودو، طائر عاجز عن الطيران، انقرض، وقد كان مستوطنًا جزيرة موريشيوس، شرق مدغشقر في المحيط الهندي.

42 باولو توسكانلي (1482 - 1397) (Paolo Toscanelli) هو عالم الفلك والرياضيات، والكوزموغرافي الإيطالي الأبرز.

43 شارع تاريخي يتوسّط فلورنسا، موازيًا النهر.

44 كنيسة سُمّيَت على اسم مصممها فيليبو برونليسكي (1446 - 1377) ،(Filippo Brunelleschi) وهو مِعماريّ ومهندس ورسّام ونحّات وسينوغرافي إيطالي من عصر النهضة.

45 مُدُن إيطالية جبليّة.

46 .Madonna del Parto

47 بييرو ديلا فرانتشيسكا (1492 -1416) (Piero della Francesca) هو رسّام إيطالي من عصر النهضة. تعتبر أعماله خلاصة الفن التصويري في إيطاليا في القرن الرابع عشر.

48 Maxentius

49 الراديو الكريستالي، أو الراديو البلّوري (Crystal radio) هو جهاز بسيط جدا لإستقبال موجات الراديو، وكان مستخدمًا بكثرة في بدايات ظهور الراديو. يتميّز بأنه لا يحتاج إلى مصدر تغذية كهربائية، بل يعتمد على الطاقة الموجودة في موجات الراديو التي يستقبلها بواسطة هوائيّ.

50 المُغرة (Ochre) هو حجر يستخرج منه صبغ أحمر بني مصفر.

51 مونتي كاسينو هي تلة صخرية على بعد 130 كم جنوب شرقي روما في إيطاليا، وجرت فيها معركة بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء في مايو 1944.

52 غرف رفاييل الأربعة (Stanze di Raffaello) في قصر الفاتيكان تشكل جناح الاستقبال، و القسم العام من الشقق البابوية. تتميز هذه الغرف باللوحات الجدارية التي رسمها رفائيل و ورشته.

53 كنيسة سيستينا (Cappella Sistina) هي أكبر كنيسة موجودة في القصر البابوي. تحتوي على لوحات مع جدارية سقف لمايكل أنجلو، وتُعتبر من أبرز الجداريات التي تميز عصر النهضة العليا في روما.

54 الرّعْن هي كُتلة صخريّة مرتفعة من الأرض، تنحدر بشكل مفاجئ من جانب واحد فقط يُطلّ على البحرغالبًا.

55 البحر الأدرياتيكي، أو بحر البنادقيّين، أو بحر البنادِقَة (Mare Adriatico) هو أحد فروع البحر المتوسط الذي يفصل شبه الجزيرة الإيطالية عن شبه جزيرة البلقان وسلسة جبال الأبينيني عن سلسلة جبال الألب الدينارية.

56 تيم باك (1891 - 1973) سياسي، قضى سنوات طويلة أمينًا عامًّا للحزب الشيوعي الكندي.

57 كيم (Kim) رواية الشّاعر والروائي الإنجليزي روديارد كبلينغ (1936 - 1865) (Rudyard Kipling) نشرت

سنة 1901. تسرد مغامرات يتيم إيرلندي يرافق راهبًا بوذيًّا من بلاد التّبت إلى جبال الهمَلايا بحثاً عن نهر الشّفاء المقدّس.

58 دَيْر بارم (The Charterhouse of Parma) رواية للروائي الفرنسي ستندال (1842 -1783) (Stendhal) نُشرت عام 1839.

59 كتاب «الحوليّات» للمؤرّخ والقاضي اليوناني تاسيتس (55-120)

60 مدفع زمزمه (Zamzama) ويعرف كذلك بمدفع كيم، هو قطعة مدفعيّة يُستخدم فيها البارود أو أيّ مادة متفجرة أخرى لدفع القذائف. صنع في لاهور عام 1762. يعدّ من أضخم المدافع التي صنعت في شبه القارة الهندية.

61 فاراناسي (Banāras) هي مدينة تقع على ضفاف نهر الغانغ في الهند.

62 سفر الملوك الأوّل 1: 1-4.

63 دونالد برادمان (2001- 1908) (Don Bradman)، لاعب كريكت أسترالي وكان يشتهر بأنه أعظم ضارِب للكرة على مر العصور.

64 مارمايت (Marmite) معجون طعام ذو قوام لزج ولون بني داكن وطعم مميز وقوي ومالح للغاية. تُصنع المارمايت من مستخلص الخميرة، وهو منتج ثانوي من عملية صنع الجعة.

65 غيرترود جيكل (1843-1932) (Gertrude Jekyll) بستانيّة ومصمّمة حدائق، فنّانة وكاتبة بريطانية. صمّمت أكثر من 400 حديقة في أوروبا وأمريكا، وكتبت عن البستنة أكثر من ألف مقالة. تلقّب بملكة الحدائق.

66 جوتّو (1266-1337) رسام ومهندس معماري إيطالي. يعتبر عموما من كبار الفنانين الذين ساهموا في النهضة الإيطالية.

67 الترمبلوي (Trompe l'oeil) تقنية للرسم الفني، استخدمت في اليونان القديمة وفي روما. خدعة بصرية تكمن في رسم خلفية على حائط وتبدو كأنها حقيقية. من نماذج الترومبلويل التي تُستعمل عادة هي النافذة، أو الباب، لإعطاء انطباع زائف بأن الغرفة أكبر.

68 تمثال شهير في المدينة الإيطالية رافينّا (Ravenna) اعتاد الزوّار تقبيله، عبارة عن غطاء لتابوت القائد غويداريلو (Guidarello Guidarelli) يصوّره مستلقيًا على ظهره ميتًا.

69 ستيفن كرين (1900 - 1871) (Stephen Crane) شاعر وروائي أمريكي وصحافي.

70 (Pearl Thread) أغنية الأمريكي غلين ميلر (1904) (1944-Glenn Miller).

71 أسلوب في عزف الجاز ابتكره الأمريكي ديوك إلينغتون (1899) (1974-Duke Ellington).

72 لورينز هارت (1943- 1895) (Lorenz Hart) شاعر غنائيّ أمريكيّ ضمن فرقة برودواي للتلحين.

73 ريتشارد روجرز (1979 -1902) (Richard Rodgers) موسيقيّ أمريكي، وهو ملحّن الأبيات المذكورة.

74 جورج غريشوين (George Gershwin) وإيرا غريشوين (Ira Gershwin)، أخوان، الأوّل ملحّن والأخير شاعر غنائي، تعاونا وقدّما أعمالًا ناجحة كثيرة مطلع القرن العشري.

75 كارافاجيو (1571 -1610) (Caravaggio) رسّام إيطالي، قام بإضفاء جوّ درامي على مشاهد لوحاته الواقعية. كان له تأثير كبير على الفنانين الذين جاؤوا بعده، وأطلق اسمه على تيّار فنّي شمل كامل أوروبا.

76 داود مع رأس جالوت (David with the Head of Goliath) لوحة رسمها كارافاجيو.

77 كارا (Kara) سوار فولاذي يرتديه السّيخيّ حول معصمه علامة الإيمان والانتماء.

78 (PENNSYLVANIA 6- 5000) أغنية الأمريكي غلين ميلر.

79 يقع وادي الريان في الجزء الجنوبي الغربي لمحافظة الفيوم في مصر.

80 واحة الخارجة تقع جنوب غرب مصر.

81 المستكشف الهنغاري لازلو ألماسي (1895 -1951) (László Almásy).

82 الأمير كمال الدين حسين، هو ابن السلطان حسين كامل، سلطان مصر إبّان الاحتلال البريطاني بين سلطان مصر من 1914 إلى 1917. اهتمّ كثيرا بالرحلات عبر الصحراء والسفر إلى بلدان شتى في العالم ، وجمع التحف الشرقية. انتهى بالتووجّه إلى الطرق الصوفية،متخليًا عن العرش قبل ساعات من وفاة والده.

83 رالف باغنورد (1896- 1990) (Ralph Bagnold) المؤسس والقائد الأوّل لكتائب الصحراء البريطانية في الحرب العالمية الثانية.

84 التُبو (القُرعان) هو مجموعة إثنية من الرُعاة الرّحّل وشِبه الرُحّل، يستوطنون الجزء الأوسط من الصحراء الكبرى الأفريقية.

85 السّنوسي، عشيرة تنتشر في ليبيا والسّودان.

86 الكُفرة واحة تقع في جنوب شرق ليبيا.

87 الجغبوب، بلدة جنوب شرق ليبيا، تتميز بوجود بعض البحيرات.

88 قبيلتان عربيّتان من المرابطين تسكن مناطق البرقة والفزان في ليبيا.

89 التاج، قرية وأرض مقدّسة في واحات الكُفرة في الصحراء الليبيّة.

90 قمبيز الثاني، ملك الأخمينيين الفُرس، ابن الشاه الإيراني قورش العظيم. استولى على مصر سنة 525 قبل الميلاد. وفقًا لهيرودوتس، أرسل قمبيز جيشًا قوامه خمسون ألف جنديًّا لتهديد معبد آمون في واحات سيوة، لكن في منتصف طريقهم قاطعين الصحراء هبّت عليهم ريح شديدة غمرتهم بجبال من الرمال وأخفتهم جميعا.

91 كانتربيري (Canterbury) من المدن المقدسة في الكنيسة الانجليكانية، تحوي الكاتدرائية الكبري التي انطلقت منها الدعوة للحروب الصليبية بقيادة ريتشارد قلب الاسد. تقع في جنوب إنجلترا.

92 جبل أركنو، يقع في وادي وواحة تقع في الصحراء الليبية، في منطقة الكفرة في ليبيا.

93 جبل العوينات، هو سلسلة جبلية في منطقة حدود ليبيا ومصر والسودان، ومعظم مساحته تقع في ليبيا. المنطقة معروفة بمجموعة رسوماتها البدائية القديمة على الصخور الجبلية.

94 جبل كيسو، جنوب ليبيا.

95 أبو بالاس، تلّة القوارير، إذ تحوي على آلاف الآنية القديمة المكسرة وشظايا الفخار المنتشرة على تلة اكتشفها الأمير كمال الدين في أوائل القرن التاسع عشر. الفخار المتناثر هو لقوارير مصنوعة من السيراميك يعود تاريخها إلى الاحتلال الروماني لمصر.

96 وادي الملك، أو وادي هور، هو من أكبر الوديان الواقعة في الصحراء الكبرى حيث ينحدر من تشاد ويستمر في شق الصحراء التي تفصل بين ليبيا والسودان.

97 موث (Moth) طائرة جولات وتدريب بريطانية ذات مقعدين، صنعت في عقد 1920.

98 (Rupert Bear) شخصيّة كرتونيّة.

99 قصيدة (الفردوس المفقود) (Paradise Lost) للشّاعر جون ميلتون (1608 -1674) (John Milton) ترجمة محمد عناني، كلمة، أبوظبي.

100 ويستبري (Westbury) بلدة ريفيّة تقع بالقرب من الطرف الغربي من مقاطعة ويلتشير في إنجلترا. من أهمّ معالمها "تلّة الحصان الأبيض" وهي تلّة يحمل جُرفُها نقشًا هائلًا على الأرض لحصان أبيض، يُعاد أصل وجوده إلى انتصار الملك فرِد على الدنماركيّين عام 878. كانت البلدة في أربعينيّات القرن العشرين وخمسينيّاته عبارة عن مساكن للجيش وثكنات عسكرية.

101 سفولك هي مُقاطعة إنجليزيّة.

102 لورنا دون (Lorna Doone) رواية نُشرت عام 1869 من تأليف الروائي البريطاني ريتشارد بلاكمور (Richard (1900-Blackmore) (1825

103 أوليفر لودج (1851 -1940) (Oliver Lodge) طبيب بريطاني وكاتب، صدر كتابه ريموند، أو الحياة والموت (Raymond or Life and Death) عام 1916 بعد موت ابنه ريموند في الحرب العالمية الأولى. كان صديقًا لآرثر كونان دويل، مؤلّف سلسلة شرلوك هولمز.

104 هيرمان ميلفل (1819 - 1891) (Herman Melville) مؤلّف الكلاسيكيّة العالميّة موبي دِك. أصدر كتابه بيير، أو الغوامض (Pierre, or The Ambiguities) عام 1852 الذي يتناول فيه حياته الروحيّة مع أمّه الأرملة وبعض أقربائه.

105 Bungalow

106 الفرافرة هي واحة صغيرة في صحراء مصر الغربية. ذاعت شهرتها في العالم بسبب نوعيّة صخورها وأشكالها وجبال الكريستال التي تتميّز بها.

107 تولستوي، ليو. آنا كارنينا. الفصل الأوّل، الجزء الخامس. ترجمة علي مولا.

108 أوديسيوس هو ملك إيثاكا الأسطوري، صاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون.

109 إينياس هو بطلُ طروادة، نجل الإلهة أفروديت.

110 أنوبيس هو إله الموتى القديم، ذو رأس ابن آوى في الميثولوجيا المصرية؛ دواموتف هو واحد من أبناء حورس الأربعة، المرتبطين بالأواني الكانوبية و حفظ أحشاء المتوفى عند تحنيطه.؛ وبواوت هو أو فاتح الطريق ، هو معبود مصري قديم أتخذه المصريون القدماء كإله فتح الطرق أمام الملك في المعارك وفي الحياة الأخرى وصوّروه على هيئة ذئب.

111 Jhelum, Chenab, Ravi, Sutlej, and Beas.

112 غوردوارا، تعني المدخل إلى المعلّم، وهو مكان عبادة السيخ. غير أنّ الغوردوارا المعظّم هو أشهرها، المسمّى هارمندير صاحب.

113 رامانادا (1300-1380) قدّيس وشاعر، مؤسّس طائفة من طوائف الهندوسيّة. الغورو ناناك (1469-1539) مؤسّس السّيخية. كابير (1440–1518) شاعر صوفي جوّال وقدّيس.

114 الرّاغي (ragi) المُوكّل بتلاوة وغناء الأشعار المقدّسة في كلّ غوردوارا.

115 غورو غرانث صاحب (Guru Granth Sahib) هو كتاب مقدس في السيخية. وهو نصّ ضخم يعود تاريخه إلى عام 1430، جُمع وأُلّف في عهد مؤسّسي السيخيّة الأوائل.

116 Terracotta

117 بومبي (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) مدينتان رومانيّتان دمّرهما ثوران بركان فيزوف عام 79 ميلاديّة، فلم يبقَ منهما سوى آثار بسيطة.

118 إنجيل متى 8 : 22.

119 سفر إشعياء 24 : 20.

120 مادونا السوداء (Black Madonna) تماثيل أو رسومات لمريم العذراء، تُصوَّر فيها وغالباً مع يسوع ببشرة سوداء أو داكنة. يمكن العثور على مادونا السوداء بشكل عام في الدول الكاثوليكية والأرثوذكسية.

121 سفر إشعياء 59 : 21

122 سفر إشعياء 22 : 17

123 سفر إشعياء 51 : 6

124 سفر إشعياء 22 : 18

المريض الإنجليزي

أربع حيوات تلتقي في منزل مهجور فوق تلّة إيطاليّة مقصوفة، أواخر الحرب: هانا، الممرّضة التي أنهك روحها الموت، ترعى بطريقة مُدهشة مريضها الأخير على قيد الحياة: كارافاجيو، اللصّ، يحاول أن يُعيد التفكير في هُويّته، الآن وقد باتت يداه اللتان نزل عليهما العقاب، دون فائدة له: الهنديّ كيب، الباحث دومًا عن الألغام المخفيّة في كلّ أرضٍ وركن، لا يأمَن أحدًا سوى نفسه - ينشغل كلّ واحدٍ منهم، بطريقة مختلفة، بلُغز الرّجل الذي يعرفونه فقط باسم المريض الإنجليزيّ: ضحيّة مُحترقة لا اسمَ لها، تستلقي في ضماداتها طوال الوقت في غرفة من المنزل.

إنها أحاديث هذا الرّجل المتّقدة عن ذكرياته في بحر الرّمال العظيم وصحاري مصر وليبيا، في كهف السبّاحين والجلف الكبير، عن البدو وواحاتهم وسحرهم، وحُبّه المحرّم، وغضبَته الشّرسة - تلك الذّكريات تُشعل القصّة وتكشف عن غوامضَ تنتقل في موجات صادمة إلى أولئك الهاربين من الحرب والموت حوله في المنزل، فتتغيّر حيواتهم إلى الأبد.

جائزة مان بوكر 1992

جائزة مان بوكر الذهبيّة 2018

روايات
REWAYAT

مكتبة 459